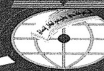


من النظرية الى التطبيق

تاليف : دانييل غورين

ترجمة : مزاحم الطائي

Bibliotheca Alexandrina
0161451



الــدار الجماهـيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

اللاسلطويّة

من النظرية الى التطبيق

تأليف: دانييل غورين
تقديم: نعوم جومسكي
ترجمة وحواشي: مزاحم الطائي

اللاسلطويّة

من النظرية الى التطبيق



الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان

الطبعة الأولى: الحرث 1425 ميلادية
رقم الإيداع: 2237 / 96 ـ دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان
سرت: ص.ب. 921 ـ مبرق: 30098 مطبوعات ـ ناسوخ: 62100 ـ 054
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى

هذه ترجمة حرفية لكتاب:

Anarchism: from theory to pratice

by: Daniel Guerin. Monthly Review Press, New York. 1970

نشر الأصل في باريس. جاليمار 1965 والترجمة إلى الإنجليزية بقلم: ماري كلوبر.

المحتويات

من مضامين الكتاب

- احذر من الاعتقاد من أن تكون اللاسلطة معتقداً، نظرية فوق السؤال أو النقاش.

أميل هنري ص (21)

- دعنا ألا نكون قادة دين جديد. حتى ولو كان دين المنطق والعقل.

من رسالة لبرودون إلى ماركس ص (21)

- حيثما تكون هناك سلطة فلن تكون هناك حرية.

شعار رفع في تشييع جنازة كروبتكن

بموسكو 1921 ص (118)

- كل لا سلطوي هو اشتراكيّ، ولكن ليس كل اشتراكيّ هو لا سلطويّ.

أدولف فيشر من شهداء مذبحة العمال

في الأول من أيار 1886 في شيكاغو ص (28)

- تأتي الثورات مثل لصّ في الليل، إنها تنتج بقوة الأحداث، تطول في الإعداد في أعماق الوعي الغريزي للجماهير ثم تنفجر، وغالباً ما تنطلق لأسباب تافهة في الظاهر.

باكونين ص (50)

- أطلق اللاسلطويون شعار «كل السلطات للسوفياتات» قبل أن يفعل ذلك حزب لينين طويلاً.

ص (107)

- إن الانتهازيين غير راغبين في الاعتراف بالمماثلة ما بين الماركسية ولا سلطوية برودون وباكونين.

لينين ص (88)

- في الحقيقة إن الماركسية الراديكالية تندمج مع التيارات اللاسلطويّة.

نعوم جومسكي ص (14)

- إن ما أخفق في روسيا لم تكن الثورة، بل الدولة.

جاستون ليفال 1921 ص (129)

المقدمــة

نعوم جومسكي

كتب كاتب فرنسي متعاطف مع اللاسلطوية في ثمانينات القرن التاسع عشر: «للاسلطوية ظهر عريض مثل الصحيفة، فإنها تتحمل كل شيء» بضمنه كما لاحظ. . . هؤلاء الذين أفعالهم «مما لا يقدر عدّو لدود للاسلطوية على الإتيان بأحسن منها»[1] وكانت هناك أنماط عديدة من الفكر والعمل اللاسلطويين، وسيكون من المتعذر محاولة جمع كل هذه النزعات المتضاربة في نظرية عامة أو ايديولوجية. وحتى لو بدأنا باقتباس تقاليد حية ومتطورة من تأريخ الفكر التحرري Libertarian كما يفعل دانييل غورين في كتابه الحالي يبقى من الصعب توليف معتقداتها كنظرية معينة ومحددة في المجتمع والتغيير الاجتماعي.

يعرض المؤرخ اللاسلطوي رودولف روكر الذي يقدم مفهوماً متناسقاً عن تطور الفكر اللاسلطوي نحو النقابية ـ اللاسلطوية في خطوط تقارن بكتاب غورين الموضوع جيداً عندما يكتب أن اللاسلطوية ليست «نظاماً اجتماعياً ثابتاً ومنطوياً على ذاته، وإنما بالأحرى اتجاهاً معيناً في التطور التاريخي للجنس

(1) أوكتاف ميربو مقتبس من جيمس جول: اللاسلطويون (بوسطن 1964).

البشري يناضل، على نقيض الوصاية الفكرية لكل المؤسسات الدينية والحكومية من أجل الانطلاق والنمو الحرّ لكل القوى الفردية والاجتماعية في الحياة. حتى ولو أن الحرية مفهوم نسبي فحسب وليس مطلقاً ما دام يميل باستمرار ليصبح أكثر تماسكاً وتأثيراً في دوائر أوسع بأكثر الطرق تنوعاً، فإن الحرية ليست بالنسبة للاسلطوي مفهوماً فلسفياً مجرداً، بل هي الإمكانية الصلبة الحيوية لكل كائن بشري لتحقيق النمو الكامل لكل القوى والإمكانات والمواهب التي منحتها الطبيعة إياه، وتحويلها لصالح المجتمع. لقد تأثر هذا النمو الطبيعي للإنسان بدرجة أقل بالوصاية الكنسية أو السياسية، وتظلّ الشخصية الإنسانية الأكثر قدرة وتلاؤماً والأكثر تصميماً، إنها ستصبح مقياس الثقافة العقلية للمجتمع الذي تنمو فيه[1].

وقد يتساءل المرء ما قيمة دراسة «اتجاه معين في التطور التأريخي للجنس البشري» لن يؤدي إلى انتظام نظرية اجتماعية معينة ومفصَّلة. حقاً إن العديد من المعلقين يصرفون النظر عن اللاسلطوية باعتبارها طوباوية ولا شكل لها، وبدائية، أو بتعبير آخر متنافرة مع حقائق مجتمع معقد. مهما يكن، ربما يناقش المرء بطريقة مختلفة: يجب أن ينصرف اهتمامنا في كل مراحل التأريخ إلى تعرية أشكال السلطة والاضطهاد الباقية من حقب زمنية كانت تُبرَّر فيها بعبارات الحاجة إلى الأمان أو البقاء أو التطور الاقتصادي، ولكن ذلك يساهم الآن، أكثر مما يخفف، في العجز المادي والثقافي.

إذا كان الأمر كذلك فلن يكون هناك معتقد للتغيير الاجتماعي ثابت للحاضر وللمستقبل، ولا حتى بالضرورة مفهوم ثابت للأهداف التي يتجه نحوها التغيير الاجتماعي. إن فهمنا لطبيعة الإنسان أو لماديات الأشكال الاجتماعية القابلة للتطبيق من البدائية بالتأكيد، بحيث إن أية عقيدة بعيدة المنال

(1) النقابية ـ اللاسلطوية (لندن 1938).

ستعامل بشكوكية كبيرة، تماماً مثل الشكوكية المسموح بها حين نسمع بأن «الطبيعة البشرية» أو «احتياجات الكفاية» أو «تعقيد الحياة الحديثة» يتطلب هذا الشكل أو ذاك من الاضطهاد والحكم الأوتوقراطي.

مهما يكن، هناك في أوقات معينة يكون كل مبرر لتطوير إدراك معين بالقدر الذي يسمح به فهمنا لهذا الاتجاه المعين في التطور التأريخي للجنس البشري مناسباً لمهام المرحلة. بالنسبة لروكر فإن «المشكلة التي تقوم في عصرنا هي تحرير الإنسان من لعنة الاستغلال الاقتصادي والعبودية السياسية والاجتماعية» وليست الطريقة هي استلام وممارسة سلطة الدولة أو النزعة البرلمانية السخيفة وإنما «بإعادة بناء الحياة الاقتصادية للشعوب من القاعدة فما فوق «وإعلائها بروح اشتراكية».

«لكن المنتجين أنفسهم وحسب مهيَّؤون لهذه المهمة ما داموا هم العنصر الوحيد الخالق للقيمة في مجتمع يمكن أن ينهض مستقبل جديد منه. يجب أن تكون مهمتهم تحرير العمل من كل الأغلال التي ألقاها الاستغلال الاقتصادي عليه، وتحرير المجتمع من كل مؤسسات وإجراءات السلطة السياسية، وفتح الطريق أمام تحالف للمجاميع الحرة للرجال والنساء يقوم على أساس العمل التعاضدي والإدارة المخططة للأشياء لصالح المجموعة، وتهيئة الجماهير الكادحة في الريف والمدينة لهذه الغاية العظيمة وشدّها معاً كقوة مناضلة هو هدف النقابية ـ اللاسلطوية الحديثة، وبهذا يتحقق غرضها كاملاً».

وروكر كاشتراكي يسلّم جدلاً «أن التحرير الجدي والنهائي والكامل للعمال ممكن فقط بشرط واحد: الانقضاض على الرأسمال الذي هو: المواد الخام وكل معدات العمل بضمنها الأرض، من قبل مجموع العمال بأكملهم» (باكونين) ويؤكد كنقابي لا سلطوي أكثر بأن تنظيمات العمال ستخلق «ليس فقط الأفكار وإنما أيضاً حقائق المستقبل نفسه» (باكونين) وستجسّد بذاتها في الفترة السابقة للثورة تركيب مجتمع المستقبل ـ وينظر للأمام نحو ثورة

اجتماعية ستلغي أجهزة الدولة بالإضافة إلى مصادرة الملكيات «ما نضعه محلّ الحكومة هو التنظيم الصناعي» «إن النقابيين ـ اللاسلطويين مقتنعون بعدم إمكان خلق نظام اقتصادي اشتراكي بواسطة مراسيم وقوانين حكومية، إنما فقط بواسطة التضامن الوطيد للعمل بالفكر، والعمل في كل فرع متخصص من فروع الإنتاج، وذلك من خلال استلام إدارة كل المصانع من قبل المنتجين أنفسهم بشكل تصبح فيه المجاميع المنفصلة والمصانع وفروع الصناعة أعضاء مستقلين في التنظيم الاقتصادي العام، وتدير إنتاج وتوزيع السلع بصورة نظامية لصالح الوحدة الاجتماعية، وعلى أساس الاتفاقات التبادلية الحرة».

عبَّر أنجلز في رسالة من سنة 1883 عن عدم اتفاقه مع هذا المفهوم كما يلي: «اللاسلطويون يقلبون الشيء رأساً على عقب، إنهم يعلنون أن الثورة البروليتارية يجب أن تبدأ بالتخلص من التنظيم السياسي للدولة... لكن تدميره في لحظة كهذه سيكون تدميراً للنظام الوحيد الذي تستطيع البروليتاريا المنتصرة بواسطته من تثبيت سلطتها المستولى عليها حديثاً، اكتساح مناوئيها الرأسماليين، وتنفيذ تلك الثورة الاقتصادية للمجتمع، والتي بدونها فإن الانتصار كله سينتهي حتماً إلى فشل جديد، وإلى مذبحة جماعية للعمال شبيهة بتلك التي حصلت بعد كومونة باريس «وعلى النقيض من ذلك فإن اللاسلطويين (وأكثرهم بلاغة باكونين) حذروا من أخطار «البيروقراطية الحمراء» التي ستبرهن على كونها «الأكذوبة الأكثر خسّة وفظاعة التي خلقها قرننا». وتساءل النقابي اللاسلطوي فرناند بلوتير «هل يجب أن تكون حتى الدولة الانتقالية التي يجب أن نخضع لها سجناً جماعياً بالضرورة والحتمية؟ ألا يمكن أن تتألف من تنظيم حر ومحدَّد بحاجات الإنتاج والاستهلاك حصراً، وتختفي كل المؤسسات السياسية؟»

أنا لا أزعم معرفة جواب هذا السؤال، ولكن يبدو واضحاً بشكل مقبول أنه ما لم تكن هناك إجابة إيجابية بشكل ما، فإن فرص ثورة ديمقراطية صادقة

تحقق المثل الإنسانية لليسار لن تكون كبيرة. وطرح مارتن بوبر المشكلة ببراعة حين كتب «لا يستطيع المرء أن يتوقع حسب طبيعة الأشياء من شجرة صغيرة انقلبت إلى هراوة أن تطلع أوراقاً» إن مسألة الانقضاض على، وتدمير سلطة الدولة هي التي رآها باكونين الموضوع الأولي الذي يبعده عن ماركس[1] وتثار المشكلة منذ قرن بشكل أو بآخر بصورة متكررة عازلة الاشتراكيين التحرريين Libertarians عن الاشتراكيين «السلطويين».

إذا بحث المرء عن فكرة مسيطرة واحدة داخل الموروث اللاسلطويّ فربما يمكن تحديدها بـ «الاشتراكية التحررية» إنها ينبغي أن تكون، كما اعتقد، ما تم «التعبير عنه من قبل باكونين فيما كتب عن كومونة باريس معرّفاً نفسه كما يلي:
«أنا محبّ متعصب للحرية، معتبراً إياها كظرف وحيد يمكن في ظله أن يتطور وينمو الذكاء والكرامة والسعادة الإنسانية، ليست الحرية الشكلية الخالصة الممنوحة والمقاسة والمنظمة من قبل الدولة، أكذوبة خالدة لا تمثل في الواقع شيئاً أكثر من امتياز قلة قام على عبودية الآخرين. ليست الحرية الفردية والأنانية والدنيئة والزائفة التي مجّدتها مدرسة جان جاك روسو والمدارس الأخرى للّبرالية البرجوازية التي تعتبر الحريات المزعومة لكل الناس معلنة من قِبل الدولة وهي تقيد حقوق كل واحد، وفكرة تقود حتماً إلى تخفيض حقوق كل واحد إلى الصفر. كلا أنا أعني النوع الوحيد من الحرية الذي هو جدير بالاسم، الحرية التي تضمن النموّ الكامل لكل القوى المادية والعقلية والمعنوية الكامنة في كل شخص. حرية لا تعترف بأية قيود غير تلك المحددة من قبل قوانين طبيعتنا الفردية والتي لا يمكن أن تعتبر كقيود بالضبط ما دامت هذه القوانين ليست مفروضة من قبل أي مشرّع خارجي بجانبنا أو فوقنا، وإنما هي متأصلة وموروثة وتؤلف الأسس الحقيقية لوجودنا المادي والعقلي والمعنوي،

(1) لغرض بحث تثقيفي عن تأثير كومونة باريس على هذا الخلاف انظر تعليقات دانييل غورين في مقتطفاته التاريخية الممتازة عن الحركة اللاسلطوية «لا إله ولا سيد» (لوزان 1969).

إنها لا تقيدنا بل هي الظروف الحقيقية والمباشرة لحريتنا»[1].

لقد أينعت هذه الأفكار في عصر التنوير وجذرها في «مقالة في أصل التفاوت» لروسو «وحدود نشاط الدولة» لهمبولت، وفي إصرار «كانْت» في دفاعه عن الثورة الفرنسية على أن الحرية هي الشرط الأوليّ لإحراز أهلية الحرية، وليست هبة تمنح عندما تُحرز أهلية كهذه. ومع تطور الرأسمالية الصناعية، نظام جديد وغير مسبوق للجور، فإن الاشتراكية التحررية هي التي حفظت ووسعت الرسالة الإنسانية الراديكالية للتنوير والمثل الليبرالية التقليدية التي انحرفت إلى إيديولوجية لدعم النظام الاجتماعي المنبثق.

في الحقيقة إنه بموجب نفس الفرضية تماماً التي قادت الليبرالية التقليدية إلى معارضة تدخل الدولة في الحياة الاجتماعية، فإن العلاقات الاجتماعية الرأسمالية لم تعد تطاق أيضاً. فإن همبولت على سبيل المثال في عمله الذي استبق، وربما ألهم جون ستيوارت ميل أن يعارض نشاط الدولة بسبب أنها تميل إلى أن «تجعل الإنسان آلة لتخدم أغراضها التعسفية متجاهلة أهداف الفرد»، ويؤكد أن «أي شيء لا ينطلق من الاختيار الحرّ للإنسان. . . لا يدخل ضمن كيانه الحقيقي، وإنما يبقى غريباً عن طبيعته الحقة، ولا ينفذه بطاقات إنسانية صادقة، وإنما بانتزاع آليّ وحسب» وفي ظلّ حالة الحرية «سيرتقي كل الفلاحين والحرفيين إلى فنانين، ذلك أن رجالاً يحبون عملهم لذاته يتقنونه بأصالتهم المبدعة ومهارتهم المبتكرة، وبذلك يصقلون ذكاءهم ويدعمون شخصياتهم ويسمون وينقون سراتهم» وعندما يستجيب إنسان للمطالب الخارجية وللسلطة فحسب «فإننا نعجب بما يفعل ولكن نحتقره» ليس همبولت فردياً بدائياً إلى هذا الحد، إنه يلخص أفكاره الرئيسية كالآتي: «بينما هم يحطمون كل الأغلال في المجتمع الإنساني، يحاولون إيجاد قيود اجتماعية

(1) كومونة باريس وفكرة الدولة في «لا إله ولا سيد».

جديدة بأكثر ما يمكن. والإنسان المنعزل ليس قادراً على التطور بأكثر ممن هو مغلول» أكمل هذا النص التقليدي من الفكر الليبرالي في 1792 وهو في جوهره ضد الرأسمالية بعمق وإن كان مبستراً، ويجب أن تُخفف أفكاره لتصبح ما وراء التمييز، ولكي تتحول إلى إيديولوجية للرأسمالية الصناعية.

إن رؤيا مجتمع تستبدل فيه الأغلال الاجتماعية بروابط اجتماعية، ويؤدي العمل بحرية تقترح ماركس الشاب ودراسته «لاغتراب العمل عندما يكون العمل غريباً عن العامل... وليس جزءاً من طبيعته... لذا فإنه لا يحقق ذاته في عمله وإنما ينكر ذاته... (وهو) منهك جسدياً ومنحط عقلياً» ذلك العمل المغترب «الذي يدير بعض العمال إلى الوراء، إلى نوع بربري من العمل ويقلب، آخرين إلى مكائن» وهكذا يتم اقتلاع الإنسان من «شخصيته النوعية» ومن «النشاط الواعي الحرّ» «والحياة المنتجة» صحيح أن الفكر التحرري التقليدي مضادّ لتدخل الدولة في الحياة الاجتماعية بناء على فرضيات أعمق عن الطبيعة الإنسانية والحاجة للحرية وللتنوع وللعلاقة الحرة، وبموجب نفس الفرضيات يجب أن تعتبر العلاقات الرأسمالية للإنتاج وعبودية الأجر والعمل المغترب والمنافسة، إيديولوجية الفردية المالكة، كلها ضد الإنسان بصورة أساسية أيضاً، وينبغي اعتبار الاشتراكية التحررية بالضبط كوريثة للمثل الليبرالية لعصر التنوير.

يصف رودولف روكر اللاسلطوية الحديثة «بملتقى التيارين العظيمين اللذين وجدا تعبيرهما المتميز خلال ومنذ الثورة الفرنسية في الحياة الفكرية لأوروبا: الاشتراكية والليبرالية» ويناقش أن المثل الليبرالية التقليدية كانت مشوهة في واقع أشكال الاقتصاد الرأسمالي، واللاسلطوية هي بالضرورة ضد الرأسمالية، ذلك أنها «تعارض استغلال الإنسان بواسطة الإنسان» لكن اللاسلطوية تعارض أيضاً «سيادة الإنسان على الإنسان» وتؤكد على أن الاشتراكية ستكون حرة أو لا تكون على الإطلاق، وفي إدراكها لذلك تكمن

أصالة وعمق تبريرها لوجود اللاسلطوية، وربما اعتبرت اللاسلطوية من وجهة النظر هذه كجناح تحرري للاشتراكية، وبهذه الروحية قدم دانييل غورين دراسة للاسلطوية في هذا العمل وفي أعمال أخرى[1].

يقتبس غورين من أدولف فيشر قوله: «كل لاسلطوي هو اشتراكي، ولكن ليس كل اشتراكي هو لاسلطوي بالضرورة» وبالمثل أعلن باكونين في «بيانه اللاسلطوي» لسنة 1865 برنامجه لمشروع الأخوية الثورية العالمية على قاعدة أن كلّ عضو يجب أن يكون وأن يبدأ اشتراكياً.

يجب على كل لاسلطوي ثابت على المبدأ أن يعارض الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وعبودية الأجر التي هي العنصر الجوهري لهذا النظام باعتبارها غير متوافقة مع قاعدة أن العمل يجب أن يؤدى بحرية وتحت رقابة المنتجين. وكما عبَّر ماركس، ينظر الاشتراكيون إلى الأمام، نحو مجتمع حيث العمل «يصبح ليس وسيلة للحياة فحسب، وإنما أيضاً المطلب الأسمى في الحياة» والاستحالة عندما يقاد العامل بواسطة سلطة خارجية أو حاجة بدلاً من حافز داخلي. ويجب ألا يعارض اللاسلطوي الثابت العمل المغترب فحسب، بل أيضاً التخصص المذهل للعمل الذي يأخذ مكانه عندما تشوه وسائل تطوير الإنتاج «العامل إلى مزق كائن إنساني، وتنحط به ليصبح مجرد تابع للآلة، وتجعل عمله عذاباً بحيث تدمر معناه الجوهري، وتبعد عنه الإمكانيات العقلية لتقدم العمل متناسباً تماماً مع المدى الذي يتوحد معه العلم كقوة مستقلة»[2].

إن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج هي حسب تعبير برودون الذي يقتبس

---

(1) انظر له: الشباب الاشتراكي التحرري (باريس 1959) ومن أجل ماركسية تحررية (باريس 1969).

(2) ماركس: الرأسمال مقتبس من قبل روبرت توكر الذي يؤكد بصورة صحيحة أن ماركس يرى الثوري كـ «منتج محبط» أكثر من «مستهلك خائب» (الفكرة الثورية الماركسية - نيويورك 1969). هذا الانتقاد الراديكالي جداً لعلاقات الإنتاج الرأسمالية ثمرة مباشرة للفكر التحرري لعصر التنوير.

كثيراً مجرد شكل من أشكال «السرقة» إنها «استغلال الضعيف من قِبل القوي».

يقف اللاسلطوي في هجومه المحتم على حق الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج مع هؤلاء الذين يناضلون لإيجاد «المرحلة التحريرية الثالثة والأخيرة للتأريخ». فقد أخرجت الأولى العبيد من عبودية الأرض، وأخرجت الثانية كاسبي الأجور من القنانة، والثالثة التي ستلغي البروليتاريا بفعل أخير للتحرير. ذلك الذي سيخلق الروابط الحرة والطوعية للمنتجين (فورييه 1848)[1] لقد لوحظ الخطر الوشيك الوقوع على «المدنية» من قبل ذلك المراقب الثاقب البصيرة دي توكفيل في 1848 أيضاً «طالما إن كان حق الملكية أصل وأساس عدة حقوق أخرى، فقد تم الدفاع عنه بسهولة أو بالأحرى لم يهاجم، ومن ثم كان دعامة المجتمع بينما كانت كل الحقوق الأخرى تحصينات خارجية لها، ولم تتحمل وطأة هجوم، وفي الحقيقة لم تكن هناك محاولة جدية للهجوم عليها. لكن اليوم عندما اعتبر حق الملكية البقية الباقية الأخيرة غير المقضيّ عليها للعالم الأرستقراطي، عندما ترك قائماً لوحده، والامتياز الوحيد في مجتمع المساواة فتلك مسألة أخرى. فكر بما يحدث في قلوب أبناء الطبقة العاملة، وبالرغم من أنني أعترف بأنهم هادئون لحد الآن، صحيح أنهم أقل هياجاً من قبل بفعل العواطف السياسية بدقيق العبارة، ولكنكم ألا ترون أن عواطفهم بعيدة عن كونها سياسية. . تصبح اجتماعية؟ ألا ترون أن الأفكار والآراء تنتشر رويداً فيما بينهم، والتي لا تبتغي فقط إزاحة قانون كذا وكذا ووزارة كذا وحكومة كذا وإنما تحطيم الأسس الحقيقية للمجتمع نفسه[2].

قطع عمال باريس في 1870 السكون وباشروا «بإلغاء الملكية. . . أساس كل المدنية نعم أيها السادة عمدت الكومونة إلى إلغاء الملكية الطبقية التي تصنع من عمل الكثيرين ثروة للقلة، إنها ابتغت مصادرة الأموال وأرادت جعل

(1) مقتبس في «سبل اليوتوبيا» لروكر 1945 (بوسطن 1958).

(2) مقتبس في جي. هامبدن جاكسون: ماركس، برودون والاشتراكية الأوروبية (نيويورك 1962).

ملكية الفرد حقيقة بتحويل وسائل الإنتاج: الأرض والرأسمال، والآن بصورة رئيسية وسائل العبودية والعمل المستغل إلى مجرد أدوات عمل حر ومترابط».

لقد أُغرقت الكومونة بالطبع بالدم، وانكشفت مرة أخرى طبيعة «المدنية» التي نشد عمال باريس إزالتها بهجومهم على «الأسس الحقيقية للمجتمع نفسه» عندما أعادت قوات حكومة فرسايل انتزاع باريس من سكانها، وكما كتب ماركس بمرارة ولكن بدقة: «تظهر مدنية وعدالة النظام البرجوازي على حقيقتها البشعة متى ما ثار عبيد وكادحو ذلك النظام ضد سادتهم، ثم تنتصب هذه المدنية والعدالة بهمجية غير مقنَّعة وانتقام جامح... وتعكس الأعمال الشيطانية للجند الروح الباطنية لتلك المدنية من حيث إنهم المدافعون المرتزقة عنها... إن برجوازية العالم كله التي تنظر برضى إلى المذبحة الجماعية بعد المعركة تنتفض برعب لمجرد تدنيس الطابوق والحصى»[1].

برغم الدمار العنيف لكومونة كتب باكونين أن باريس تفتح عصراً جديداً «للتحرير المضبوط والكامل للجماهير الشعبية ولتضامنها المستقبلي الحقيقي، عبر وبرغم تخوم الدولة... إن الثورة التالية العالمية والتضامنية للإنسان ستكون بعث باريس» ثورة لا زال العالم ينتظرها.

ومن ثم فإن اللاسلطوي الثابت سيكون اشتراكياً، ولكن اشتراكياً من نوع خاص، إنه لن يعارض العمل المغترب والمتخصص وحسب، وينظر إلى أمام نحو الاستيلاء على الرأسمال بواسطة مجموع العمال بكامله، وإنما سيؤكد أيضاً أن هذا الاستيلاء يكون مباشراً، ولا يطلق بواسطة قوة نخبة تعمل باسم البروليتاريا، وباختصار سيعارض «تنظيم الإنتاج بواسطة الحكومة: إنه يعني اشتراكية الدولة... هيمنة موظفي الدولة على الإنتاج وهيمنة المدراء... العلماء... موظفي المخازن في المخازن... إن غاية الطبقة العاملة هي

(1) ماركس: الحرب الأهلية في فرنسا 1871 (نيويورك 1940).

التحرر من الاستغلال، ولن تنال هذه الغاية، ولا يمكن نيلها بواسطة طبقة جديدة تدير وتحكم وتستبدل البرجوازية بنفسها. إنها تدرك فقط بواسطة كون العمال أنفسهم سادة الإنتاج».

أخذت هذه الملاحظات من «خمسة موضوعات عن الصراع الطبقي» للماركسي من الجناح اليساري أنتون بانيكوك، أحد المنظرين المعروفين لحركة شيوعية المجالس. وفي الحقيقة إن الماركسية الراديكالية تندمج مع التيارات اللاسلطوية.

ولمزيد من الإيضاح تأمل التشخيص التالي «للاشتراكية الثورية»: «ينكر الاشتراكي الثوري إمكان انتهاء ملكية الدولة إلى أي شيء غير طغيان بيروقراطي. لقد رأينا لماذا لا تستطيع الدولة مراقبة الصناعة ديمقراطياً. يمكن تملك ومراقبة الصناعة ديمقراطياً بواسطة لجان العمال للإدارة الصناعية والمنتخبة مباشرة من بين صفوفهم هم فحسب. تكون الاشتراكية جوهرياً نظاماً صناعياً، وتراكيبه ذات طابع صناعي. وهكذا يُمثل هؤلاء الذين يديرون الفعاليات الاجتماعية وصناعات المجتمع مباشرة في مجالس الإدارة الاجتماعية المحلية والمركزية. وبهذه الطريقة فإن قوى مثل هؤلاء المندوبين تتدفق متصاعدة من هؤلاء الذين يواصلون العمل متجاوبين مع حاجات الوحدة الاجتماعية، وعندما تجتمع اللجنة المركزية للإدارة الصناعية، فإنها ستمثل كل أوجه النشاط الاجتماعي. هنا تستبدل الدولة الرأسمالية السياسية أو الجغرافية بلجنة الإدارة الصناعية للاشتراكية. سيكون الانتقال من نظام اجتماعي إلى آخر هو الثورة الاجتماعية. لقد عنت الدولة السياسية عبر التاريخ كله حكم الناس بواسطة طبقات حاكمة، وستكون جمهورية الاشتراكية حكم الإدارة الصناعية بالنيابة عن الوحدة الاجتماعية كلها. عنت الأولى الخضوع الاقتصادي والسياسي للغالبية، وتعني الأخيرة الحرية الاقتصادية للجميع، ومن ثم ستكون ديمقراطية حقيقية».

أخذت هذه الملاحظات من «الدولة: أصولها ووظيفتها» لوليم بول وقد كتب في أوائل 1917[1] قبل «الدولة والثورة» للينين بقليل، وربما هو عمله الأكثر تحررية، وكان بول عضواً في الحزب الاشتراكي الليوني الماركسي وأحد مؤسسي الحزب الشيوعي البريطاني فيما بعد[2] ويشبه انتقاده لاشتراكية الدولة المعتقد التحرري للاسلطويين في مفهومه أن ما دامت ملكية الدولة وإدارتها ستقود إلى الاستبداد البيروقراطي يجب أن تحل الثورة الاجتماعية محلها التنظيم الصناعي للمجتمع مع رقابة العمال المباشر. ويمكن اقتباس عدة نصوص مماثلة.

وما هو أكثر أهمية بكثيرأن أُدركت هذه الأفكار في غمرة نشاط ثوري عفوي، وعلى سبيل المثال في ألمانيا وإيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى وفي إسبانيا (وبالتحديد برشلونة الصناعية) في 1936 ويمكن أن يناقش المرء أن بعض أشكال شيوعية المجالس هو الشكل الطبيعي للاشتراكية الثورية في مجتمع صناعي، إنه يعكس الفهم الأوّلي بأن الديمقراطية على نطاق واسع خدعة عندما يُراقب النظام الصناعي بواسطة أي شكل من أشكال النخبة الأتوقراطية سواء من المالكين أم المدراء أم التكنوقراط، حزب «طليعي» أم بيروقراطية الدولة. وفي ظل ظروف النفوذ السلطوي هذه لا يمكن فهم المثل الليبرالية التقليدية التي طورت إلى أبعد بواسطة ماركس وباكونين وكل الثوريين الحقيقيين بدون ذلك، ولن يكون الإنسان حراً في تطوير إمكانياته إلى أقصاها، وسيبقى المنتج «مزق كائن بشري» مُهاناً وآلة في عملية الإنتاج المدارة من فوق.

لقد حُجبت أفكار الاشتراكية التحررية بهذا المفهوم في المجتمعات الصناعية لنصف القرن الماضي، وكانت الإيديولوجية السائدة هي اشتراكية

---

(1) مطبعة العمل الاشتراكي (جلاسجو بدون تاريخ).

(2) عن بعض الخلفيات انظر والتر كيندال «الحركة الثورية في بريطانيا» (لندن 1969).

الدولة أو رأسمالية الدولة (في الولايات المتحدة ذات الطابع العسكري المتزايد لأسباب غير خافية)[1] إلا أنه كان هناك انبعاث في السنوات القليلة الماضية، وكانت الموضوعات التي اقتبستها من أنتون بانيكوك قد أُخذت من كراس راهن لمجموعة عمال فرنسيين راديكاليين (معلومات مراسلات العمال) والاقتباس من وليم بول عن الاشتراكية الثورية سيظهر في صحيفة بواسطة وليم كيندال، وكان قد ألقى في المؤتمر الوطني لرقابة العمال في شيفيلد بإنجلترا في آذار 1969 وأصبحت حركة رقابة العمال قوة متميزة في إنجلترا في السنوات القليلة الماضية، ونظمت عدة مؤتمرات وأصدرت أدبيات كراسات أساسية. ويحتسب ضمن أنصارها النشيطين ممثلون لبضع من نقابات العمال الأكثر أهمية. وعلى سبيل المثال تبنّى «اتحاد هندسة زئبقة وسبك المعادن» برنامج تأميم الصناعات الرئيسية «تحت رقابة العمال في جميع المستويات»[2] كسياسة رسمية. وفي القارة الأوروبية هناك تطورات مماثلة وصعّدت أحداث أيار 1968 بالطبع الاهتمام المتزايد بشيوعية المجالس والأفكار المتعلقة بها في فرنسا وألمانيا، وكما فعلت في إنجلترا.

لدى تحديد الدور المحافظ العام لمجتمعنا الإيديولجي جداً ليس من المدهش كثيراً أن الولايات المتحدة لم تمسّ نسبياً من قبل هذه التطورات. ولكن ذلك ربما يكون قابلاً للتغيير أيضاً. إن تآكل ميثولوجية الحرب الباردة على الأقل يجعل من الممكن رفع هذه التساؤلات في دوائر واسعة بكل معنى الكلمة. وإذا ما أمكن صد الموجة الراهنة من الاضطهاد، وإذا ما استطاع

(1) عن دراسة جيدة انظر ميشيال كيدرون «الرأسمالية الغربية منذ الحرب» (لندن 1868).

(2) انظر هوف ساكانلون: الطريق إلى الأمام، نحو رقابة العمال، معهد رقابة العمال 91 شارع جولد سميث. نوتنجهام. إنجلترا كراسة رقم تسلسل 1 لسنة 1968 وسكانلون هو رئيس أي.أي.أف. اتحاد نقابات العمال الثاني في السعة في بريطانيا وكان المعهد قد تأسس كنتيجة للمؤتمر السادس لرقابة العمال آذار 1968 ويستخدم كمركز لنشر المعلومات وتشجيع الأبحاث.

اليسار من إزالة ميوله الأكثر انتحارية، وبنى فوق ما تم إنجازه في العقد الماضي تصبح من بعد مشكلة كيفية تنظيم مجتمع صناعي في خطوط ديمقراطية حقة مع رقابة ديمقراطية في موقع العمل، وفي الوحدة الاجتماعية موضوعاً فكرياً سائداً لدى هؤلاء الذين يعايشون مشاكل المجتمع المعاصر، وكحركة جماهيرية من أجل تطورات اشتراكية تحررية. إن الفكر يأخذ طريقه إلى العمل.

تنبأ باكونين في بيانه لسنة 1865 أن أحد عناصر الثورة الاجتماعية سيكون «ذلك القسم المثقف والنبيل حقاً من الشباب الذي يتبنى رغم تبعيته بالولادة للطبقات الثرية، بقناعاته السمحة وطموحاته المتوهجة قضية الشعب» وربما يرى المرء في نهوض الحركة الطلابية لستينات القرن العشرين بدايات تحقق هذه النبوءة.

لقد أخذ دانييل غورين على عاتقه ما يصفه في مكان آخر «عملية رد اعتبار» للاسلطوية، إنه يناقش مقتنعاً كما أؤمن، بأن «الأفكار البناءة للاسلطوية تستعيد حيويتها، ذلك أنها عندما يعاد اختبارها وتمحص ربما تساعد الفكر الاشتراكي المعاصر على الشروع بانطلاقة جديدة. . . و. . . تساهم في إغناء الماركسية»[1] فهو يختار من «الظهر الواسع» للاسلطوية ومن أجل تفحص كثيف أكثر تلك الأفكار والفعاليات التي يمكن وصفها بالاشتراكية التحررية. وهذا شيء طبيعي ودقيق. ويوفر هذا العمل الرئيسي أهم الناطقين باسم اللاسلطوية بالإضافة إلى الفعاليات الجماهيرية التي أُفعمت بحيوية العواطف والمثل اللاسلطوية. لم يعتن غورين بالفكر اللاسلطوي فحسب، وإنما أيضاً بالفعاليات العفوية للقوى الشعبية التي خلقت بالفعل أشكالاً اجتماعية جديدة في حلبة الصراع الثوري. إنه مهتمّ بالخلق الاجتماعي بالإضافة للخلق

(1) مقدمة إلى «لا إله ولا سيد».

الثقافي، وأكثر من ذلك يحاول أن ينتزع من الإنجازات البناءة للماضي دروساً ستغني نظرية التحرر الاجتماعي، وهذا هو السبيل الحقيقي لدراسة تأريخ اللاسلطوية لمن لا يرغب في فهم العالم وحسب وإنما في تغييره أيضاً.

يصف غورين لاسلطوية القرن التاسع عشر كتنظير بصورة جوهرية، بينما كان القرن العشرون زمن «التطبيق الثوري»[1] للاسلطويين. ويعكس الكتاب الحالي ذلك الحكم ويشير تفسيره للاسلطوية بوعي إلى اتجاه المستقبل. ولاحظ آرثر روزنبرغ ذات مرة أن الثورات الشعبية تنظر بصورة متميزة إلى استبدال «سلطة إقطاعية أو مركزية تحكم بالقوة» ببعض أشكال نظام جماعي حيث «يتضمن القضاء على واختفاء الشكل القديم للدولة» سيكون نظاماً كهذا إما اشتراكياً أو «شكلاً متطرفاً من الديمقراطية... [الذي هو]... الظرف الممهد للاشتراكية بقدر ما يمكن إدراك الاشتراكية في عالم يتمتع بأعلى قدر متاح من الحرية الفردية وحسب» ويلاحظ أن هذا المثال كان مشتركاً بين ماركس واللاسلطويين[2] ويسير هذا الصراع الطبيعي من أجل التحرر نقضياً للنزوع السائد نحو المركزية في الحياة الاقتصادية والسياسية. كتب ماركس قبل قرن مضى أن عمال باريس «شعروا إن كان هناك بديل واحد فحسب: الكومونة أو الامبراطورية تحت أي اسم ربما تظهر ثانية» «لقد دمرتهم الامبراطورية اقتصادياً بواسطة الخراب الذي ألحقته بالثروة العامة وبعمليات الغش المالية بالجملة التي شجعت عليها، والدعم الذي قدمته للتركيز المتصاعد المصطنع للرأسمال والمصادرة اللازمة لصفوفهم: لقد قمعتهم سياسياً وصدمتهم معنوياً باستهتارها، وجرحت النزعة الفولتيرية لهم بإيداع تعليم أطفالهم إلى الإخوة الأميين، وأثارت مشاعرهم الوطنية كفرنسيين برميهم بطيش في حرب تركت معادلاً واحداً للخراب الذي صنعته: اختفاء

---

(1) كذا.

(2) تاريخ البلشفية 1932 (نيويورك 1965).

الإمبراطورية»[1] كانت الإمبراطورية الثانية البائسة «الشكل الوحيد الممكن للحكومة في وقت فقدت فيه البرجوازية القدرة توّاً، ولم تكتسبها الطبقة العاملة لحكم الأمة بعد».

ليس من الصعب جداً إعادة صياغة هذه الملاحظات بحيث تصبح ملائمة للأنظمة الامبراطورية لسنة 1870 وتبقى معضلة «تحرير الإنسان من لعنة الاستغلال الاقتصادي والعبودية السياسية والاجتماعية» معضلة عصرنا وطالما أن الأمر كذلك، فإن النظريات والتطبيقات الثورية للاشتراكية التحررية ستنفع كمصدر إلهام ودليل.

(1) الحرب الأهلية في فرنسا.

المدخـــل

تجدد الاهتمام مؤخراً باللاسلطوية، وكُرِّست كتب وكراسات ومقتطفات لها. ومن المشكوك فيه ما إذا كان هذا الجهد الأدبي مثمراً كثيراً حقاً، ومن الصعب متابعة المختصرات عن اللاسلطوية، ومفكروها الكبار نادراً ما قاموا بتلخيص أفكارهم في أعمال نمطية، وإذا ما حاولوا بالمناسبة مثل ذلك ففي كراسات صغيرة فقط صممت لأجل الدعاية والنشر العام، وفيها يمكن ملاحظة نتف فقط عن أفكارهم، فضلاً عن أن هناك عدة أنواع من اللاسلطوية، ومتغيرات عديدة داخل تفكير كل من التحرريين Libertarians الكبار.

إن رفض السلطة والتأكيد على أولوية القناعة الفردية يجعل من إفصاح التحرريين عن قناعاتهم ضد ـ العقدية «Anti Dogmatism» أمراً طبيعياً «دعنا ألا نكون قادة دين جديد» كتب برودون إلى ماركس «حتى ولو كان دين المنطق والعقل» وما يعقب ذلك من آراء للتحررين فإنها أكثر تنوعاً. . . أكثر تدفقاً، وأصعب على الفهم من آراء الاشتراكيين السلطويين[1] الذين تحاول كنائسهم المنافسة على الأقل فرض أطقم من المعتقدات على أتباعها.

كتب الإرهابي إميل هنري قبيل سوقه إلى المقصلة رسالة إلى مدير السجن

---

(1) «السلطوية» صفة استعملت من قبل اللاسلطويين التحرريين للإشارة إلى الاشتراكيين الذين اعتبروهم أقل تحررية منهم، ومن أجل ذلك افترضوا أنهم كانوا في خدمة سلطة ما.

حيث كان ينتظر الإعدام موضحاً: «احذر من الاعتقاد من أن تكون اللاسلطة معتقداً، نظرية فوق السؤال أو النقاش، أن تكون موقرة من قبل عارفيها مثلما هو القرآن من قِبل المسلمين الورعين. كلا! إن الحرية المطلقة التي نطالب بها بإصرار ستنمي تفكيرنا وترفع به إلى آفاق جديدة ـ تبعاً لدور عقلية الأفراد المختلفين ـ لتخرج به من الإطار الضيق للتعاليم والتصانيف نحن لسنا ـ مؤمنين» واستمر الرجل المدان ليرفض «الإيمان الأعمى» للماركسيين الفرنسيين في زمانه «إنهم يؤمنون بشيء لان جوسيد[1] قال إن المرء يجب أن يؤمن به، ولديهم كتاب تلخيص معتقدات Catechism ويكون السؤال عن أي من بنوده تدنيساً له».

بالرغم من تنوع وثراء الفكر اللاسلطوي، وبالرغم من التناقضات والمناقشات النظرية التي غالباً ما تركزت حول مشاكل زائفة، فإن اللاسلطوية تقدم هيكلاً واضحاً ومتجانساً من الأفكار. صحيح أنه ربما يبدو من النظرة الأولى أن هناك اختلافاً كبيراً بين اللاسلطوية الفردية لشترنر (1806 ـ 1856) واللاسلطوية الاجتماعية، وعندما ينظر المرء بعمق أكثر في الموضوع على كل حال فلا يبدو أنصار الحرية الشاملة وأنصار التنظيم الاجتماعي متباعدين كثيراً عن بعض كما يظنون هم أنفسهم، أو كما يظن الآخرون من أول وهلة. إن اللاسلطوية الاجتماعية[2] هي أيضاً فردية وإن اللاسلطوي الفردي ربما يكون نصيراً (يخشى من الإعلان عن نفسه) للمنظور الاجتماعي.

تقوم الوحدة النسبية للاسلطوية الاجتماعية على حقيقة أنها كانت قد تطورت خلال حقبة واحدة بواسطة أستاذين اثنين، كان أحدهما حوارياً وتابعاً

---

(1) جوليس جوسيد (1845 ـ 1922) قدم الأفكار الماركسية في 1879 إلى الحركة العمالية الفرنسية (ملاحظة المترجمة).

(2) استعملت عبارة «اجتماعية» لتحديد شكل من أشكال اللاسلطوية ينكر الفردية ويبتغي اندماجاً في المجتمع (ملاحظة المترجمة).

للآخر: الفرنسي بيير ـ جوزيف برودون (1809 ـ 1865) والمنفي الروسي ميخائيل باكونين (1814 ـ 1876) وقد عرّف الأخير اللاسلطوية «كبرودنية تطورت جداً ودفعت إلى نتائجها القصوى» ودعا هذا الطراز من اللاسلطوية نفسه بالجماعية.

على كل حال رفض الخلف الاسم وأعلنوا أنفسهم شيوعيين (شيوعيون تحرّريون بالطبع) ونزع أحدهم وهو منفي روسي آخر: بيتر كروبتكن (1842 ـ 1921) بالنظرية إلى اتجاه طوباوي أكثر صرامة وتفاؤلية إلا أن منظوره «العلمي» فشل في تغطية ضعفه. ومن جانب آخر تحوّل الإيطالي أنريكو مالاتيستا (1853 ـ 1932) إلى المغامرة وأحياناً النشاط الصبياني، ولو أنه أثرى التفكير اللاسلطوي بمجادلاته العنيدة وغالباً النيّرة، وأخيراً أثمرت تجربة الثورة الروسية واحداً من أروع الآثار اللاسلطوية ذلك هو فولاين (1882 ـ 1945)[1].

كان للنزعة الإرهابية اللاسلطوية لنهاية القرن التاسع عشر ملامح درامية وقصصية، وهالة دموية مغرية لأهواء الجمهور العام، وكانت في وقتها مدرسة للشجاعة والمقدرة الفردية التي نالت التقدير، ولها فضل جلب انتباه الجماهير إلى الظلم الاجتماعي، ولكنها تبدو اليوم انحرافاً وقتياً وعقيماً في تاريخ اللاسلطوية، وإنها تبدو وقد فات أوانها. إن تركيز انتباه المرء على «إناء طعام» رافاكول[2] هو إنكار واستخفاف بالمميزات الأساسية لمفهوم معين عن إعادة التنظيم الاجتماعي. وعندما يدرس هذا المفهوم بدقة فسيظهر بناء بصورة فائقة. وليس مخرباً كما يدعي خصومه. إنها هذه السمة البناءة للاسلطوية هي ما سيتمّ تقديمه للقارىء في هذه الدراسة. بأيّ حق وعلى أيّة أسس؟ لأن

---

(1) كان فولاين الاسم الأدبي لـ (في.إم.إيخنبأوم) مؤلف الثورة المجولة 1917 ـ 1921 والذي مجلده الثالث هو بالإنجليزية: الثورة المجهولة (1955) وترجمة جزئية أخرى هي «ألف وتسعمائة وسبعة عشر: الثورة الروسية المضلّلة» 1954 (ملاحظة المترجمة).

(2) الاسم المستعار للإرهابي الفرنسي فرانسوا كالوديوس كوينجستاين (1859 ـ 1892) الذي ارتكب عدة أعمال إرهابية عنيفة وأعدم أخيراً (ملاحظة المترجمة).

المادة المدروسة ليست مهجورة بل ذات صلة وثيقة بالحياة، ولأنها تتناول مشاكل هي أكثر حدة من قبل. إنها تظهر أن المفكرين التحرريين قد استبقوا فهم حاجات عصرنا إلى مدى جدير بالاحترام.

لا ينشد هذا الكتاب الصغير استنساخ تواريخ وتراجم حياة اللاسلطوية المنشورة مؤخراً، وكان مؤلفوها مدرسيين اهتموا بصورة رئيسية بعدم حذف أية أسماء، وافتتنوا بالمشابهات الظاهرية، واكتشفوا العديد من رواد اللاسلطوية، وأعطوا غالباً ثقلاً مساوياً للنابغة ولأتباعه الثانويين جداً معاً، وقدموا تفاصيل حياة أشخاص بإفراط بدلاً من صنع دراسة عميقة للأفكار. وتترك لهجتهم التعليمية القارىء وهو يشعر بالإسهاب، وغالباً بعدم الترابط، ولا زال يسأل نفسه: ما هي اللاسلطوية حقاً.

لقد حاولت سلوك مسلك مغاير إلى حدّ ما. أنا أفترض أن حياة أساتذة التفكير التحرري معروفة، وفي حالتي هذه فإنها تنير على الأغلب الأقل جداً من أهدافنا عما يتصور بعض الكتّاب. ولم يكن العديد من هؤلاء الأساتذة لاسلطويين في عموم حياتهم، وتتضمن أعمالهم الكاملة مقاطع لا علاقة بها باللاسلطوية.

لنأخذ مثالاً: اتخذ تفكير برودون في القسم الثاني من حياته اتجاهاً محافظاً فإن كتابه المطنب المضخم «عن العدالة في الثورة وفي الكنيسة» 1858 تعلق بصورة رئيسية بمشكلة الدين، وكانت محصلته بعيدة عن التحررية، وفي النهاية وبرغم معاداته المتحمسة للإكليركية، فإنه قبل بكل مقولات الكاثوليكية بعد إخضاعها لتفسيراته الخاصة، بادعاء استفادة التعليم والمران الخلقي للشعوب من حفظ الرمزية المسيحية، وبدا في كلماته الأخيرة مستعداً على الأغلب لتلاوة دعاء. إن احترام ذكراه يمنع من ذكر كل شيء سوى إشارة عابرة إلى «تحيته للحرب» وانتقاداته الشديدة للمرأة أو توافقه مع العنصرية.

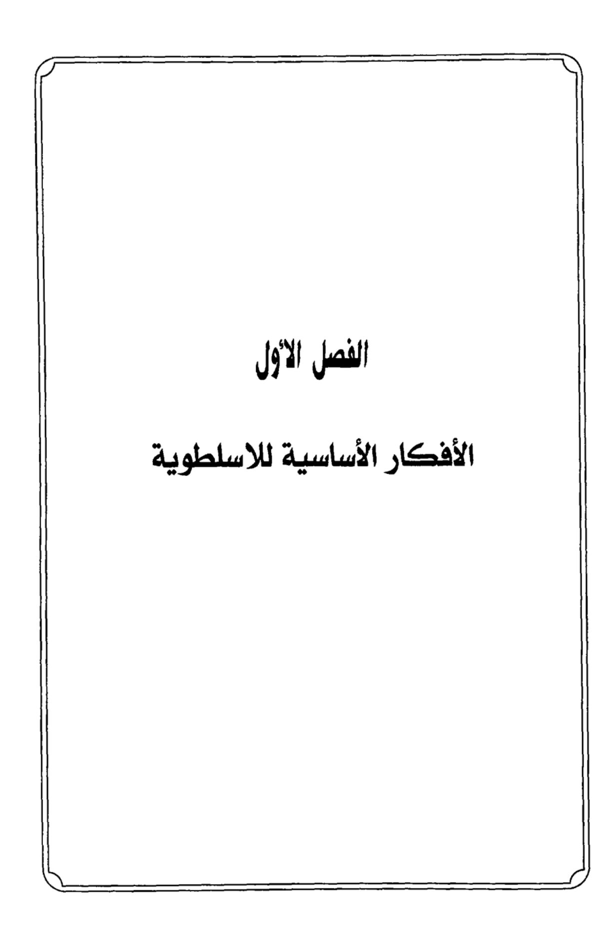
حصل العكس بالنسبة لباكونين: لم تكن حياته الطليقة الأولى كمتآمر

ثوري مرتبطة باللاسلطوية وتقبل الأفكار التحررية في 1864 فحسب، وبعد إخفاق الانتفاضة البولونية التي لعب دوراً فيها. وليس لكتاباته الأولى مكان في مجموعة كتابات لاسلطوية. كذلك بالنسبة لكروبتكن فلم يكن لعمله العلمي البحت الذي اشتهر من أجله اليوم في الاتحاد السوفياتي كضوء ساطع في مجال دراسة الجغرافية الوطنية علاقة باللاسلطوية أكثر مما لاتجاهه المؤيد للحرب إبان الحرب العالمية الأولى.

لقد تم تبنّي أسلوب غير معتاد في هذا الكتاب: بدلاً من السياق التاريخي وتسلسل الأحداث سيواجه القارىء بدوره الموضوعات البنّاءة الرئيسية للاسلطوية وليس الشخصيات. وقد حذفت عمداً العناصر التي هي ليست خاصة بالنزعة التحررية فقط مثل نقد الرأسمالية والإلحاد ومعاداة النزعة العسكرية والحب الحر الخ... مفضلاً ذلك على إعطاء صورة مكررة ثانوية، ومن ثم طبعة معادة باهتة غير مدعومة بأدلة. وأعطيت المجال لمقتطفات لتتحدث مباشرة كلما أمكن ذلك، ويعطي هذه للقارىء حرية الدخول في مجال أفكار الأساتذة بشكلها الدافىء والحيّ، وكما أنجزت بالأصل.

ثانياً، اختبرت النظرية من زاوية مختلفة: إنها تشاهد في الحقب الزمنية العظيمة حينما وضعت في الاختبار بواسطة الأحداث ـ الثورة الروسية لسنة 1917 وإيطاليا بعد 1918 والثورة الإسبانية لسنة 1936 ويعالج الفصل الأخير ما هو بلا شك الإبداع الأكثر أصالة للاسلطوية التسيير الذاتي للعمال، كما طوّر في قبضة الواقع المعاصر في يوغوسلافيا والجزائر وربما، من يدري، في الاتحاد السوفياتي عاجلاً.

وسيجد القارىء على مدى هذا الكتاب الصغير مفهومين متناقضين، وأحياناً مترابطين فيما بينهما للاشتراكية: أحدهما سلطوي والآخر تحرّري، ومن المؤمل في ختام التحليلات أن ينقاد القارىء إلى سؤال نفسه عن أي منهما هو مفهوم المستقبل.



الفصل الأول

الأفكار الأساسية للاسلطوية

1 ـ مسألة كلمات:

إن كلمة اللاسلطوية قديمة قدم العالم، وقد اشتقت من كلمتين إغريقيتين قديمتين (أن) و(آركي) وتعني شيئاً شبيهاً بغياب السلطة أو الحكومة، وعلى كل حال قُبلت الفكرة المسبقة بأن الإنسان لا يستطيع الاستغناء عن إحداهما من قبل آلاف الناس وفهمت اللاسلطة بحس ازدرائي وكمرادف للانظام. . . الفوضى وعدم التنظيم.

اشتهر بيير جوزيف برودون بسبب ملاحظاته البارعة (مثل الملكية سرقة) واتخذ لنفسه كلمة اللاسلطة، كما لو كان غرضه الصدمة بأكثر ما يمكن، وفي 1840 شارك في الحوار التالي مع شخص محافظ.

ـ أنت جمهوري.

ـ جمهوري. نعم ذلك ولكن لا يعني شيئاً «ريس بابليكا» هي الدولة والملوك جمهوريين أيضاً.

ـ آه حسناً. أنت ديمقراطي؟

ـ كلا.

ـ ماذا! ربما أنت ملكي.

ـ كلا.

ـ إذن دستوري؟

ـ لا سمح الله.

ـ إذن أنت أرستقراطي؟

ـ كلا على الإطلاق.

ـ أنت تريد شكلاً خليطاً من الحكومة؟

ـ حتى بدرجة أقل.

ـ إذن ما أنت؟

ـ لاسلطوي.

وجعل أحياناً حق تهجئة اللاسلطة «لا ـ سلطة» ليضع زمر الخصوم بعيدة عن متابعة الأثر. وقد فهم بهذا الاسم كل شيء عدا اللانظام. والظاهر أنه كان رغم ذلك بنّاءً أكثر منه مدمراً كما سنرى، وحمّل الحكومات مسؤولية اللانظام، وآمن أن مجتمعاً بدون حكومة فقط يتمكن من استعادة النظام الطبيعي وإعادة خلق التناسق الاجتماعي. وناقش أن اللغة عجزت عن توفير اسم آخر، واختارت استرجاع المعنى الأصلي الصارم للكلمة القديمة ـ اللاسلطة. وقد استخدم في غمرة مجادلاته على كل حال وبإصرار ومفارقة الكلمة «اللاسلطة» بمعناها الازدرائي! اللانظام أيضاً، وبالتالي جاعلاً التشوّش أسوأ ارتباكاً. وتبعه حواريُّه ميخائيل باكونين في هذه النقطة.

وحمل برودون وباكونين هذا إلى مدى أبعد متناولين ماكرة من اللعب بالارتباك الناجم من استخدام المعنيين المتعارضين للكلمة. وكانت اللاسلطة بالنسبة لهما كلاً من اللانظام الأكثر شمولاً وعدم التنظيم الشامل للمجتمع، وفيما وراء هذا: التغيير الثوري الهائل.. بناء نظام جديد ثابت وعقلاني قائماً على أساس الحرية والتضامن.

تردد الأتباع المباشرون لأبوي اللاسلطة الاثنين من استخدام كلمة مرنة لدرجة اليأس كهذه تنقل فكرة سلبية وحسب إلى غير المطّلع، وتقود بنفسها إلى الغموض الذي يمكن أن يتجنب قول الأقل، وحتى برودون أصبح أكثر حذراً في نهاية حياته القصيرة، وكان سعيداً بدعوة نفسه «بالفيدرالي» وفضّل خلفه من البرجوازية الصغيرة اسم «التبادلية» على «اللاسلطوية» وتبنى الخط الاشتراكي اسم «الجماعية» وسرعان ما حل محلها «الشيوعية» وفي نهاية القرن في فرنسا اختار سياستيان فور كلمة ابتكرت في 1858 من قبل جوزيف ديجاكو ليجعل منها اسماً لصحيفة «التحرري» واليوم يصبح اسما «اللاسلطوي» و «التحرري» متلاحمين.

لأغلب هذه الأسماء مضارّ كثيرة، فهي تفشل في التعبير عن المميزات الأساسية للنظريات التي يفترض أنها تعبر عنها. واللاسلطوية مرادفة حقاً للاشتراكية، واللاسلطوي اشتراكي ابتداء، والذي غايته إلغاء استغلال الإنسان بواسطة الإنسان. واللاسلطوية هي تيار وحسب من تيارات الفكر الاشتراكي. . . ذلك الذي يتعلق محتواه الرئيسي بالحرية والإسراع في إلغاء الدولة. ذكر أدولف فيشر أحد شهداء شيكاغو[1] «كل لاسلطوي هو اشتراكي

(1) أسست نواة نشيطة من الاشتراكيين الثوريين في 1883 رابطة العمال الأممين في الولايات المتحدة وكانت تحت تأثير المؤتمر اللاسلطوي العالمي المنعقد في لندن 1881 وكذلك جوهان موست وهو ديمقراطي اجتماعي تحول إلى لاسلطوي ووصل إلى أميركا في 1882 كان ألبيرت. آر. بارسونز وأدولف فيشر الروح المحركة للرابطة التي أخذت بقيادة حركة جماهيرية ضخمة تجمعت حول كسب يوم عمل بثمان ساعات، واندفعت الحملة من أجل ذلك بواسطة اتحادات نقابات العمال «وفرسان العمل» وثبت يوم الأول من أيار 1886 كآخر موعد لإخراج يوم العمل بثمان ساعات إلى حيز الوجود.

[ونظم] إبّان النصف الأول من أيار إضراب على نطاق البلاد شمل 190.000 عامل منهم 80.000 في شيكاغو ووقعت مظاهرات جماهيرية مؤثرة في تلك المدينة في الأول من أيار ولعدة أيام بعده، وعزمت البرجوازية إزاء الإضراب المرعب وموجة العصيان الرهيبة هذه على سحق الحركة في موطنها باللجوء إلى استفزاز دموي إذا اقتضى الأمر. وقذفت قنبلة في اجتماع في شارع في 4 أيار 1885 في ساحة هاي ماركت بين أرجل أفراد الشرطة بطريقة =

ولكن ليس كل اشتراكي، هو لاسلطوي بالضرورة».

يعتبر بعض اللاسلطويين أنفسهم الاشتراكيين الأكثر والأفضل منطقية، إلا أنهم تبنوا رقعة لصيقة بالإرهابيين أيضاً أو تسمح للآخرين بتعليقها حول رقابهم. وهذا ما أدى بهم غالباً إلى أن يكونوا خطأ نوعاً من «الجسم الغريب» داخل العائلة الاشتراكية، وقاد إلى سلسلة طويلة من سوء الفهم، والمعارك الكلامية وبدون هدف تماماً عادة. وحاول بعض اللاسلطويين المعاصرين إزالة سوء الفهم بتبني اسم أكثر وضوحاً فانحازوا بأنفسهم إلى أسماء الاشتراكية أو الشيوعية التحررية.

2 ـ تمرد عميق:

يمكن وصف اللاسلطوية في البدء وفي المقام الأول كتمرد عميق، واللاسلطوي فوق كل شيء إنسان في حالة تمرد، إنه يرفض المجتمع إجمالاً جنباً إلى جنب الأوصياء عليه... أعلن ماكس شترنر أن اللاسلطوي يحرر نفسه من كل ما هو مقدس، وينفذ عملية عدم تكريس ضخمة ويرفض «صعاليك الفكر». وهذه «الشخصيات السيئة» «أن تعامل كحقائق غير ملموسة، أشياء تعطي آجالاً ومواساة للآلاف بدلاً من القفز فوق حواجز التقاليد لتنخرط بدون قيد في خيالات نقدها الطائش»[1].

رفض برودون كلاً أو أياً من «الأشخاص الرسميين» الفلاسفة، القس، القضاة، الأكاديميين، الصحفيين، البرلمانيين، الخ... الذي «الشعب بالنسبة

= غامضة هيأت الذريعة اللازمة واعتقل القادة الثمانية للحركة الثورية والاشتراكية التحررية وحكم على سبعة منهم بالموت وشنق أربعة منهم فيما بعد (قام الخامس بالانتحار في زنزانته في اليوم السابق لإعدامه) ومن ذلك الحين ارتبط شهداء شيكاغو بأرسونز وفيشر وأنجيل وسبايس ولينبج بالبروليتاريا الأممية ولا زال الاحتفال العالمي بيوم أيار (الأول من أيار) يحيي ذكرى الجريمة الفظيعة المرتكبة في الولايات المتحدة

(1) كل الاقتباسات ترجمت إلى الإنجليزية من قِبل المترجمة.

لهم دوماً مسخ والذي يجب أن يحارب، يكبح، ويقيد بالسلاسل، والذي يجب أن يقاد بالمخادعة مثل الفيل أو الخرتيت أو يروّع بالمجاعة، والذي يستنزف بواسطة الاستعمار والحرب. «وأوضح إيلسي ريكلوس[1] لماذا يبدو المجتمع لهؤلاء السادة الأثرياء جديراً بالصون ما دام هناك أغنياء وفقراء وحكاماً ومحكومين، سادة وخدماً، قياصرة يعطون الأوامر للصراع، ومصارعون يذهبون للموت، فإن المتعقلين بحاجة إلى أن يضعوا أنفسهم في جانب الأغنياء والسادة، وأن يجعلوا أنفسهم في حاشية الأباطرة وحسب. «إن حالة الدائمية من التمرد تجعل اللاسلطوي متعاطفاً مع المنشقين والخارجين على القانون. وتقوده إلى تبني قضية المدانين والمنبوذين. اعتقد باكونين أن ماركس وأنجلز تحدثا بغير إنصاف جداً عن البروليتاريا الرثة، عن «البروليتاريا في الأسمال» «لأن روح وقوة الثورة الاجتماعية المستقبلية معها هي، وهي وحدها وليست مع رهط الطبقة العاملة الذي يصبح شبيهاً بالبرجوازية». لقد جرى النطق بالتصريحات الملتهبة التي لن يتنصل منها لاسلطوي من قبل بلزاك من خلال شخصية فوترن التجسيد القوي للرفض الاجتماعي ـ نصف متمرد ونصف مجرم.

3 ــ رعب الدولة:

يعتبر اللاسلطوي الدولة أكثر المفاهيم المسبقة فتكاً والتي أعمت الناس طوال العصور. وقد قلل شترنر من شأن من «هو ممسوس بالدولة. . . عبر الأبدية».

وكان برودون عنيفاً بصورة خاصة ضد «فانتازيا عقولنا هذه من أن أول واجب لكائن حر وعاقل هو الرجوع إلى المتاحف والمكتبات العامة». وطرح

(1) كاتب فرنسي (1830 ـ 1905) عرف مبدئياً كجغرافي ولعب أخوه إيلي دوراً فاعلاً إبّان الكومونة 1871 (ملاحظة المترجمة).

بصراحة الآلية التي بواسطتها «حفظت هذه النزعة الذهنية وصنعت فتنتها لتبدو وكأنها لا تقهر: قدمت الحكومات نفسها دوماً إلى عقول الرجال كجهاز طبيعي للعدالة وحامية للضعفاء»، وسخَّر من السلطويين المحترفين الذين «ينحنون أمام السلطة مثل أعضاء الكنيسة أمام القربان المقدس» ووجه اللوم «لكل الأحزاب بدون استثناء»، بسبب توجيه نظراتها «بدون توقف نحو السلطة كما لو إلى النجم القطبي». واشتاق لليوم الذي «يحلّ فيه التخلي عن السلطة محلّ الإيمان بالسلطة والتعاليم السياسية».

وسخر كوبتكن من البرجوازية التي «تعتبر الشعب كحشد من المتوحشين الذين يصبحون بلا فائدة حالما تتوقف الحكومة من أداء وظيفتها». واستبق مالاتيستا التحليل النفسي عندما كشف عن الخوف من الحرية في لا شعور السلطويين.

ما هو الخطأ في الدولة بعين اللاسلطويين؟ عبّر عنه شترنر هكذا «نحن الاثنان أعداء، الدولة وأنا» «كل دولة هي طغيان، سواء أكان طغيان رجل منفرد أو جماعة» كل دولة هي بالضرورة ما نسميه الآن توتاليتارية «للدولة غاية واحدة دوماً: تحديد... مراقبة... إذلال الفرد وإخضاعه للهدف العام... تحاول الدولة من خلال رقابتها وإشرافها وشرطتها عرقلة كل فعاليّة حرة وترى هذا الاضطهاد كواجب عليها، لأن غريزة حفظ الذات تتطلب ذلك» «لا تسمح الدولة لي باستخدام أفكاري بكامل قدرها وتربطها بأناس آخرين... ما لم تكن ملكها... وإلا فإنها تسكتني».

وكتب برودون بنفس اللهجة «إن حكم الإنسان بواسطة الإنسان عبودية» «كل من يضع يده عليّ ليحكمني فهو مغتصب وطاغية... أنا أعلنه خصماً لي» واستطرد في إسهاب مناسب لموليير أو بومارشيه «أن تكون محكوماً هو أن تكون مُراقباً، موضوعاً للتفتيش، متجسَّساً عليك، موجَّهاً، مقنّناً، خاضعاً لنظام، مقفلاً عليك، ملقَّناً، لتوعَظ، مسيطَراً عليك، خاضعاً للضريبة، مقاداً،

مُلاحظاً، مقوداً. كل ذلك بواسطة مخلوقات ليست لديها لا الحق ولا الحكمة ولا الفضيلة... لتحكم يعني أن في كل حركة، عملية أو انتقال يُلاحظ المرء يُسجل، يدخل في إحصاء، تفرض عليه ضريبة، يُرسَّم، يُسعَّر، يخضع لأجور، يُنمَّط، يجاز، يُخوَّل، يوصى به، يُحَثّ على، يمنع، يُشكل، يُوضع صحيحاً، يُصحح، الحكومة تعني أن تخضع إلى جزية، تُدرب، تفتدى، تُستغل، تحتكر، تغتصب، تكبس، تُربك، تُسرق. كل ذلك باسم المنفعة العامة والصالح العام، ثم عند أول علامة للمقاومة أو كلمة تذمر فالمرء يضطهد، يغرَّم، يحتقر، يُهيَّج، يُجبر، يُعامل بخشونة، يُضرب، يُعدم، يُسجن، يُضرب بالنار، يُطلق عليه بالرشاشة، يُحاكم، يُحكم عليه، يُبعد، يُضحّى به، يُباع، يُغشّ. وفوق كل ذلك يُضحك عليه، يُسخر منه، يُعتدى عليه، يهان. تلك هي الحكومة، تلك هي عدالتها وأخلاقيتها... أوه أيتها الشخصية الإنسانية! كيف يمكن ذلك بأن تجثم في خضوع كهذا لستين قرناً؟».

ويرى باكونين الدولة «كتجريد يلتهم حياة الناس» «ومقبرة هائلة حيث تسمح كل الطموحات الحقيقية والقوى الحية لبلد بكرم وسعادة لنفسها بأن تدفن باسم ذلك التجريد».

وتبعاً لمالاتيستا «بعيداً عن خلق أية طاقة تضيّع الحكومة بأساليبها وتصيب بالشلل وتدمر إمكانيات هائلة» ومثلما تتسع سلطات الدولة وبيروقراطيتها يزداد الخطر حدّة. وتنبأ برودون بالشرّ الأعظم للقرن العشرين «يقود فونكشنارزم ـ الحكم القانوني بواسطة الموظفين المدنيين ـ إلى شيوعية الدولة: امتصاص كل حياة فردية ومحلية في الماكنة الإدارية وتدمير كل فكر حر... كل واحد يريد اتخاذ ملجأ له تحت جناح السلطة، للعيش بصورة مشتركة» إنه الوقت الحاسم لطلب وقفة «تنمو المركزية أقوى فأقوى... تمّ الوصول إلى أشياء... حيث النقطة التي لن تعود الحكومة والمجتمع يوجدان مشتركين» من قمة الهرم إلى قاعدته ليس هناك في الدولة شيء غير فاسد ليصلح... شكل من الطفيلية

لكي يقمع أو أداة للاستبداد لكي تدمر، وأنت تتحدث إلينا عن حفظ الدولة وزيادة قوة الدولة. اغرب عن وجهي فأنت لست ثورياً!».

وكان لباكونين رؤيا واضحة ومؤلمة على حد سواء عن دولة تتزايد توتاليتارية ورأي قوى الثورة المضادة في العالم «قائمة على ميزانيات ضخمة، جيوش دائمة وبيروقراطية مرعبة» وجهزت «بكل وسائل التنفيذ المزعجة المزودة بها من قبل المركزية الحديثة» لتصبح «واقعاً هائلاً ساحقاً مهدِّداً».

4 ـ العداء للديمقراطية البرجوازية:

إن إدانة اللاسلطوي لأخدوعة الديمقراطية البرجوازية أكثر إيلاماً مما يفعل الاشتراكي السلطوي. ولم تتراءَ دولة الديمقراطية البرجوازية التي عمَّدت «الأمة» لشترنر أقل رعباً من الدولة المطلقة القديمة «الملك كان. . . رجلاً مسكيناً بالمقارنة مع الحاكم الجديد: الأمة ذات السيادة. لنا في الليبرالية استمرارية للاعتقاد القديم للنفس فحسب» «بالتأكيد كان قد تمّ بتر عدة أثرياء عبر التاريخ، ولكن فقط لصالح الدولة. . . وليس إطلاقاً لتقوية نفسي».

وبرأي برودون «ليست الديمقراطية شيئاً غير طغيان دستوري» وأعلن للشعب سيادته بواسطة «خدعة» أجدادنا، وفي الواقع احتفظ ملك عابث لوحده بعنوان السيادة بدون سمو وجلال. والشعب يسيطر ولكن لا يحكم ويفوض سيادته من خلال التطبيقات الدورية للتصويت العام ومجدداً التنازل عن سلطته كل ثلاث وخمس سنوات. أُبعدت الأسر الحاكمة عن العرش إلا أن الامتياز الملكي بقي محفوظاً دون أن يُمسّ بسوء. إن الاقتراع لدى شعب أهمل تعليمه متعمداً احتيال بارع لمنفعة بارونات الصناعة والتجارة والعقار المتحدين وحسب.

تحتوي النظرية التامة لسيادة الشعب على نفيها: إذا كان الشعب يسود بكامله حقاً فلن يعود هناك لا حكومة ولا محكومين، وتتقلص السيادة إلى لا

شيء، ولن يكون للدولة مبرر في الوجود وتتوحد مع المجتمع وتختفي داخل التنظيم الصناعي.

ورأى باكونين أن «النظام التمثيلي بعيد عن كونه ضمانة للشعب، بل على العكس إنه يخلق ويصون الوجود المستمرّ لأرستقراطية حاكمة ضد الشعب» والتصويت العام خفة يد وطُعم وصمام أمان وقناع خلفه «تختفي السلطة الطاغية الحقيقية للدولة القائمة على قاعدة من الشرطة والبنوك والجيش» «وسيلة متفوقة لاضطهاد ودمار شعب باسم ما يدعى بالإدارة الشعبية التي تعمل على إخفاء ذلك».

لا يؤمن اللاسلطوي بالتحرر بواسطة الاقتراع، وكان برودون من الممتنعين عن التصويت نظرياً على الأقل، معتقداً أن «الثورة الاجتماعية تكون توفيقية على نحو خطير إذا ما جاءت من خلال الثورة السياسية» وسيكون التصويت تناقضاً وفعل ضعف واشتراك في جريمة مع النظام الفاسد «يجب أن نعلن حرباً على كل الأحزاب القديمة مستخدمين البرلمان كساحة معركة مشروعة ولكن باقين خارجه» «والتصويت العام هو الثورة المضادة» ولكي تقيم البروليتاريا نفسها طبقة يجب عليها أولاً أن «تبتعد عن» الديمقراطية البرجوازية.

وعلى كل حال، غالباً ما ابتعد المناضل برودون عن هذا الموقف المبدئي. ترك نفسه في حزيران 1848 لينتخب في البرلمان وانغرز لفترة وجيزة في غريّ البرلمان، في مناسبتين إبان الانتخابات الفرعية لأيلول 1848 والانتخابات الرئاسية في 10 كانون الأول من نفس السنة أيد ترشيح راسبيل الناطق باسم اليسار المتطرف، وحتى ذهب بعيداً ليسمح لنفسه بواسطة تكتيك «الشرّ الأخفّ» معبراً عن تفضيل الجنرال كافيجناك جلاد بروليتاريا باريس على الدكتاتور المتدرب لويس نابليون. وبعد ذلك بفترة في 1863 و1864 أيد وضع أوراق بيضاء في صناديق الاقتراع، ولكن كتظاهرة ضد الدكتاتورية الإمبراطورية وليس معارضة للتصويت العام الذي عمّده الان «المبدأ الديمقراطي الممتاز جدّاً».

عارض باكونين وأنصاره في الأُممية الأولى صفة «الممتنعين عن التصويت» التي ألصقها بهم الماركسيون. وكانت مقاطعة صناديق الاقتراع بالنسبة لهم مسألة تكتيكية بسيطة وليست موقفاً اعتقادياً، ولو أنهم أعطوا أولوية للصراع الطبقي في مجال الاقتصاد فلم يوافقوا على أنهم تجاهلوا «السياسة» ولم يكونوا يناهضون «السياسة» وإنما السياسة البرجوازية فقط، ولم يكونوا يرفضون ثورة سياسية إلا إذا جاءت قبل الثورة الاجتماعية. لقد تجنبوا بجلاء الحركات الأخرى، فقط إذا ما كانت لا تنصرف إلى التحرير الفوري والكامل للعامل، وما خافوا منه وأدانوه هو التحالفات الانتخابية الغامضة مع الأحزاب البرجوازية الراديكالية طراز 1848 أو «الجبهة الشعبية» كما تسمى اليوم. كما خشوا من أن العمال عندما كانوا ينتخبون للبرلمان وينتقلون إلى ظروف الحياة البرجوازية يتوقفون من أن يكونوا عمالاً وينقلبون سياسيين ويصبحون برجوازيين، ومن المحتمل حتى أكثر برجوازية من البرجوازية نفسها.

مهما يكن إن الموقف اللاسلطوي من التصويت العام بعيد عن المنطق أو التماسك، واعتبر البعض الاقتراع كآخر ذريعة، وآخرون أقل توفيقية اعتبروا استعماله لعنة في أية ظروف كانت وجعلوا من ذلك مسألة طهارة فكرية. وهكذا رفض مالاتيستا في فترة انتخابات «تحالف اليسار» في أيار 1924 تقديم أي تنازل، واعترف أن في ظروف معينة ربما تكون حصيلة انتخاب ما نتائج «جيدة» أو «سيئة» وتعتمد النتيجة في بعض الأحيان على أصوات اللاسلطويين وخاصة إذا ما توازنت قوى التجمعات السياسية المعارضة بشكل متناسق ومنتظم «لكن لا يهمّ! حتى إذا ما كان بعض التقدم الضئيل نتيجة مباشرة لانتصار انتخابي يجب ألا يندفع اللاسلطويون إلى مراكز الاقتراع» وانتهى إلى «لقد احتفظ اللاسلطويون بأنفسهم أنقياء دوماً، ويبقون المجموعة الثورية رقم واحد، مجموعة المستقبل لأنهم كانوا قادرين على مقاومة النداء الغريب للانتخابات».

وقد توضح عدم تناسق النظرية اللاسلطوية في هذه القضية جيداً في إسبانيا بصورة خاصة. في 1930 انضم اللاسلطويون إلى جبهة مشتركة مع الديمقراطيين البرجوازيين لإسقاط الدكتاتور بريمو دي ريفيرا. وفي السنة التالية وبرغم مقاطعتهم الرسمية ذهب العديد منهم إلى صناديق الاقتراع في الانتخابات البلدية التي أدت إلى إسقاط الملكية. وفي الانتخابات العامة لشهر تشرين الثاني 1933 أوصوا بشدة بالامتناع عن التصويت، وأعاد هذا يميناً معادياً بعنف للعمال إلى السلطة لأكثر من سنتين. وحاذر اللاسلطويون من الإعلان مقدماً أن إذا ما أدت مقاطعتهم إلى انتصار للرجعية فإنهم سيبدأون بالثورة الاجتماعية، وسرعان ما حاولوا أن يفعلوا ذلك ولكن عبثاً وعلى حساب خسائر كبيرة (قتلى وجرحى وسجناء).

وعندما التقت أحزاب اليسار معاً في «الجبهة الشعبية» في 1936 ضغطت المنظمة المركزية للنقابية ـ اللاسلطوية بشدة لمعرفة الموقف الذي تتبناه وأعلنت أخيراً المقاطعة بفتور شديد، إلا أن حملتها كانت باردة إلى حد أنه لم يُسمع بها من قبل الجماهير التي كانت على كل حال قد باشرت بالمشاركة توّاً في الانتخابات. وبالذهاب إلى صناديق الاقتراع ضمن جمهور المصوِّتين انتصار الجبهة الشعبية (263 نائباً من الجناح اليساري ضد 181 آخرين).

ومما يجب ملاحظته أنه برغم حملاتهم الوحشية على الديمقراطية البرجوازية اعترف اللاسلطويون بأنها تقدمية نسبياً. وحتى شترنر الأكثر تصلباً ترك كلمة «التقدم» تنسلّ في مناسبات وبرودون سلَّم «عندما ينتقل شعب من الملكية إلى الدولة الديمقراطية فإن بعض التقدم يحصل» وقال باكونين «يجب ألا يُظنّ أننا نريد. . . نقد الحكومة البرجوازية لصالح الملكية. . . إن الجمهورية الأكثر نقصاناً أفضل ألف مرة من الملكية الأكثر تنوّراً. . . يعلّم النظام الديمقراطي الجماهير تدريجاً على الحياة العامة» وهذا يفنّد رأي لينين من أن «بعض اللاسلطويين» يدّعون أن «شكل الاضطهاد مسألة لا أهمية لها

بالنسبة للبروليتاريا» كم يبدد هذا الخوف المعبَّر عنه من قبل هنري أرفون في كتابه الصغير «اللاسلطوية» من أن المعارضة اللاسلطوية للديمقراطية يمكن أن تتداخل مع معارضة الثورة ـ المضادة.

5 ـ نقد الاشتراكية السلطوية:

أجمع اللاسلطويون على إخضاع الاشتراكية السلطوية لوابل من النقد القاسي، ولم تكن هذه قد اكتملت عدّتها بكل معنى الكلمة في الوقت الذي قاموا فيه بهجماتهم العنيفة والهجائية، لأن هؤلاء الذين وجهت إليهم الهجمات كانوا إما شيوعيين بدائيين أو «عاميين» ولم يُلقح تفكيرهم بعد بالإنسانية الماركسية أو غيرها، وفي حالة ماركس وانجلز نفسيهما فلم يكونا يحثان على السلطة أو سيطرة الدولة كما فهم اللاسلطويون.

ومع أن النزاعات السلطوية في الفكر الاشتراكي كانت لا تزال جنيناً وغير نامية في القرن التاسع عشر إلا أنها تكاثرت في زماننا ويبدو النقد اللاسلطوي في مواجهة التنامي أقل تحيزاً وأقل تعسّفاً وأحياناً حتى أنه يبدو وله مسحة نبوئية.

قبل شترنر العديد من طروحات الشيوعية ولكن بالمواصفات التالية: المجاهرة بأن العقيدة الشيوعية خطوة أولى نحو التحرير الشامل لضحايا مجتمعنا ولكن يصبحون «غير مغتربين» بصورة تامة وقادرين حقاً على تطوير فرديتهم بالتقدم حصراً لما وراء الشيوعية.

وكما رآه شترنر ففي نظام شيوعي يبقى العامل خاضعاً إلى حكم مجتمع من العمال وعمله مفروض عليه من قبل المجتمع ويبقى واجباً بالنسبة له. ألم يكتب الشيوعي واتيلنج[1] «يمكن أن تتطور القدرات بعيداً فقط طالما أنها لا تقاطع تناغم المجتمع» وهو ما رد عليه شترنر «سواء أكون موالياً لطاغية أو إلى مجتمع واتيلنج فسأعاني من نفس غياب الحقوق».

---

(1) ولهلم واتيلنج (1808 ـ 1871) كاتب شيوعي طوباوي ألماني ومؤسس نوادي العمال الشيوعيين إبّان ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر (ملاحظة المترجمة).

تبعاً لشترنر فإن الشيوعي لا يفكر في الإنسان الذي هو خلف العامل وهو يتفحص القضية الأكثر أهمية: منح الإنسان فرصة التفريج عن نفسه كفرد بعد أن أنجز مهمته كمنتج. وفوق كل شيء لمح شترنر الخطر في أن الاستيلاء الجماعي على وسائل الإنتاج في مجتمع شيوعي سيعطي الدولة قوة مفرطة أكثر مما لها في الوقت الحاضر «بإلغاء الملكية الخاصة كلها ستجعلني الشيوعية أكثر اعتماداً على الآخرين... على عمومية أو شمولية المجتمع، وبرغم هجماتها على الدولة فإنها تعمد إلى إقامة دولتها هي... دولة شؤون عامة تشلّ حريتي في العمل وتمارس سلطة عليا عليّ. تستاء الشيوعية عن حق من الأخطاء التي أعاني منها على أيدي المالكين الأفراد ولكن السلطة التي ستضعها في أيدي المجتمع الشمولي هي أكثر فظاعة».

كان برودون غير راضٍ تماماً عن «النظام الشيوعي، العقائدي، السلطوي، الدكتاتوري، الحكومي» الذي «ينطلق من مبدأ أن الفرد خاضع كلياً للمجموع» إن الفكرة الشيوعية عن الدولة هي نفسها بالضبط التي لدى الأساتذة السابقين وأقل ليبرالية بكثير «مثل جيش استولى على أسلحة العدو تدمر الشيوعية ببساطة مدفعية الملكية ـ بكسر الميم ـ ضد جيش الملكية ـ بكسر الميم ـ يقلد العبد سيده دوماً ويصف برودون في العبارات التالية النظام السياسي الذي ينسبه إلى الشيوعية «ديمقراطية مضغوطة تأسست ظاهرياً على دكتاتورية الجموع ولكن من حيث إن للجموع القوة الكافية لضمان العبودية العامة فقط تبعاً للوصفة التالية المستعارة من الإطلاقية القديمة ـ عدم تجزئة السلطة ـ المركزية المستغرقة لكل شيء ـ التدمير النمطي لكل فرد وللتضامن أو للتفكير الوضعي آمنت بكونه مخرباً ـ مع قوة شرطة تعسفية».

دعا الاشتراكيون السلطويون إلى «ثورة من فوق» إنهم «يؤمنون أن الدولة يجب أن تستمرّ بعد الثورة ويحافظون على الدولة... القوة... السلطة والحكومة وتوسيع مجالها إلى مدى أبعد. وكل ما يقومون به هو تغيير

الأسماء. . كما لو أن تغيير الأسماء كافٍ لتحويل الأشياء» ويخلص برودون إلى القول «الحكومة بطبيعتها ثورة ـ مضادّة. . . أعط السلطة إلى القديس فنسنت دي بول وهو سيصبح غيرو[1] أو تاليران».

وسَّع باكونين هذا النقد للاشتراكية السلطوية «أنا أكره الشيوعية لأنها نفي للحرية، ولا أستطيع تصوّر أي شيء إنساني بدون حرية. أنا لست شيوعياً لأن الشيوعية تركز على سلطات المجتمع وتجعلها تتسرب إلى الدولة، لأنها تقود حتماً إلى تركيز الملكية بأيدي الدولة بينما أريد أن أرى الدولة ملغاة. . . أريد البتر التامّ للقاعدة السلطوية عن وصاية الدولة التي أخضعت دوماً واضطهدت واستغلت وأفسدت الناس بينما هي تدعي جعلهم خلوقين ومتحضرين. أريد مجتمعاً أو ملكية جماعية أو اجتماعية يُنظَّم من القاعدة فصاعداً، ومن خلال، العلاقة الحرة وليس من القمة فنازلاً بواسطة سلطة من أي نوع كان. . . بذلك الفهم فأنا جماعي وليس شيوعياً على الإطلاق».

حال إطلاق الأقوال أعلاه التحق باكونين بالأُممية الأولى ودخل هناك هو ومؤيدوه في صدام ليس فقط مع ماركس وإنجلز وإنما أيضاً مع آخرين أكثر عرضة لهجماته من مؤسسي الاشتراكية العلمية وهم من جانب: الديمقراطيون الاجتماعيون الألمان الذين كانت الدولة معبودة بالنسبة لهم وأيدوا استخدام الاقتراع والتحالفات الانتخابية لتقديم «دولة الشعب» فولكستان الغامضة. ومن جانب آخر: البلانكيون[2] الذين تغنوا بفضائل دكتاتورية انتقالية بواسطة أقلية ثورية. حارب باكونين هذه الانحرافات، ولكن على قدم المساواة مع المفاهيم السلطوية، بالأسنان والأظافر، بينما تذبذب ماركس وإنجلز ما بينهم لأسباب تكتيكية ولكن قررا أخيراً التنصل من الجانبين معاً تحت تأثير النقد اللاسلطوي.

---

(1) غيرو وزير في عهد لويس فيليب عرف بآرائه المحافظة المتطرفة (ملاحظة المترجمة).

(2) أتباع أوغست بلانكي (1805 ـ 1881) اشتراكي فرنسي وثوري دافع عن التمرد بواسطة فئات صغيرة (ملاحظة المترجمة).

مهما يكن، نشأ الخلاف بين باكونين وماركس بطريقة فئوية وشخصية بالدرجة الرئيسية، حيث حاول الأخير السيطرة على الأُممية بعد 1870 خاصة وليس هناك من شك في إنه كانت هناك أخطاء من كلا الطرفين في هذا النزاع حيث كان المحك السيطرة على المنظمة ومن ثم على كل حركة الطبقة العاملة العالمية، ولم يكن باكونين خالياً من التقصير، وغالباً ما كانت قضيته ضد ماركس تعوزها الكياسة وحتى حسن النية. وما هو مهم للقارىء الحديث على كل حال أنه مبكراً منذ 1870 كان لباكونين فضل إثارة الحذر من أفكار معينة لتنظيم حركة الطبقة العاملة وسلطة البروليتاريا ستشوه بعد فترة طويلة الثورة الروسية. دعا باكونين بدون حق وأحياناً عن سبب أحياناً أخرى إلى أن يُرى في الماركسية جنين ما سيكون هو اللينينية ومن بعد النمو المؤدي للستالينية.

نسب باكونين بمكر إلى ماركس وأنجلز أفكاراً لم يعبّر هذان الرجلان عنها علناً قط، إن كانا يضمرانها حقاً على الإطلاق «لكن مما يجب قوله إن كل العمال... لا يمكن أن يصيروا مدرسيين ولا يكفي أن هناك في هذه المنظمة ـ الأُممية ـ مجموعة من الرجال الذين أصبحوا أساتذة في العلم والفلسفة وسياسة الاشتراكية تماماً مثلما هو ممكن في يومنا هذا، وهكذا فالأغلبية... تقدر أن تكون متأكدة من البقاء في الطريق الصحيح إلى التحرير النهائي للبروليتاريا... ببساطة بواسطة الطاعة المخلصة لاتجاهاتهم... سمعنا بهذا الخط من التفكير موسعاً بواسطة الغمز بكل أنواع المواصفات السامية والماهرة ولكن بدون التعبير العلني عنه قط. إنهما ليسا شجاعين بما فيه الكفاية أو صريحين بما فيه الكفاية لذلك».

ويستمر باكونين في نقده الساخر «ابتداءً من القاعدة الأساسية. يأخذ الفكر الأسبقية على الحياة والنظرية المجردة على التطبيق الاجتماعي بدلالة إن العلم الاجتماعي يجب أن يصبح نقطة البداية للجيَشان الاجتماعي وإعادة البناء وانتهيا إلى محصلة أن ما دام التفكير والنظرية والعلم ممتلكات كمالية بأية نسبة

كانت لعدد قليل جداً من الأشخاص في الوقت الحاضر فإن تلك الأقلية يجب أن توجه الحياة الاجتماعية».

لن تكون الدولة الشعبية المزعومة شيئاً غير الحكومة المستبدة بالجماهير الشعبية بواسطة أرستقراطية جديدة وصغيرة جداً للمعرفة بصورة حقيقية أو مدَّعى بها.

ترجم باكونين كتاب ماركس الرئيسي «الرأسمال» إلى الروسية وامتلك إعجاباً مثيراً بقابلياته العقلية وتقبل تماماً المفهوم المادي للتاريخ وقدّر أفضل من أي واحد آخر مساهمة ماركس النظرية في تحرير الطبقة العاملة. وما لم يسلّم به ذلك أن التفوق العقلي يمكن أن يعطي لأي واحد حق قيادة حركة الطبقة العاملة «يسأل المرء نفسه كيف أن رجلاً مثقفاً مثل ماركس استطاع من تقبل هرطقة كهذه ضد الحس العام والتجربة التاريخية مثل خاطرة أن مجموعة من الأفراد، مهما كانوا مثقفين وذوي مقاصد طيبة، تستطيع أن تصبح روحاً وإرادة موحدة وموجهة لحركة ثورية وللمنظمة الاقتصادية لبروليتاريا كل الأقطار... إن خلق دكتاتورية عالمية... دكتاتورية تنفذ نوعاً ما مهمة رئيس مهندسي الثورة العالمية وتنظم وتوجه الحركات الانقلابية لجماهير كل الأُمم كما لو أن الواحد يوجه آلة... إن خلق دكتاتورية كهذه يكفي بحد ذاته لقتل الثورة وشلّ وحرف كل الحركات الشعبية. وماذا يظن المرء عن مؤتمر عالمي يفرض على بروليتاريا العالم المتمدن في سبيل المصلحة المزعومة لهذه الثورة حكومة تتقلد سلطات دكتاتورية؟».

لا شك أن باكونين كان يشوه أفكار ماركس بقسوة تامة بنسبة مفهوم سلطوي شامل كهذا إليه، إلا أن تجربة الأُممية الثالثة أظهرت فيما بعد أن الخطر الذي حذرَ منه قد أصبح واقعاً أخيراً.

أظهر المنفي الروسي لنفسه الرؤية الواضحة المتوازنة عن خطورة سيطرة الدولة في نظام شيوعي، وتبعاً له فإن طموحات «المنظرين» الاشتراكيين

«ستضع الشعب في أغلال جديدة» إنهم يعترفون بلا شك، كما يفعل التحرريون برؤية أن كل دولة هي مضطهدة ولكن يستدركون بأن الدكتاتورية وحدها (دكتاتوريتهم هم بالطبع) تستطيع خلق الحرية للشعب، حيث يكون الرد بأن كل دكتاتورية تنشد حتماً الاستمرار لأطول مدة ممكنة، وبدلاً من أن يتركوا للشعب القضاء على الدولة فإنهم يريدون «تحويلها إلى أيدي المستفيدين... الأوصياء... المعلمين... قادة الحزب الشيوعي» إنهم يرون جيداً جداً أن حكومة كهذه «مهما كان شكلها ديمقراطياً فإنها ستكون دكتاتورية حقيقية» «ويواسون أنفسهم بفكرة أنها ستكون وقتية وقصيرة العمر» ولكن كلا! أجاب باكونين، ستقود هذه الدكتاتورية المؤقتة المزعومة حتماً إلى «إعادة إنشاء الدولة بامتيازاتها ولا مساواتها وكل اضطهاداتها» إلى تشكيل أرستقراطية حكومية «تبدأ ثانية بالاستغلال والحكم باسم الرفاهية العامة أو الحفاظ على الدولة» وستكون هذه الدولة «الأكثر شمولية بسبب أن استبدادها سيختفي بعناية خلف اعتبارات غامضة... مثل إرادة الشعب».

آمن باكونين دوماً وبشفافية خاصة بالثورة الروسية «إذا ما انتظر عمال الغرب طويلاً فسيضرب لهم فلاحو روسيا مثلاً يحتذى» وستكون الثورة في روسيا «لاسلطوية» أساساً. ولكنه كان مذعوراً من النتيجة: ربما يقيم الثوريون بكل بساطة دولة بطرس الأكبر التي كانت «مؤسسة على قمع كل مظاهر حياة الشعب» لأن «الواحد يقدر على تغيير لوحة دولة ما وشكلها... لكن الأساس يبقى ثابتاً «إما يجب أن تدمر الدولة أو أن الواحد يجب أن يتآلف مع الأكذوبة الأكثر شراً وخطورة لقرننا... البيروقراطية الحمراء» وقد لخص باكونين ذلك كالآتي «خذ أكثر الثوريين راديكالية وأجلسه على عرش روسيا كلها أو أعطه السلطات الدكتاتورية... وقبل انقضاء السنة سيكون أسوأ من القيصر نفسه».

كان فولاين في روسيا مشاركاً في الثورة وشاهداً ومؤرخاً لها، وسجَّل من بعد أن الأحداث أعطت نفس الدرس مثلما فعل الأساتذة. نعم إن السلطة

الاشتراكية والثورة الاجتماعية «عوامل متناقضة» حقاً لا يمكن التوفيق بينهما «إن ثورة تستلهم اشتراكية الدولة تتبنى هذا الشكل حتى ولو مؤقتاً أو إلى حين ضائعة: إنها تتخذ طريقاً خاطئاً هابطاً إلى منحدر يتزايد انحداراً دوماً... كل سلطة سياسية تخلق حتماً موقعاً متميزاً لهؤلاء الذين يمارسونها... إن السيطرة على الثورة تعني السيادة عليها ووضع النير في عنقها، وهؤلاء الذين في الحكم ملزمون بخلق الأجهزة البيروقراطية والقمعية التي لا مفر منها لكل سلطة تبتغي حفظ ذاتها وأن تقود وتعطي الأوامر وبكلمة واحدة أن تحكم... وتنشد كل سلطة إلى حدّ ما السيطرة على الحياة الاجتماعية، ويُسلم وجودها الجماهير إلى السلبية ويخنق حضورها الكامل كل روح للمبادرة... السلطة الشيوعية... هراوة حقيقية. الانتفاخ بالسلطة... يخاف من كل عمل مستقل. أي عمل ذاتي يبدو حالاً مثيراً للشك وتهديداً... لأن سلطة كهذه تريد سيطرة منفردة على الدفة وتبدو المبادرة من أي مصدر آخر كاقتحام لملكها وتجاوز على امتيازاتها، ولهذا فهي غير مقبولة».

وأبعد من ذلك ينكر اللاسلطويون بصورة جازمة الحاجة إلى مراحل «مؤقتة» «وإلى حين» في 1936 عشية الثورة الاسبانية أوقع دايجو أباد دي سانتيلان الاشتراكية السلطوية في حيرة وارتباك «إما أن تعطي الثورة الثروة العامة للمنتجين أو لا تعطي. فإذا فعلت فإن المنتجين ينظمون أنفسهم من أجل الإنتاج والتوزيع الجماعي ولن يبقى هنا شيء للدولة لكي تعمل. وإن لم تعطِ الثروة العامة للمنتجين فالثورة لا شيء غير خدعة وتمضي الدولة في طريقها» ويستطيع المرء القول بأن المأزق مبسّط جداً هنا وسيكون أخف إذا ما ترجم بعبارات هادفة ليس اللاسلطويين بسطاء هكذا ليحلموا بأن كل بقايا الدولة ستختفي عبر يوم وليلة وإنما لديهم التصميم ليجعلوها تذوي بأسرع ما يمكن. بينما السلطويون من جانب آخر راضون بمنظور البقاء غير المحدد لدولة «مؤقتة» عُبِّر عنها بتعسف «دولة العمال».

6 ـ مصادر الإلهام ـ الفرد:

يحدد اللاسلطوي مصدرين للطاقة الثورية ضد تقييدات وموروثات الاشتراكية السلطوية: الفرد وعفوية الجماهير. وبعض اللاسلطويين فرديون أكثر مما هم اجتماعيون وبعض آخر اجتماعيون أكثر مما هم فرديّون. مهما يكن لا يستطيع المرء أن يتصور تحررياً ليس هو بفردي وإن الملحوظات المعدة من قبل أوغسطين هامون في المسح المؤشر إليه قبلاً يؤكد هذا التحليل.

رد ماكس شترنر ـ في كتابه الأنا وخاصته ـ الاعتبار للفرد في وقت كان حقل الفلسفة فيه مسيطراً عليه من قبل العداء الهيجلي للفردية واقتيد أغلب الإصلاحيين في الحقل الاجتماعي بواسطة أضاليل الأنانية البرجوازية إلى تأكيد ضدها: ألم تبتكر الكلمة الدقيقة «الاشتراكية» كنقيض «للفردية؟».

أعلى شترنر القيمة الجوهرية للفرد المتفرد وهو ما يدعو للقول بأن الواحد يمثل طرازاً فريداً غير متكرر (فكرة تأكدت بواسطة البحوث البيولوجية الراهنة) ولمدة طويلة بقي هذا المفكر معزولاً في دوائر اللاسلطوية وغريب الأطوار، متبوعاً من قبل رهط صغير جداً وحسب من الفرديين المثقفين، واليوم يظهر مجال وإقدام فكره في ضوء جديد ويبدو العالم المعاصر يهيىء نفسه لمهمة إنقاذ الفرد من كل أشكال الاغتراب التي تسحقه، تلك التي للعبودية الفردية والجزمية الشمولة. وفي مقال شهير كتب في 1933 اشتكت سيمون ويل من عدم العثور على أية إجابة في كتابات ماركس على سؤال يبرز من الحاجة للدفاع عن الفرد ضد الأشكال الجديدة للاضطهاد القادمة بعد الاضطهاد الرأسمالي الكلاسيكي. وقد شرع شترنر بملء هذه الثغرة الخطيرة مبكراً في أواسط القرن التاسع عشر.

كتب بأسلوب حيّ مشبّع بالحِكم «لا تبحثوا في إنكار الذات عن حرية تنكر ذواتكم الحقيقية بل ابحثوا عن ذواتكم أنفسها. . . دعوا كلاّ منكم ليكون

أنا ممتلئة بالقوة» وليس هناك من حرية غير التي يغزو فيها الفرد ذاته والحرية التي تُعطى أو تمنح ليست حرية بل «سلع مسروقة» «ليس هناك من قاض سواي يستطيع أن يقرر إن كنت على صواب أو خطأ» «الأشياء الوحيدة التي ليس لي الحق في القيام بها هي التي لا أقوم بها بعقل حر» «لك الحق في أن تكون أيّاً ما بقدرتك في أن تكون» وأيّاً ما تنجز فإنك منجز كفرد متوحد «لا الدولة ولا المجتمع ولا الإنسانية تستطيع أن تسود هذا الشيطان».

ولكي يحرر نفسه يجب على الفرد أن يبدأ بوضع التقاليد الثقافية التي حمّلها إياه أبواه ومعلموه تحت المجهر ويجب أن ينفذ عملية هائلة من «عدم التكريس» مبتدئاً بما يسمى أخلاقية البرجوازية «مثل البرجوازية نفسها. . . تربتها البدائية، لا تزال قريبة أكثر مما ينبغي جداً من سماء الدين، ولا تزال غير متحررة بما فيه الكفاية تستعير دون إحراج القوانين البرجوازية لنقلها إلى أرضها بدلاً من إنتاج معتقدات جديدة ومستقلة».

كان شترنر مستاءً من الأخلاق الجنسية خاصة وقد اضطلع الدنيويون «بميكانيكية» المسيحية «ضد العاطفة» ببساطة ورفضوا الاستماع إلى نداء الجسد وتصرفوا بحماس ضده، إنهم «بصقوا في وجه اللاأخلاقية» وكان للسلبيات الأخلاقية المفروضة بواسطة المسيحية نفوذ قويّ على مجاميع الناس «حث الناس الشرطة بشدة ضد كل شيء يبدو لهم لاأخلاقياً وإن لم يصح ذلك، وتحمي الشرطة هذا الاندفاع العام نحو الأخلاقية كمؤسسة مؤثرة أكثر مما تستطيع الحكومة عمله معها أبداً».

وقد استبق شترنر التحليل النفسي الحديث بملاحظة وإدانة دمج القيم الأخلاقية الأسروية في الذات ومنذ الطفولة ونحن نتشبع بالسلبيات الخلقية وتصبح الأخلاقية «قوة داخلية من حيث لا أستطيع تحرير نفسي منها» «إن طغيانها أسوأ من قبل بعشرة أضعاف، لأنها تعنف الآن من داخل شعوري» «يرسل الشبان إلى المدرسة في مجاميع لتعلم الأمثال القديمة، وعندما يتعلمون

لغة القدامى عن ظهر قلب يدَّعون أنهم نضجوا» وأعلن شترنر نفسه إيقونياً «الإله. . الضمير. . الواجبات. . والقوانين كلها أخطاء محنطة في عقولنا وقلوبنا» وإن الغاوين والمفسدين الحقيقيين للشباب هم الكهنة والآباء الذين «يخدرون قلوب الشباب ويلوثون عقولهم» وإذا كان هناك من شيء «يأتي من الشيطان» فهو بالتأكيد هذا الصوت المقدس الزائف الذي يقتحم الشعور.

في عملية رد الاعتبار للفرد اكتشف شترنر اللاشعور الفرويدي أيضاً، لا يمكن وعي النفس. وقبالتها «امبراطورية التفكير. . العقل، فتات الاستنتاجات» وهي غير قابلة للتعبير عنها، غير قابلة للإدراك، غير قابلة للفهم. ومن خلال حكم شترنر الحية يبدو المرء وهو يستمع إلى الأصداء الأولى للفلسفة الوجودية «أنا أبدأ من فرضية تتناول نفسي كفرضية. . . أستخدمها وحدها لمتعتي ورضاي. . . أنا أوجد فقط لأني أغذي نفسي. . . الحقيقة هي أني بتسرب المنفعة لنفسي يعني أنني موجود».

إن اهتياج الخيال الذي كتب به شترنر أحياناً أوقعه بالطبع في أقوال متناقضة وترك بعض الحكم الاجتماعية تنزلق ووصل نقطة أن الحياة مستحيلة في مجتمع «نحن لا نطمح إلى حياة مشتركة بل إلى حياة منفصلة» «الناس موتى، نهار سعيد أيتها النفس» «إن حظاً سعيداً للناس هو حظي التعيس» «إذا كان صحيحاً لي فإنه صحيح ويمكن أن يكون خاطئاً للآخرين. . دعهم يعتنوا بأنفسهم».

مهما يكن، من المحتمل أن هذه الاندفاعات الآنية ليست جزءاً جوهرياً من تفكيره وبالرغم من وعيه المتزمت فإنه طمح إلى حياة مشتركة، ومثل أغلب الناس الذين ينطوون على ذواتهم وينعزلون وينغلقون فإنه عانى من حنين قاسٍ إليها. وأجاب على هؤلاء الذين تساءلوا عن كيفية استطاعته العيش في مجتمع بانفعاليته: إن الإنسان الذي عرف «خاصته» يمكن وحده أن تكون له علائق مع رفاقه. ويحتاج الفرد للمساعدة والأصدقاء، وعلى سبيل المثال إذا

ما كتب كتباً فإنه يحتاج للقراء... إنه ينضم إلى رفيقه الإنسان لكي يزيد من قوته ويحقق ذاته باكتمال أكثر من خلال قوتهم المتوافقة أكثر مما يستطيع في العزلة «إذا ما كان لك عدة ملايين آخرين خلفك لحمايتك فستصبح قوة عظمى ومنتصراً بسهولة معاً» ولكن بشرط واحد: يجب أن تكون هذه العلاقات مع الآخرين حرة وطوعية وقابلة دوماً للرفض.

ويميز شترنر مجتمعاً أنشىء كاملاً وهو إجبار عن علاقة وهي فعل طوعي «المجتمع يستخدمك ولكنك أنت تستخدم العلائقية» ومما لا ينكر أن العلاقة تتضمن تضحية وقيداً على الحرية ولكن هذه التضحية لم تصنع للصالح العام «إنها مصلحتي الشخصية التي تقودني إليها».

لقد تعامل شترنر مع قضايا معاصرة جداً، وخاصة عندما عالج مسألة الأحزاب السياسية مع إشارة خاصة للشيوعيين، وكان مُحرجاً بشدة إزاء شيوعية الأحزاب «يجب أن يتبع المرء حزبه في كلّ مكان وأيّ مكان... موافقاً بشكل مطلق ومدافعاً عن مبادئه الأساسية» «الأعضاء... ينحنون لأضعف رغبات الحزب» إن برنامج الحزب يجب «أن يكون لهم يقيناً فوق السؤال... يجب أن يرتبط المرء بجسد الحزب وروحه... أي واحد يذهب من حزب إلى آخر يعامل حالاً كمرتد» وفي رأي شترنر إن حزباً صلباً يتوقف عن كونه رابطة فإنما يظل جثة فحسب. لقد رفض حزباً كهذا ولكنه لم يقطع الأمل من الالتحاق برابطة سياسية «سأجد دوماً أناساً كافين ممن يرغبون بالتعاون معي بدون أداء قسم الولاء لرايتي» وشعر أنه يستطيع فقط من الالتحاق ثانية بالحزب إذا ما كان هناك «لا شيء ملزم فيه» وكان شرطه الوحيد أنه يستطيع الوثوق «من عدم ترك ذاته تُشطب من قبل الحزب» «ليس الحزب سوى حفلة يساهم فيها، إنه يرتبط بحرية ويستعيد حريته بنفس الطريقة».

هناك نقطة ضعف واحدة فقط في نقاش شترنر، ولو أنها تشكل تقريباً أساس جميع كتاباته، ليس مفهومه عن وحدة الفرد «أنوياً» مفيداً «للنفس» فقط

وإنما سارياً أيضاً على المجموع، وإن العلاقة الإنسانية مثمرة فقط إذا لم تسحق الفرد، وإنما على العكس تنمي طاقة الإبداع والمبادرة. أليست قوة حزب ما هي جماع كل قوى الأفراد الذين يؤلفونه؟ وتعود هذه الثغرة في نقاشه إلى حقيقة أن تراكيب شترنر للفرد والمجتمع بقيت عرجاء وغير كاملة. وفي فكر هذا المتمرد يتصادم الاجتماعي واللااجتماعي وبدون حل دوماً. وكان اللاسلطويون الاجتماعيون يلومونه إياه على هذا عن حق تماماً.

وكان هذا اللوم أكثر مرارة لأن شترنر أخطأ، ربما بسبب جهله، بإدخال برودون ضمن الشيوعيين السلطويين الذين أدانوا الطموح الفردي باسم «الواجب الاجتماعي» صحيح أن برودون سخر من «ولّه» أشباه شترنر بالفرد[1] لكن عمله كله كان بحثاً عن تراكيب أو بالأحرى عن «توازن» بين اهتمامات الفرد ومصالح المجتمع، بين قوة الفرد وقوة المجتمع «كما أن الفردية سمة إنسانية أولية فكذلك التعاون فإنه المتمم لها» «يفكر البعض أن للإنسان قيمة من خلال المجتمع وحسب. . . ويميل إلى إذابة الفرد في المجموع لهذا. . . فإن النظام الشيوعي حط للشخصية باسم المجتمع. . . ذلك طغيان، طغيان صوفي ومجهول الاسم، إنه ليس علائقية. . . عندما تُجرّد الشخصية الإنسانية من تفوقها المتميز، فإن المجتمع يصبح خالياً من عنصره الحيّ».

من جانب آخر رفض برودون الطوباوية الفردية التي تكتّل الأفراد المنفصلين مع انعدام الصلة العضوية والسلطة الجماعية، ولهذا تموّه على عدم قدرتها على حل مشاكل المصالح المشتركة. والخلاصة: لا مع الشيوعية ولا الحرية اللامحدودة «لنا مصالح مشتركة كثيرة جداً وأشياء عديدة جداً مشتركة».

كان باكونين أيضاً فردياً وجماعياً معاً، وظل يكرر بأن مجتمعاً ما يستطيع بلوغ أعلى المستويات بالابتداء من الفرد الحرّ وحسب. ومتى ما أعلن عن

(1) دون إشارة مباشرة إلى شترنر الذي ربما لم يقرأ كتابه من بعد.

حقوق يجب ضمانها للجماعات مثل حق تقرير المصير أو الانفصال اعتنى في نفس الوقت بإعلان أن الفرد يجب أن يكون الأول في الاستفادة منها. يدين الفرد بالتزامات تجاه المجتمع فقط بقدر ما يكون وافق على أن يكون جزءاً منه بحرية، فكل واحد حرّ في الارتباط أو عدم الارتباط وعما إذا كان راغباً «في الذهاب والعيش في الصحارى أو الغابات بين الوحوش الكاسرة» «الحرية هي الحق المطلق لكل كائن بشريّ في البحث ليس عن قانون آخر لتصرفاته، بل عن ضميره هو لتحديد تلك التصرفات بإرادته وحدها، وبالتالي التزامه بمسؤوليته الأولى تجاه نفسه وحدها «ويبدو المجتمع الذي اختار الفرد بحرية أن يلتحق كعضو فيه كعامل ثانوي وحسب في قائمة المسؤوليات أعلاه عليه حقوق للفرد أكثر من التزامات وبشرط بلوغه سن الرشد فإنه ملزم بتطبيق «لا مراقبة ولا سلطة» عليه بل مدين له «بحماية حقوقه».

دفع باكونين بتطبيقات «الحرية المطلقة والكاملة» بعيداً جداً: أنا خُولت بالتصرف بشخصي كما أشاء، أن أكون خاملاً أو نشطاً، أعيش إما باستقامة بواسطة عملي الخاص أو حتى بالاستغلال المشين للصدقات أو الثقة الخاصة. كل هذا بشرط واحد: إن هذه الصدقة أو الثقة اختيارية وأعطيت لي من قبل أفراد بلغوا سن الرشد وحسب، ولي حتى حق الدخول في علاقات تجعلها غاياتها «لاأخلاقية» أو كذا في الظاهر. وذهب باكونين في تعلقه بالحرية بعيداً لحد السماح للواحد بالانضمام إلى اتحادات صممت لإفساد وتدمير الفرد أو الحرية العامة «يمكن ويجب أن تدافع الحرية عن نفسها من خلال الحرية وحسب، إن محاولة تقييدها بحجة الدفاع الخادعة عنها تناقض خطر».

كذلك بالنسبة للقضايا الأخلاقية كان باكونين متأكداً من أن «اللاأخلاقية» ثمرة مجتمع منظم بصورة فاسدة. لهذا فإن هذا الأخير يجب القضاء عليه من القمة إلى القاعدة. وتستطيع الحرية وحدها دعم الأخلاق. لقد برهنت القيود المفروضة بحجة تقوية الأخلاق دوماً أنها ضارة بها، وبعيداً عن الحد من

شيوع اللاأخلاقية فإن الكبت وسَّع وعمَّق منها دوماً، وبالتالي فمن غير المجدي مقاومتها بالتشريع الصارم الذي ينتهك حرمة الحرية الفردية. وأجاز باكونين جزءاً واحداً فقط ضد الكسول، الطفيلي أو الشديد: فقدان الحقوق السياسية ذلك هو ما يحقق في الجانب المضمون الانسجام بين الفرد والمجتمع. ويتبع ذلك أن لكل فرد الحق في تحريف حريته بأفعاله هو، ولكن في هذه الحالة ينكر عليه التمتع بحقوقه السياسية فترة عبوديته الاختيارية.

إذا ما ارتكبت جرائم فإنها يجب أن تفهم كأمراض والعقوبة كعلاج أصح من انتقام جماعي، أكثر من ذلك يجب أن يُمنح الفرد المدان الحق في عدم الخضوع للحكم المفروض إذا ما أعلن أنه لم يعد راغباً في أن يكون عضواً في المجتمع ذات العلاقة. وبالمقابل للأخير حق إبعاد فرد كهذا أو الإعلان عن كونه خارج حمايته.

على كل حال كان باكونين أبعد من أن يكون عدمياً. ولم تقده مطالبته بالحرية الفردية المطلقة إلى إنكار كل الالتزامات الاجتماعية. أن أصير حرّاً من خلال حرية الآخرين فقط «يستطيع الإنسان تحقيق فرديته الحرة باستكمالها من خلال كل الأفراد الذين حواليه وحسب، ومن خلال العمل والقوة الجمعية للمجتمع وحسب» والعضوية في المجتمع اختيارية ولكن لم يكن لدى باكونين أي شك في أنه بسبب فوائدها الضخمة «سيتم اختيار العضوية من قبل الجميع» فالإنسان هو معاً «الفردي جداً والاجتماعي جداً من بين الحيوانات».

لم يُظهر باكونين تماهلاً مع الأنانية بمفهومها العامي لأن الفردية البرجوازية «تقود الفرد إلى انتزاع وإقامة رفاهيته هو. . . بالرغم من الجميع وعلى كاهل الآخرين وعلى أذاهم» «كائناً إنسانياً منعزلاً ومجرداً كهذا خيالي بقدر ما هو الله» «الانعزال الشامل موت عقلي وأخلاقي ومادي».

يحاول باكونين بالعقلية الواسعة والمركبة خلق جسر بين الأفراد والحركات الجماهيرية «كل الحياة الاجتماعية هي ببساطة هذا الاتكال المتبادل

المستمر بين الأفراد والجماهير. وحتى أقوى الأفراد وأذكاهم... هم في كل لحظة من حياتهم محفزات ونتائج معاً لرغبات وأفعال الجماهير» ويرى اللاسلطوي الحركة الثورية كنتاج لهذا التفاعل ،وبالتالي يعتبر الفعل الفردي والفعل الجماعي الذاتي للجماهير مثمرين ونضاليين بالتساوي.

كان اللاسلطويون الإسبان الورثة العقليين لباكونين، وبرغم افتتانهم بالتشريك Socialization فإنهم لم يتوقفوا في عشية ثورة 1936 تماماً من وضع ضمانة جليلة لحماية الاستقلال الذاتي المقدس للفرد «ليكن الطموح الخالد فريداً» كتب دايجو أباد دي سانتيلان «سيتم التعبير عنه بألف طريقة: لن يخنق الفرد بطرحه أرضاً... الفردية، التذوق الفردي، والأصالة سيكون لها مجال كاف للتعبير عن نفسها».

7 ــ مصادر الإلهام ــ الجماهير:

تعلم برودون من ثورة 1848 أن الجماهير مصدر قوة الثورات وكتب في نهاية 1849 «ليس للثورات مشرِّعون، إنها تأتي عندما يومىء القدر وتنتهي مع استنزاف القوة الخفية التي تجعلها تتفتح» أنجزت كل الثورات بواسطة الفاعلية العفوية للشعب، وإذا ما استجابت حكومات في بعض الأحيان لمبادرات الشعب فكان ذلك بسبب أنها دفعت أو أُجبرت لأن تفعل هكذا وحسب، وعلى الأغلب فإنها تطرد، تضطهد، تعتدي دوماً» «عندما يترك لغرائزه فإن الشعب على الأغلب يفهم دوماً أفضل مما لو يقاد بواسطة خطة القادة» «إن ثورة اجتماعية... لا تحدث بأمر من سيد مع نظرية جاهزة، أو بإرشادات نبي، إن ثورة متناسقة حقاً نتاج حياة عامة، ومع أن لها رسلها ومنفذيها فهي ليست في الحقيقة عمل أي شخص واحد» ويجب أن تدار الثورة من الأسفل وليس من فوق، وحالما تنزاح الأزمة الثورية يجب أن تصبح إعادة البناء مهمة الجماهير الشعبية نفسها. وأكد برودون «شخصية والاستقلالية الذاتية للجماهير».

كرر باكونين أيضاً بلا كلل أن ثورة اجتماعية لا يمكن أن تكون بمرسوم

ولا أن تُنظم من فوق ويمكن أن تعد وتنمو كاملة بفعل جماهيري عفوي ومستمرّ تأتي الثورات «مثل لص في الليل» إنها «تنتج من قوة الأحداث» «إنها تطول في الإعداد في أعماق الوعي الغريزي للجماهير، ثم تنفجر، وغالباً ما تنطلق لأسباب تافهة في الظاهر» «يستطيع الواحد من التنبؤ بها ويحسّ داخلياً بدنوّها. . . لكن لا يستطيع قط تعجيل نشوبها» «الثورة الاجتماعية اللاسلطوية. . . تنهض بعفوية في أفئدة أبناء الشعب مدمّرة كل ما يعيق الانتفاضة النبيلة لحياة الشعب لكي تخلق من بعد أشكالاً جديدة للحياة الاجتماعية الحرة التي ستنهض من أعمق أعماق روح الشعب» ورأى باكونين في كومونة 1871 تأكيداً مذهلاً لآرائه. فقد آمن رجال الكومونة أنّه «كانت فعالية الأفراد لا شيء على الأغلب» في الثورة الاجتماعية وأن «الفعالية العفوية للجماهير يجب أن تكون كل شيء».

امتدح كروبتكن شبيهاً بأسلافه «هذا الحس المثير للإعجاب بالتنظيم العفوي الذي يمتلكه الشعب. . . بدرجة عالية كهذه، ولكن نادراً جداً ما يُسمح له بالتطبيق» وأضاف مازحاً: ذلك «فقط هو من عاش دائماً وأنفه مدفون في الأوراق الرسمية والروتين يقدر على الشك فيه».

إن إطلاق كل هذه التأكيدات السخية والمتفائلة جعل اللاسلطوي وأخاه وخصمه الماركسي معاً يواجهان تناقضاً خطيراً. إن عفوية الجماهير جوهرية وذات أولوية مطلقة ولكنها ليست كافية بحد ذاتها. وتم البرهان على أن مساعدة أقلية ثورية قادرة على التفكير من خارج الثورة ضرورية لرفع مستوى وعي الجماهير. كيف تُمنع هذه النخبة من استغلال تفوقها العقلي في اغتصاب دور الجماهير وشل مبادراتها وحتى فرض سيطرة جديدة عليها؟

جاء برودون بعد شعوره الشاعري المفرط بالعفوية إلى الاعتراف بالقصور الذاتي للجماهير واستنكار الأذى لصالح الحكومات وغريزة الخضوع وعقدة النقص التي تكبت هيجان الشعب. وبالتالي يجب تحفيز الفعالية الجماعية

للشعب، وإذا لم يأت له إيحاء من الخارج فإن عبودية الطبقات الدنيا ستستمرّ إلى ما لا نهاية. واعترف أن «في كل العهود نشأت الأفكار التي أثارت الجماهير في أذهان بضعة مفكرين أولاً. . . لم تأخذ العامّة المبادرة قط. . . للفردية الأولوية في كل تحرك للروح الإنسانية» سيكون مثالياً لو نقلت هذه الأقليات الواعية علمها إلى الشعب، علم الثورة. لكن بدأ برودون في التطبيق شاكاً حول تركيب كهذا: إن توقعه سيقلل من قيمة الطبيعة الطفيلية للسلطة. وفي أحسن الأحوال ربما أمكن «الموازنة» بين العنصرين.

كان باكونين قبل تحوله إلى اللاسلطوية في 1864 منهمكاً في مؤامرات وجمعيات سرية وأصبح متآلفاً مع الفكرة البلانكوية النموذجية من أن عمل الأقلية يجب أن يسبق يقظة الجماهير الواسعة وأن يتآلف مع عناصرها الأكثر تقدماً بعد سحبها خارجاً من سباتها. وظهرت المشكلة بصورة مختلفة في أممية العمال عندما نشأت تلك الحركة الهائلة أخيراً. وبالرغم من أنه أصبح لاسلطوياً فقد بقي باكونين مقتنعاً بالحاجة إلى طليعة واعية «من أجل أن تنتصر الثورة على الرجعية يجب أن يكون لوحدة الفكر الثوري والعمل جهازاً في وسط اللاسلطة الشعبية والذي سيكون حيوياً جداً ومصدر كل طاقات الثورة» ستحقق مجموعة صغيرة أو كبيرة من الأفراد الملهمين بنفس الفكرة والمساهمين من أجل غاية عامة «تأثيراً طبيعياً في الجماهير» عشرة، عشرون أو ثلاثون رجلاً مع تفهم واضح وتنظيم جيد، يعرفون ما يريدون وإلى أين هم ذاهبون يستطيعون بسهولة أن يحملوا معهم مائة، مائتين، ثلاثمائة أو حتى أكثر» «يجب أن نخلق هيئات أركان عامة منظمة جيداً وطموحة بصورة صحيحة من قادة الحركة الجماهيرية».

إن الأساليب المؤيدة من قبل باكونين شبيهة جداً بما اصطُلح عليه في هذه الأيام «بالترشيح» ويتضمن العمل سراً وبواسطة الأفراد الأكثر ثقافة وتأثيراً في كل منطقة «بحيث إن كل تنظيم يجب أن يعمل وفق أفكارنا بأكثر ما يمكن،

وذلك هو السر الكامل لتأثيرنا» يجب أن يكون اللاسلطويون مثل «طيارين غير مرئيين» في وسط الجماهير العاصفة ويجب أن يوجهوها ليس «بقوة ظاهرية» بل بواسطة «دكتاتورية بدون علامة مميزة، اسم أو حقوق رسمية، بكل القوة المتفوقة لأنه لن يكون لها أيّ من علامات السلطة» كان باكونين مدركاً تماماً كم أن ألفاظه «القادة، الدكتاتورية، الخ» لا تختلف إلا قليلاً عن تلك التي لخصوم اللاسلطوية، وردَّ مقدماً «على كل من يدعي أن النشاط المنظم بهذه الطريقة لا زال اعتداءً على حرية الجماهير ومحاولة لخلق قوة سلطوية جديدة» كلا! يجب ألا تكون الطليعة صاحبة إحسان ولا القائد الدكتاتوري للشعب، بل ببساطة المولِّدة لحريته الذاتية. إنها لا تستطيع إنجاز أي شيء أكثر من نشر أفكار بين الجماهير تتعلق بدوافعها الأولية ويمكن ويجب أن يُنفذ الباقي بواسطة أبناء الشعب أنفسهم. ولا تفرض «السلطات الثورية» (لم يتردد باكونين من استخدام هذه العبارة بل برَّر ذلك بكونها تعبِّر عن الأمل من أنها ستكون «بأقل ما يمكن») الثورة على الجماهير وإنما تبعثها من أوساطها ولا تخضعها لأي شكل من أشكال التنظيم بل تحفز تنظيمها الذاتي من الأسفل إلى القمة.

وبعد ذلك بكثير أوضحت روز الكسمبورج ما حدس به باكونين: ذلك أن التناقض بين العفوية التحررية والحاجة للعمل بواسطة الطلائع الواعية قد حُلَّ كلياً عندما التحم العلم بالطبقة العاملة وحسب، وصارت الجماهير على وعي تام، ولا تحتاج لمزيد من «القادة»، وإنما فقط «لأجهزة تنفيذية» لفعاليتها «الواعية» وبعد التأكيد على أن البروليتاريا لا تزال تفتقر للعلم والتنظيم وصل اللاسلطويون الروس إلى نتيجة أن الأُمية يمكن أن تكون أداة للتحرر وحسب «عندما تؤدي إلى نفاذ العلم، الفلسفة وسياسة الاشتراكية إلى الوعي العاكس لكل من أعضائها».

مهما يكن مدى الإقناع النظري لهذا التركيب فإنه كان مخططاً رسم لمستقبل بعيد جداً وحتى يجعله التطور التاريخي ممكناً إنجازه، بقي

اللاسلطويون مثل الماركسيين سجناء تقريباً داخل التناقض. وكان هو ما مزّق الثورة الروسية، وشقّ ما بين القوة العفوية للسوڤياتات وادعاء الحزب البلشفي «بالدور الموجِّه» وكان أن أظهر نفسه في الثورة الإسبانية حيث تأرجح التحرريون من طرف قصي إلى آخر، من حركة جماهيرية إلى النخبة اللاسلطوية الواعية.

سيكفي مثالان تاريخيان لتصوير هذا التناقض:

استمد اللاسلطويون نتيجة حاسمة من تجربة الثورة الروسية: إدانة «للدور القيادي» للحزب وصاغها فولاين بهذه الطريقة «إن الفكرة الرئيسية للاسلطوية بسيطة: لا حزب أو مجموعة ايديولوجية أو سياسية حتى إذا رغبت بإخلاص في أن تفعل ذلك فلن تنجح قط في تحرير الجماهير العاملة بوضع نفسها فوقها أو خارجها لكي تحكمها أو تقودها. يمكن أن يتحقق التحرير الحقيقي بالعمل المباشر فقط... لذوي المصلحة، العمال أنفسهم، عبر التنظيمات الطبقية الخاصة بهم ـ نقابات الإنتاج، لجان المعامل، التعاضديات الخ ـ وليس تحت راية أي حزب سياسي أو كيان ايديولوجي يجب أن يؤسس تحريرهم على فعالية صلبة وإدارة ذاتية تجري مساعدتها ولكن ليست السيطرة عليها من قبل الثوار العاملين داخل الجماهير وليس من فوقها... لا يمكن أن تثمر الفكرة اللاسلطوية والثورة التحريرية الحقيقية قط بواسطة اللاسلطويين بحدّ ذاتهم، بل الجماهير الواسعة وحسب... والمطلوب من اللاسلطويين أو الثوريين الآخرين عموماً تنويرها أو مساعدتها فقط في مواقف معينة. إذا أكد اللاسلطويون أنهم قادرون على إحداث ثورة اجتماعية بقيادة الجماهير فإن ادعاءً كهذا سيكون خادعاً كمثل ذلك للبلاشفة ولنفس الأسباب».

على أي حال، كان على اللاسلطويين الإسبان بدورهم تجربة الحاجة إلى تنظيم أقلية واعية أيديولوجياً، الفيدرالية اللاسلطوية الإيبرية (إف. أي. آي) داخل منظمتهم النقابية العمالية الهائلة، الكونفدرالية الوطنية للعمل

(سي. إن. تي) كان هذا لمقاومة الميول الإصلاحية لبعض النقابيين «الأصفياء» ومناورات عملاء «دكتاتورية البروليتاريا» استوحت إف. أي. آي طموحها من أفكار باكونين، وبذا حاولت التنوير بدلاً من التوجيه. وساعدها الوعي التحرري العالي نسبياً للعديد من الأعضاء الكوادر المتفرغة في سي إن تي أيضاً لتجنب تزايد الأحزاب الثورية السلطوية. مهما يكن إنها لم تؤدِّ دورها كدليل جيد جداً كونها غير ماهرة ومترددة حول وصايتها على نقابات العمال وحائرة في استراتيجيتها وأعطت بضخامة زائدة ناشطين وديماغوغيين عما ثوريين ذوي تفكير واضح على مستوى النظرية وكمثل ذلك التطبيق.

تؤلف العلاقات ما بين الجماهير والأقلية الواعية مشكلة لم يكتشف الحل الكامل لها من قبل الماركسيين أو حتى اللاسلطويين، وواحدة يبدو أن الكلمة النهائية لم تُقل حولها لحد الآن.

الفصل الثاني

في البحث عن مجتمع جديد

1 ـ اللاسلطوية ليست طوباوية

بسبب من أن اللاسلطوية بناءة فإن النظرية اللاسلطوية ترفض بشدة تهمة الطوباوية. إنها تستخدم الأسلوب التاريخي في محاولة للبرهان على أن مجتمع المستقبل ليس اختراعاً لاسلطوياً، بل النتاج الفعلي للتأثيرات الخفية للأحداث الماضية. أكد برودون أن لستة آلاف سنة سُحقت البشرية بواسطة نظام صارم من السلطة إلا أنها بقيت بواسطة «فصيلة سرية» «من بين أجهزة الحكومات، تحت ظلال مؤسساتها السياسية كان المجتمع ينتج بطيئاً وبصمت تنظيمه الخاص به، صانعاً لنفسه نظاماً جديداً يعبّر عن حيويته واستقلاله الذاتي».

مهما كانت الحكومات المؤذية فإنها احتوت على نفيها هي، إنه كان دوماً، «مظهراً للحياة الجمعية، التطبيق العام لسلطات قانوننا، تعبيراً عن العفوية الاجتماعية كلها: تخدم لإعداد الإنسانية لحالة أرقى. ما تبحث عنه الإنسانية في الدين وتدعوه الله هو إياه. ما يبحث عنه المواطن في الحكومات... إنه أيضاً إياه، إنه الحرية» لقد عجلت الثورة الفرنسية بهذا التقدم الثابت نحو اللاسلطة «اليوم الذي صرح آباؤنا... بمبدأ التطبيق الحر لكل قدرات الإنسان كمواطن، في ذلك اليوم جُحدت السلطة في السماء وعلى الأرض، وأصبحت الحكومة حتى بالتفويض مستحيلة».

أكملت الثورة الصناعية الباقي. ومنذ ذلك الحين تخطى الاقتصاد السياسة وخضعت له ولم تعد الحكومة تستطيع الهرب من المنافسة المباشرة للمنتجين، وصارت في الواقع ليست بأكثر من علاقة بين مختلف المصالح. واكتملت الثورة بنمو البروليتاريا. وبرغم معارضتها عبرت السلطة الآن عن الاشتراكية وحسب «قانون نابليون غير ذي فائدة للمجتمع الجديد مثله كمثل جمهورية أفلاطون: خلال بضع سنوات سيحل القانون المتحول والنسبي للتعاون الصناعي محل القانون المطلق للملكية في كل مكان ومن ثم سيكون ضرورياً لإعادة بناء هذه القلعة الكارتونية من القمة إلى القاعدة».

واعترف باكونين بدوره «بالخدمة الهائلة والتي لا تنكر التي قدمت للإنسانية من قبل الثورة الفرنسية والتي هي أب لنا جميعاً» لقد أزيلت قاعدة السلطة من وعي الشعب للأبد وأصبح فرض نظام من فوق من الآن فصاعداً مستحيلاً وكل ما يتبقى هو «تنظيم المجتمع بحيث يستطيع العيش بدون حكومة» وألقى باكونين على التقاليد الشعبية مهمة نوال ذلك «برغم الوصاية الاضطهادية والمؤذية للدولة» فإن الجماهير عبر القرون «طورت بداخلها تلقائياً العديد إن لم يكن كل العناصر الجوهرية للنظام المادي والمعنوي للوحدة الإنسانية الحقيقية».

2 ــ الحاجة إلى التنظيم:

لا ترى النظرية اللاسلطوية نفسها كمرادف للاتنظيم وكان برودون أول من صرح بأن اللاسلطوية ليست لانظاماً بل نظاماً هو النظام الطبيعي نقيضاً للنظام الاصطناعي المفروض من فوق، هو وحدة صادقة ضد الوحدة الزائفة التي تقام بالإكراه. ومجتمعاً كهذا «يفكر، يتكلم ويعمل كمثل إنسان، لأنه بالضبط لم يعد يُمثل بواسطة إنسان، لم يعد يعترف بسلطات شخصية، لأنه مثل كل كائن مُنظم حيّ، مثل مطلق باسكال، له مركزه في كل مكان ومحيطه في لا مكان» اللاسلطة هي «مجتمع منظم حي» «أعلى درجات الحرية والنظام اللذين يمكن

أن تطمح إليهما الإنسانية» من المحتمل أن بعض اللاسلطويين فكّروا بشكل آخر ولكن الإيطالي أنريكو مالاتيستا دعاهم للنظام «تحت تأثير التعليم السلطوي المعطى لهم فإنهم يفكرون أن السلطة هي روح التنظيم الاجتماعي ويرفضون الأخير لكي يقاوموا الأول... وتصنع معارضة هؤلاء اللاسلطويين للتنظيم الخطأ الأساسي للاعتقاد ـ بأن التنظيم مستحيل بدون سلطة. بقبول هذه الفرضية فإنهم يرفضون أي نوع من التنظيم مفصلين ذلك على قبول الحد الأدنى من السلطة... إذا آمنا بأن التنظيم لا يستطيع الوجود بدون سلطة فسنكون سلطويين، لأننا لا زلنا نفضل السلطة التي تقيد وتؤلم الحياة على اللاتنظيم الذي يجعلها مستحيلة».

طوّر لاسلطوي القرن العشرين فولاين هذه الفكرة وأوضحها «ثمة تفسير خاطىء ـ أو على الأغلب جداً خطأ متعمد ـ يزعم أن المفهوم التحرري يعني غياب كل تنظيم. هذا افتراء تام: إنه ليس موضوع تنظيم أو عدم تنظيم بل مبدأين مختلفين في التنظيم... يقول اللاسلطويون يجب أن يكون المجتمع منظماً بالطبع. مهما يكن فإن التنظيم الجديد... يجب إنشاؤه بحرية، اجتماعياً، وفوق كل شيء من القاعدة. يجب ألا يصدر مبدأ التنظيم من مركز خلق سلفاً للاستيلاء على كل شيء وفرض نفسه عليه، بل على النقيض يجب أن يأتي من جميع الجهات لخلق علامات التوافق والمراكز الطبيعية لخدمة كل هذه المؤشرات... في الجانب الآخر استنسخ النوع الآخر من التنظيم من ذلك الذي للمجتمع المضطهد والمستغل القديم... مبالغاً كل عيوب المجتمع القديم... ومن ثم يمكن صيانته بواسطة وسائل خداع جديد وحسب».

بالنتيجة لن يكون اللاسلطويون دعاة تنظيم صحيح وحسب بل «منظمون من الدرجة الأولى» كما اعترف هنري لوفيفر في كتابه عن الكومونة، إلا أن هذا الفيلسوف ظن أنه رأى تناقضاً هنا «وعلى الأصح تناقضاً مثيراً للدهشة

نجده متكرراً في تاريخ حركة الطبقة العاملة حتى وقتنا الحاضر وخاصة في إسبانيا» إنه يمكن أن «يدهش» فقط هؤلاء الذين يكون التحرريون بالنسبة لهم «لامنظمين ـ بكسر الظاء ـ بصورة أولية».

3 ـ التسيير الذاتي:

تنبأ ماركس وأنجلز عندما كتبا «البيان الشيوعي» سنة 1848 عشية ثورة شباط بفترة انتقال طويلة مهما كانت الظروف، كل وسائل الإنتاج تتركز في أيدي دولة ذات قبضة شاملة. لقد تبنيا فكرة لويس بلانكي السلطوية بتجنيد العمال الزراعيين والصناعيين معاً في «جيوش العمل» وكان برودون أول من اقترح شكلاً مضاداً للدولة من الإدارة الاقتصادية.

انبثقت اتحادات العمال للإنتاج عفوياً إبّان ثورة شباط في باريس وليون. وفي 1848 ظهرت بداية التسيير الذاتي هذه لبرودون حدّاً ثورياً أكثر بعداً عما فعلت الصورة السياسية. إنه لم يُخترع من قبل منظِّر ولا بُشِّر به من قبل نظريين، ولم يزود الحافز الأصيل له من الدولة بل من الشعب. حث برودون العمال للانتظام في هذا السبيل في كل جزء من الجمهورية لجرّ الملكية الصغيرة، التجارة والصناعة ثم الملكية الكبيرة والمنشآت وأخيراً المشاريع الكبرى كافة إليه (المناجم، القنوات، السكك الحديد الخ) وليصبح بالتالي «سيد الكل».

إن النزعة المعروضة تذكّر بفكرة برودون البدائية والعرضية فقط عن إدامة المهن الصغيرة وورشات الحرفيين وكان هذا بالتأكيد بدائياً وغير اقتصادي بلا شك، ولكن تفكيره في هذه النقطة تقابل أضداداً. وكان برودون رجل مفارقات حية. لقد انتقد الملكية بقسوة كمصدر للظلم والاستغلال ولديه ضعف تجاهها، ولو إلى المدى الذي رأى فيها ضمانة لاستقلالية الفرد وحسب. وأكثر من ذلك اختل وضع برودون غالباً جداً بما أسماه باكونين «ما يدعى بالشلّة البرودونية الصغيرة» التي اجتمعت حواليه في سنواته الأخيرة.

والأحرى ولدت هذه المجموعة الرجعية ميتة، وحاولت في الأُممية الأولى عبثاً أن تضع الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج في الجانب الآخر مقابل الجماعية. وكان السبب الرئيس للحياة القصيرة لهذه المجموعة أن غالبية أنصارها كانوا جميعاً مقتنعين بيسر بحجج باكونين ونبذوا ما يدعى بأفكارهم البرودونية متجهين نحو دعم الجماعية.

في التحليل الأخير عارض أفراد هذه المجموعة الذين دعوا أنفسهم بالتبادليين الجماعية جزئياً فقط: رفضوها في الزراعة بسبب فردية الفلاح الفرنسي، ولكن قبلوا بها بالنسبة للنقل، وفي قضايا الصناعة طالبوا بالتسيير الذاتي بالفعل بينما رفضوه بالاسم، وكان خوفهم من الكلمة يعود على الأكثر إلى اضطرابهم إزاء الجبهة الموحدة الوقتية التي قامت ضدهم من قبل اتباع باكونين الجماعيين وماركسيين سلطويين بالتحديد ممن كانوا على الأغلب أعواناً مكشوفين لسيطرة الدولة على الاقتصاد.

وسار برودون حقاً مع الزمن وأدرك أن من المستحيل إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء، وكان واقعياً بما فيه الكفاية لفهم أن «الصناعة الصغيرة غبية مثل الحضارة الصغيرة» وسجل هذا الرأي في دفتر ملاحظاته مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الصناعة الواسعة الحديثة تتطلب قوى عمل واسعة، كان جماعياً بحزم «في المستقبل ستكون الصناعة الواسعة والحضارة الكبيرة ثمرة التعاون حتماً» وانتهى إلى أن «ليس لنا خيار في الموضوع» وشجع السخط المتزايد الذي يتملكه كل واحد على الإيحاء بأنه كان معارضاً للتقدم التكنولوجي.

كان في نزعته الجماعية على كل حال معارضاً بصراحة للدولتية Statism والملكية يجب أن تلغى والجماعة (كما يفهم من قبل الشيوعية السلطوية) اضطهاد وعبودية. لهذا نشد برودون توافقاً بين الملكية والجماعة. ذلك هو التعاونية. يجب ألا يُسيطر على وسائل الإنتاج والمبادلة لا من قبل الشركات الرأسمالية ولا الدولة. ما دامت هي بالنسبة للعاملين فيها «كما هي الخلية

بالنسبة للنحلة» ويجب أن تدار بواسطة تعاونيات العمال، ولهذا فقط تتوقف القوى الجماعية من أن تكون «مغتربة» لصالح بضعة مستغلين «نحن العمال نتعاون أو في سبيلنا للتعاون» كتب برودون في أسلوب بيان «لا حاجة للدولة. . . الاستغلال بواسطة الدولة يعني دوماً حكاماً وعبيد أجور. نحن لا نريد حكم الإنسان للإنسان بأقل من استغلال الإنسان للإنسان. الاشتراكية هي ضد يد النزعة ـ الحكومية Govenentalism. . . نحن نريد أن تكون هذه التعاونيات. . . العناصر الأولى لفيدرالية ضخمة من التعاونيات والمجاميع المتوحدة في رباط مشترك للجمهورية الديمقراطية والاجتماعية».

ودخل برودون في التفاصيل وحدد بدقة الملامح الجوهرية للتسيير الذاتي للعمال:

- لكل فرد تضامني حصة لا تتجزأ في ملكية الشركة.
- لكل عامل أن يتناول حصته من المهام الثقيلة والكريهة.
- يجتاز كل واحد سلسلة العمليات والإرشادات عن المراحل والأنشطة لضمان التدريب الواسع له. وكان برودون مصرّاً على نقطة أن «العامل يجب أن يمرّ من خلال كل عمليات الصناعة المرتبطة بها».
- شاغلو المراكز ينتخبون، وتقدم التعليمات إلى التعاونيات للموافقة عليها.
- يتناسب التعويض مع طبيعة المركز المشغول، درجة المهارة والمسؤولية المنفذة، وكل تضامني يشترك في الأرباح بنسبة الخدمة المقدمة من قبله.
- كل واحد حرّ في تحديد ساعات عمله وتنفيذ واجباته وترك التعاونية بإرادته.
- للعمال التضامنيين اختيار قادتهم، المهندسين، المعماريين والمحاسبين. وأكّد برودون حقيقة أن البروليتاريا لا زالت تفتقر للفنيين:

وهنا الحاجة إلى تضمين برامج التسيير الذاتي للعمل «أشخاصاً صناعيين وتجاريين متفوقين» ممن سيعلّمون العمال أساليب المهنة ويستلمون بالمقابل رواتب ثابتة: هناك «مكان للجميع في إشراقة الثورة».

إن هذا المفهوم التحرري للتسيير الذاتي في القطب المضاد للشكل الأبوي والدولتي من التسيير الذاتي المنفذ من قبل لويس بلانكي في مسودة قانون 15 أيلول 1849 أراد مؤلف «تنظيم العمل» خلق تعاونيات عمال تحت وصاية وتمويل من الدولة، واقترح تقسيماً تحكمياً للأرباح كما يلي: 25% لتسديد الرأسمال المقترض و25% لتمويل الضمان الاجتماعي و25% لاحتياطي الرأسمال و25% توزع على العمال[1].

لم يكن لدى برودون تسيير ذاتي من هذا النوع، وبرأيه يجب ألا «يخضع العمال التعاونيون للدولة» بل «يكونوا هم الدولة ذاتها» «التضامنية. . . يمكن أن تفعل كل شيء وتعيد تشكيل كل شيء دون تدخل من سلطة وتستطيع تجاوز السلطة وإخضاعها» أراد برودون «الذهاب إلى الحكومة من خلال التعاونية وليس إلى التعاونية من خلال الحكومة» وأصدر تحذيراً من وهم تعلق بأحلام الاشتراكيين السلطويين من أن الدولة تتسامح مع التسيير الذاتي الحر. كيف أنها تتحمل «تشكيل مواضع للعدو بجانب سلطة مركزية؟» وحذّر برودون بصورة نبوئية «بينما تستمر المركزية في منح الدولة قوة هائلة، لا شيء يمكن إنجازه بمبادرة عفوية أو فعاليات مستقلة للمجاميع أو الأفراد».

يجب التأكيد على أنه في مؤتمرات الأُممية الأولى انتصرت الفكرة التحرريّة عن التسيير الذاتي على المفهوم الدولتي. في مؤتمر لوزان في 1867 اقترح مقرر اللجنة، بلجيكي يدعى سيزاردي بيب: يجب أن تصبح الدولة

(1) قارن مراسيم 1963 التي بواسطتها برمجت الجمهورية الجزائرية التسيير الذاتي الذي نظم عفوياً بواسطة الفلاحين. والتوزيع - وإن لم تكن النسب الفعلية متشابهة تماماً، والربع الأخير «الذي يوزع ما بين العمال» هو نفسه «كتوازن» لما دار حوله خلاف في الجزائر.

مالكة المشاريع التي ستؤمم. في ذلك الوقت كان شارل لونجو تحررياً فأجاب «حسناً، بشرط أن يفهم بأننا نعرّف الدولة كتجمع للمواطنين. . . أيضاً إن هذه الخدمات تدار ليس بواسطة الأجهزة الحكومية. . . وإنما بواسطة مجاميع العمال» واستمر النقاش في السنة التالية (1868) في مؤتمر بروكسل وفي هذا الوقت اهتم مقرر اللجنة نفسه بأن يكون دقيقاً في هذه النقطة «ستعود الملكية الجماعية إلى المجتمع ككل، ولكنها ستودع إلى تعاونيات عمال، وسوف لن تكون الدولة أكثر من فدرالية لمختلف مجاميع العمال» وهكذا اتضح الأمر وصدر القرار بذلك.

مهما يكن فإن التفاؤل الذي عبّر عنه برودون في 1848 بالاهتمام بالتسيير الذاتي ثبت عدم وجود مبرر له، وليس بعد سنوات طويلة، في 1857 انتقد بمرارة تعاونيات العمال الموجودة والمتأثرة بأوهام بدائية وطوباوية دفعت ثمن افتقارها للتجربة. لقد صارت ضيقة المجال ومقصورة على عدد معين مؤدية وظيفة مجموعة أرباب عمل، ونُفذت بمفاهيم إدارية وهرمية. وكل مساوىء الشركات الرأسمالية «بولغ فيها أكثر في ما يسمى بالأخويات هذه» وتمزقت بواسطة الخلافات والمنافسات والارتدادات والأضاليل. تقاعد مدراؤها المتمرسون بالأعمال ذات العلاقة دفعة واحدة «لينتصبوا كأرباب العمل البرجوازيين على حسابهم الخاص» في حالات أخرى أصرَّ الأعضاء على تقسيم الموارد وأنشأت في 1848 عدة مئات من تعاونيات العمال وبعد تسع سنوات بقيت عشرون فقط.

وخلافاً لهذا الموقف الضيق والخاص أيد برودون مفهوماً «عاماً» «ومركباً» للتسيير الذاتي. كانت مهمة المستقبل أبعد من مجرد «ضم بضع مئات من العمال في تعاونيات» وإنها كانت «التحويل الاقتصادي لأمة مؤلفة من ستة وثلاثين مليون نفس» يجب أن تعمل تعاونيات العمال في المستقبل للكل وليس «أن تعمل لصالح القلة» ومن ثم يتطلب التسيير الذاتي أن يكون للأعضاء قدر

من التعليم «لم يولد الإنسان عضواً في تعاونية، إنه يصبح عضواً» والمهمة الأصعب قبل التعاونية هي «تعليم الأعضاء» وأن إيجاد «اعتماد مالي من رجال» أهم بكثير من تهيئة «جموع رأسمال».

مع أخذ السمة القانونية بنظر الاعتبار، كانت الفكرة الأولى لبرودون أن يعهد بحيازة المشاريع إلى تعاونيات العمال، ولكنه يرفض الآن هذا الحل الضيق، ولكي يحقق هذا ميَّز ما بين الملكية والحيازة. الملكية مطلقة، أرستقراطية، إقطاعية، والحيازة ديمقراطية، جمهورية، مساواتية. إنها تتضمن التمتع بانتفاع غير قابل لا للتحويل ولا الهبة ولا البيع. وسيحتفظ العمال بوسائلهم للإنتاج في «اليو» مثل الجرمانيين القدامى[1] ولكن لن يكونوا ملاكين تماماً. ستحل الحيازة التعاونية الفدرالية محل الملكية دون أن تعود للدولة وإنما للمنتجين ككل، متحدين في فدرالية زراعية وصناعية ضخمة.

ازداد برودون حماساً لمستقبل شكل منقح ومصحَّح كهذا من التسيير الذاتي «إنها ليست بلاغة زائفة تقرر هذا، إنها ضرورة اقتصادية واجتماعية. فقد أزف الوقت حين لن نكون قادرين على التقدم بأي غير هذه الشروط الجديدة... الطبقات الاجتماعية... يجب أن تندمج في تعاونية منتجين واحدة» هل سينجح التسيير الذاتي؟ «يعتمد المستقبل الكلي للعمال... على الإجابة على هذا... وإذا كانت إيجابية فسينفتح عالم جديد كلياً للإنسانية. وإذا كانت سلبية فيمكن أن يتلقاه البروليتاري كما هو قائم... فليس له من أمل في هذا العالم الشنيع».

4 ـ أسس المبادلة:

كيف نظم التعامل بين مختلف تعاونيات العمال؟ في البداية حافظ برودون

(1) اليو تسمية إقطاعية لملكية قابلة للتوريث وغير قابلة للتحويل للغير. والجرمانيون عشيرة ألمانية حيث تطورت الحرية الفردية بصورة راقية (ملاحظة المترجمة).

على أن القيمة التبادلية لكل السلع يمكن أن تقاس بواسطة مقدار العمل الضروري لإنتاجها وكان يُدفع للعمال «وصولات عمل» وتقام الوكالات التجارية أو المخازن الجماعية حيث يريدون شراء البضائع بأسعار المفرد محتسبة حسب ساعات العمل وتدار التجارة الواسعة المجال من خلال بيت المقاصّة للتعويض أو بنك الشعب الذي يقبل الدفع بوصولات العمل. كما ويخدم هذا البنك أيضاً كمنشأة ائتمان تقرض تعاونيات العمال المبالغ التي تحتاج إليها في عمليات مثمرة وتكون القروض بدون فائدة.

كان ما يدعى بالنظام التبادلي هذا طوباوياً على الأصح وصعباً تشغيله بالتأكيد ضمن نظام رأسمالي. ومبكراً في 1849 أقام برودون بنك الشعب وانضم إليه حوالي 20.000 شخص خلال ستة أسابيع ولكنه كان قصير العمر. وكان الاعتقاد بانتشار التبادلية مثل بقعة الزيت بعيد الاحتمال بالتأكيد، ويعلن كما فعل برودون فيما بعد «أنه حقيقي... العالم الجديد... المجتمع الموعود الذي هو كائن يُطعِّم القديم ويحوِّله تدريجياً».

إن فكرة الأجور القائمة على أساس عدد ساعات العمل قابلة للنقاش على عدة أرضيات. ولم ينقطع الشيوعيون التحرريون من مدرسة كروبتكن ـ مالاتيستا، ايليس روكلوس، كارلو كافيرو من انتقادها. في الدرجة الأولى اعتقدوا أنها غير عادلة وناقش كافيرو ذلك «ربما ثلاث ساعات عمل لبطرس أنفع من خمس لبولس» وإن هناك عوامل أخرى غير الوقت يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند تحديد قيمة العمل: الكثافة، التدريب المهني والعقلي الخ ويجب أخذ البدايات العائلية للعمال أيضاً في الحسبان[1] وللمزيد: ففي نظام جماعي يبقى العامل عبد ـ أجور للجماعة التي تشتري وتشرف على عمله. ولا يمكن أن يكون الدفع على أساس ساعات العمل المنجزة حلاً مثالياً، وفي

(1) قارن بحثاً مماثلاً في «نقد برنامج غوتا» كتب من قبل ماركس في 1875 ولو أنه لم ينشر حتى 1891.

أفضل الحالات سيكون حيلة وقتية. ويجب أن نضع نهاية لتقاليد السجلات الحسابية وفلسفة «الدائن والمدين» إن أسلوب التعويض هذا مشتق من فردية معدَّلة تتناقض مع الحيازة الجماعية لوسائل الإنتاج ولا يمكن أن يحقق تغييراً ثورياً عميقاً في الإنسان. إنه يتعارض مع اللاسلطوية: شكل جديد من الحيازة يتطلب شكلاً جديداً من التعويض. لا يمكن أن تقاس خدمة الجماعة بوحدات من النقود. ستُعطى الأولوية للحاجات على الخدمات، وكافة منتجات عمل الكلّ يجب أن تعود للكلّ. كلٌّ يأخذ حصته منها بحرية: لكلّ حسب حاجته يجب أن يكون شعار الشيوعية التحررية.

يبدو أن كروبتكن ومالاتيستا واتباعهما قد تفحصوا حقيقة أن برودون قد شاركهم في اعتراضاتهم فعدَّل آراءَه الأولى وأوضح في «نظرية الملكية» المنشور بعد وفاته أنه أيد فقط فكرة الدفع المتساوي للعمل المتساوي في كتابه «مذكرات أولى عن الملكية» لسنة 1840 «لقد نسيت قول شيئين: الأول ذلك أن العمل يقاس بمطابقة أمده مع كثافته. الثاني أن الواحد يجب ألا يُدخل في أجور العامل استهلاك كلفة تعليمه والعمل المؤدى على نفقته الخاصة كتدريب مجاني ولا أقساط التأمين عليه ضد مخاطر يتعرض لها وكلها تتنوع في مختلف المهن» ادعى برودون «تصليح» هذا «الحذف» في كتاباته اللاحقة حيث اقترح أن جمعيات تعاونية الضمان المتبادل سوف تعوض التكاليف غير المتساوية والمخاطر. فضلاً عن ذلك لم يعتبر برودون مكافأة أعضاء تعاونية العمال «كأجور» بل كحصة من الأرباح حددت بحرية بواسطة عمال متضامنين ومسؤولين بالتساوي. ويعلق بيير هوبتمان، أحد أحدث مناصري برودون في أطروحة لم تنشر بعد، بأن التسيير الذاتي للعامل سيكون بلا معنى إن لم يُفسَّر بهذه الطريقة.

رأت الشيوعية التحررية أن من المناسب انتقاد تبادلية برودون وجماعية باكونين الأكثر معقولية بسبب عدم تحديد الطريقة التي سيتم بها تعويض العمل

في نظام اشتراكي. بدت هذه الانتقادات متفحصة لحقيقة أن مؤسسي اللاسلطوية لم يكونا قلقين إزاء طرح نموذج صلب لمجتمع قبل أوانه. أرادا ترك أوسع خيار في هذا الموضوع التعاونيات التسيير الذاتي. وكان على الشيوعيين التحرريين أنفسهم تقديم المبررات لهذه المرونة والامتناع عن القفز إلى النتائج النهائية خلافاً لتنبؤاتهم الملحّة. أكدوا أن في النظام المثالي المختار من قبلهم «سيثمر العمل أكثر مما يكفي للكلّ» ويمكن أن تحل أنواع «شيوعية» وحسب محل تلك الأنواع «البرجوازية» «من التعويض عند حلول عصر الوفرة وليس قبله. في 1884 اعترف مالاتيستا محرراً برنامجاً لمشروع أممية لاسلطوية أن بالإمكان تحقيق الشيوعية حالاً في عدد محدود جداً من المناطق فقط «وبالنسبة للبقية» يجب قبول الجماعية «لفترة انتقالية» «لكي تصبح الشيوعية ممكنة فإن مرحلة عالية من التطور الروحي مطلوبة من أعضاء المجتمع، حسّاً متصاعداً وعميقاً في آن واحد بالتضامن، حيث لن يكون هياج الثورة كافياً للإقناع، وهذا الشك مُبرر أكثر في تلك الظروف المادية المفضلة لهذا التطور والتي لن تتوفر في البداية».

كانت اللاسلطوية على وشك مواجهة اختبار التجربة عشية الثورة الإسبانية لسنة 1936 عندما شرح دايجو أباد دي سانتيلان تعذر التنفيذ الفوري للشيوعية التحررية بعبارات مماثلة جداً. ذكر أن النظام الرأسمالي لم يهيىء الكائنات البشرية للشيوعية، بعيد عن إنماء غرائزها الاجتماعية والإحساس بالتضامن، إنه يتجه بكل الوسائل إلى كبح ومعاقبة مشاعر كهذه.

استذكر سانتيلان تجربة الثورة الروسية وثورات أخرى لحث اللاسلطويين على أن يكونوا أكثر واقعية، واتهمهم بتلقيهم الدروس الأكثر معاصرة للتجربة بالتشكيك أو بالشعور بالتفوق، وأيد أن من المشكوك فيه ما إذا ستقود ثورة ما إلى إدراك مثالنا عن اللاسلطوية الشيوعية مباشرة. وأن الشعار الجماعي «لكل نتاج عمله» سيكون أكثر ملاءمة من الشيوعية بالنسبة لمتطلبات الموقف

الحقيقي في المرحلة الأولى لثورة ما، وعندما يكون الاقتصاد غير منظم والإنتاج في جزر واطىء والأولوية للتجهيزات الغذائية فإن النماذج الاقتصادية التي تُجرَّب ستتطور في أحسن الأحوال ببطء نحو الشيوعية سيكون وضع الكائنات البشرية خلف القضبان بوحشية بسجنهم في أشكال صلبة من الحياة الاجتماعية مسلكاً سلطوياً يعيق الثورة. إن التبادلية، الشيوعية، الجماعية مجرد وسائل مختلفة لنفس الغاية. عاد سانتيلان إلى الوراء، إلى التجريبية الحكيمة لبرودون وباكونين مطالباً الثورة الإسبانية المقبلة بحق التجربة بحرية «إن درجة التبادلية أو الجماعية أو الشيوعية التي يمكن الحصول عليها ستحدد في كل منطقة محلية وفي كل ظرف اجتماعي بحرية» وفي الحقيقة وكما سيظهر فيما بعد صوّرت تجربة «الجماعيات» الإسبانية لسنة 1936 الصعوبات المنبعثة من التطبيق غير الناضج للشيوعية الشاملة[1].

5 ـ المنافسة:

المنافسة أحد النماذج الموروثة من الاقتصاد البرجوازي والتي تثير مشاكل شائكة عندما تبقى في اقتصاد جماعي أو مُدار ذاتياً. وقد رآها برودون «كتعبير عن العفوية الاجتماعية» وضمانة «لحرية» التعاون فضلاً عن أنها ستزود لفترة طويلة «محفزات لا بديل عنها» حيث بدونها سيعقب «تراخ هائل» التوتر العالي الناجم من الصناعة. ودخل في التفاصيل «تضمن الأخوية العمالية تجهيز المجتمع بالسلع والخدمات المطلوبة منها بأسعار أقرب ما يمكن إلى كلفة الإنتاج. وبالتالي تنكر تعاونية العمال لنفسها أي تراكم. من الطراز الاحتكاري ـ وتخضع نفسها لقانون المنافسة وتحفظ معاملاتها وسجلاتها مفتوحة للمجتمع الذي يحتفظ بسلطة حلّ التعاونية كقاعدة عامة لحق المجتمع في الإشراف «يتوقف التعاون والمنافسة أحدهما على الآخر. . . إن الخطأ

(1) تحاول كوبا جماعياً اليوم وقبل الأوان أن تتلمس الطريق إلى الشيوعية الشاملة.

الأكثر إثارة للأسى للاشتراكية هو في اعتبار المنافسة كإرباك للمجتمع، ويمكن ألا يكون هناك اعتراض. . . على القضاء على المنافسة. . . إنها مسألة إيجاد توازن، يستطيع الواحد أن يقول: عميل شرطة».

انتزعت معالجة برودون لمبدأ المنافسة سخرية لويس بلانكي «نحن لا نستطيع فهم هؤلاء الذين أيدوا العلاقة الغريبة بين مبدأين متناقضين. إن تطعيم الأخوية بالمنافسة فكرة ضارّة: إنه مثل إحلال الخنثى محل الخصيّ» أراد لويس بلانكي السابق للماركسية «الوصول لسعر موحد» يحدد من قبل الدولة ويمنع كل تنافس بين المنشآت داخل الصناعة الواحدة. وردّ برودون بأن الأسعار «يمكن أن تثبت بواسطة المنافسة فقط، ذلك هو بواسطة سلطة المستهلك. . . للاستغناء عن الخدمات ذات الكلفة العالية» بإزالة المنافسة. . . ستُحِرم المجتمع من قوته الدافعة وهكذا فإنه سينحدر مثل ساعة مع نابض مكسور».

على كل حال، لم يخف برودون عن نفسه شرور المنافسة التي وصفها بصورة كاملة جداً في مقالته عن الاقتصاد السياسي. علم بكونها مصدر عدم المساواة واعترف «النصر يذهب في المنافسة إلى المجاميع الكبيرة» إنها «لاسلطوية» (بالمعنى الازدرائي للاسم) بحيث إنها تعمل دائماً لمنفعة المصالح الخاصة وتولد بالضرورة حرباً داخلية، وعلى المدى البعيد تخلق الأوليغاركية «المنافسة تقتل المنافسة».

مهما يكن، لن يكون غياب المنافسة برأي برودون أقلّ ضرراً، وعند التطرق لإدارة التبغ[1] وجد أن منتوجاتها غالية جداً وبضائعها غير متقنة الصنع، والسبب ببساطة أنها كانت احتكارية لفترة طويلة ومتخلصة من المنافسة وإذا خضعت كل الصناعات لمثل هذا النظام فلن تقدر الأمة قط على موازنة

---

(1) احتكارية حكومية في فرنسا (ملاحظة المترجمة).

مدخولاتها ومصروفاتها. لن تكون المنافسة التي حلم بها برودون منافسة عدم ـ التدخل للنظام الاقتصادي الرأسمالي وإنما منافسة تنسجم مع مبدأ اسمي «لتشريكها» المنافسة التي ستعمل على أسس تبادلية عادلة وبروح التضامن، المنافسة التي ستحمي المبادرة الفردية وتعيد للمجتمع الرفاهية التي تحولت عنه في الوقت الحاضر بسبب الملكية الرأسمالية معاً.

من الواضح إن كان هناك شيئ من الطوباوية في هذه الفكرة، فالمنافسة وما يسمى باقتصاد السوق يخلقان حتماً اللامساواة والاستغلال وسيفعلان هكذا حتى إذا بدأ المرء من مساواة تامة. إنهما لا ينسجمان مع التسيير الذاتي للعمال ما لم يكن على أسس مؤقتة كشرّ لا بد منه. وإلى أن:

1 ـ تنمو سيكلوجية «تبادل شريف» بين العمال.

2 ـ الأكثر أهمية: ينتقل المجتمع ككلّ من ظروف الشّحّ إلى مرحلة الوفرة عندما تفقد المنافسة غرضها.

وحتى في فترة انتقالية كهذه على كل حال يبدو مرغوباً فيه وجوب اقتصار المنافسة كما في يوغسلافيا اليوم على قطاع السلع الاستهلاكية حيث لها فائدة واحدة على الأقل هي حماية مصالح المستهلكين.

سيدين الشيوعي التحرري نص برودون عن الاقتصاد الجمعي بكونه مؤسساً على قاعدة الصراع، وستكون المنافسة في مركز المساواة في البداية ولتندمج فقط في صراع يخلق ظافرين وخاسرين وحيث ستختفي السلع بإجراء مبادلتها تبعاً لقواعد العرض والطلب «لتسقط القهقرى في التنافس والعالم البرجوازي» ويستخدم بعض نقاد التجربة اليوغسلافية من الأقطار الشيوعية الأخرى أغلب التعابير نفسها لمهاجمتها. إنهم يشعرون أن التسيير الذاتي بأي شكل كان يستحق نفس العداء الذي يضمرونه لاقتصاد السوق التنافسي كما لو أن الفكرتين غير منفصلتين أساساً ودائماً.

6 ـ المركزية والتخطيط:

كان برودون مدركاً في كل الأحوال أن الإدارة بواسطة تعاونيات العمال ستغطي وحدات كبيرة فأكّد «الحاجة للمركزية وللوحدات الكبيرة» وتساءل «ألا تعني تعاونيات العمال لتشغيل الصناعة الثقيلة وحدات كبيرة؟» «نحن نضع المركزية الاقتصادية محل المركزية السياسية» مهما يكن إن خوفه من التخطيط السلطوي جعله يفضل بشدة منافسة مستوحاة من التضامن. منذ ذلك الحين أصبح المفكرون اللاسلطويون مؤيدين لشكل تحرري وديمقراطي من التخطيط يوضع من القاعدة فصاعداً من قبل فيدرالية المشاريع المُدارة ذاتياً.

تنبأ باكونين أن التسيير الذاتي سيفتح منظورات للتخطيط على نطاق العالم كله «إن اتحادات تعاونيات العمال ظاهرة تاريخية جديدة اليوم، ونحن إذ نشهد ولادتها فلا يسعنا التنبؤ بمستقبلها، ولكن نخمن فقط النمو الهائل الذي ينتظرها بالتأكيد والظروف الاجتماعية والسياسية الجديدة التي ستخلقها، إنه ليس ممكناً وحسب بل ومحتملاً في أنها ستتجاوز عاجلاً أو آجلاً حدود مقاطعات اليوم، الأقاليم وحتى الدول لتحول بناء المجتمع الإنساني بكامله والذي لن يعود منقسماً إلى أمم بل إلى وحدات صناعية».

ومن ثم فإن هذه «ستشكل فدرالية اقتصادية ضخمة» مع جمعية عليا على رأسها وبمساعدة «الإحصائيات على نطاق العالم وإعطاء بيانات وافية بما هي مفصلة ومضبوطة» سيتوازن العرض مع الطلب ويُوجّه ويوزع، ويساهم الإنتاج الصناعي للعالم بين مختلف الأقطار. وهكذا ستختفي كليّاً تقريباً الأزمات في التجارة والعمالة والفقر المدقع المفروض والكوارث الاقتصادية وخسارة رؤوس الأموال بالتأكيد.

7 ـ التشريك الكامل؟

كان هناك غموضٌ في فكرة برودون عن الإدارة بواسطة تعاونيات العمال،

ولم يكن واضحاً دوماً ما إذا كانت مجاميع التسيير الذاتي ستستمر في التنافس مع المشاريع الرأسمالية، وبكلمات أخرى ما إذا كان قطاعاً اشتراكياً سيتواجد مشتركاً مع قطاع خاص كما قيل إنه الموقف الحالي في الجزائر والأقطار الأخرى المستقلة حديثاً، أم أن الإنتاج ككل في الجانب الآخر يصبح اشتراكياً ويخضع للتسيير الذاتي.

كان باكونين جماعياً ثابتاً ورأى بوضوح أخطار التواجد المشترك للقطاعين، فلا يقدر العمال حتى في تعاونيات العمال على تراكم الرأسمال الضروري للوقوف بوجه رأسمال البرجوازية الكبيرة، وسيكون هناك خطر أيضاً في أن البيئة الرأسمالية ستلوّث تعاونيات العمال، وهكذا فإن «طبقة جديدة من المستغلين لجهد البروليتاريا» ستبرز من وسطها. يحتوي التسيير الذاتي على بذور التحرير الاقتصادي الشامل للجماهير العاملة إلا أن هذه البذور تستطيع فقط الانفلاق والنمو عندما «يصبح الرأسمال نفسه والمنشآت الصناعية، المواد الأولية والمعدات الرأسمالية. . . ملكاً جماعياً لتعاونيات العمال للإنتاجين الزراعي والصناعي معاً، وهذه تنظم وتتوحد فيما بينها بحرية» «سيجري تغيير اجتماعي جذري وحاسم بوسائل مؤثرة في المجتمع كله فقط» ذلك بثورة اجتماعية تحول الملكية الخاصة إلى ملكية جماعية. في تنظيم اجتماعي كهذا سيكوِّن العمال رأسمالييهم الجماعيين وأرباب عملهم أنفسهم وتبقى فقط «تلك الأشياء التي هي حقاً للاستعمال الشخصي» ملكاً خاصاً.

اعترف باكونين أن تعاونيات المنتجين عملت على اعتياد العمال على تنظيم أنفسهم وإدارة شؤونهم وكانت الخطوات الأولى للنشاط الجماعي للطبقة العاملة، ولكنه عرض أنه لحين تحقيق الثورة الاجتماعية سيكون لجزر كهذه وسط النظام الرأسمالي تأثير محدود فحسب، وحثَّ العمال على «التفكير أكثر في إضرابات عما في التعاونيات».

8 ـ نقابات العمال:

ثمّن باكونين أيضاً الدور الذي لعبته نقابات العمال «المنظمات الطبيعية للجماهير» «السلاح الوحيد المؤثر حقاً» الذي يمكن أن يستخدمه العمال ضد البرجوازية، واعتقد أنه «يمكن لحركة نقابات العمال المساهمة أكثر من الأيديولوجيين في تنظيم قوى البروليتاريا مستقلة عن الراديكالية البرجوازية» ورأى المستقبل كتنظيم وطني وعالمي للعمال بواسطة نقابات. ولم تذكر النقابية العمالية بصورة خاصة في المؤتمر الأول للأممية وصارت موضوعاً رئيسياً اعتباراً من مؤتمر بازل في 1869 فصاعداً مديناً لتأثير اللاسلطويين: بعد إلغاء نظام الأجور تصبح نقابات العمال جنين الإدارة في المستقبل وتحل مجالس تنظيمات العمال محل الحكومة.

في 1876 كتب جيمس غوليوم حواريّ باكونين «أفكار حول تنظيم المجتمع» حيث جعل فيه التسيير الذاتي مندمجاً في النقابية العمالية، وأيد إيجاد فدراليات مشتركة للعمال، وخاصةً النقابات التي تتحد «ليس كما في السابق لحماية أجورهم ضد جشع أرباب العمل بل. . . لتوفير ضمانات متبادلة للاستزادة من المعدات لنقابتهم التي ستؤول ملكية جماعية لكل الفدرالية المشتركة كنتيجة لاتفاقات تبادلية» وكان رأي باكونين أن هذه الفدراليات ستعمل كوكالات تخطيط، وبالتالي أُغلقت إحدى الفجوات في خطة برودون للتسيير الذاتي. وظل شيء واحد ناقصاً في مقترحاته: الرباط الذي سيوحد مختلف تعاونيات المنتجين ويمنعها من تسيير شؤونها بأنانية وبروح ضيقة، بدون اهتمام بالصالح العام أو بتعاونيات العمال الأخرى. كان على اتحادات العمال أن تملأ الفجوة وترتبط بالتسيير الذاتي. إنها عُرضت كوكالة للتخطيط ووحدة بين المنتجين.

9 ـ الكومونات:

كان برودون إبّان حياته الأولى مهتمّاً كليّاً بالتنظيم الاقتصادي وقادته

شكوكه في أي شيء سياسي إلى نبذ مشكلة الإدارة الإقليمية. كان كافياً بالنسبة له القول بأن العمال يجب أن يحلّوا محلّ الدولة بدون القول بوضوح كيف سيتحقق هذا. وفي السنوات الأخيرة من حياته أعطى اهتماماً أكثر للمشكلة السياسية التي دنا منها من القاعدة فصاعداً بأسلوب لا سلطوي صادق. كان على الناس التوافق فيما بينهم حول أُسس محلية فيما دعاه «مجموعة طبيعية» التي «تقيم نفسها في مدينة أو وحدة سياسية فارضة ذاتها في وحدة، مستقلة ومُدارة ذاتياً» «ومجاميع مشابهة على مبعدة مسافة لها مصالح مشتركة، وما هو قابل للتصور أنها تتعاون معاً وتؤلف مجموعة أعلى من أجل أمان متبادل» رأى المفكر اللاسلطوي في هذه النقطة مشهد الدولة الكريهة: قطعاً يجب قطعاً أن المجاميع المحلية «وهي تتحد لحماية مصالحها وتنمية ثرواتها... لن تذهب أبعد لكي تتنازل كنوع من قربان الذات تحت أقدام الإله مولوخ الجديد».

حدّد برودون الكومونة المستقلة ذاتياً ببعض الدقة الزائدة، إنها جوهرياً «كائن ذو سيادة» وهكذا «لها حق حكم وإدارة نفسها، فرض الضرائب، التصرف بأملاكها ومواردها، إقامة المدارس لشبابها وتعيين المدرسين» الخ «تلك هي ماهية الكومونة، ومن أجل ذلك فهذه هي الحياة السياسية الجماعية... إنها تنكر كل القيود، إنها تحديد ذات وكل الضغوط الخارجية تحريف لها وخطر على بقائها» وكان بادياً أن اعتقد برودون أن التسيير الذاتي غير قابل للانسجام مع دولة سلطوية مثلما لا تستطيع الكومونة من التواجد المشترك مع سلطة متمركزة، فوق «ليس من منزل في منتصف الطريق. ستسود الكومونة أو تخضع، الكل أو لا شيء، ضعها تحت أفضل حكم تستطيع وسرعان ما تعود خاضعة لقانونها الخاص، معترف بها كأعلى سلطة وأوسع تجمع... من حيث هي عضو فإنه يعلن كونها الأكثر تفوقاً... من المحتم أنهما سيختلفان في وقت ما وينتهيان إلى صدام وسرعان ما يكون هناك صراع يضمن فيه منطق القوة النصر للسلطة المركزية. وهذا النقاش الخالي من

الدرس، الحوار، أو الاختبار بين السلطة والكائن الخاضع غير مسموح به، فضيحة وعبث».

حصر باكونين الكومونة في التنظيم الاجتماعي للمستقبل بصورة أكثر منطقية من برودون. ستتحالف تعاونيات العمال المنتجين بحرية داخل الكومونات والكومونات تتوحد بدورها فيما بينها بحرية «لقد قوطعت الحياة والفعالية العفوية لقرون من قبل السلطة الشمولية والاحتكارية للدولة وإن تنازلها سيعيدها لكومونات».

كيف سترتبط النقابية العمالية بالكومونات؟ في 1880 كانت مقاطعة كورتيلاي في فدرالية جورا[1] متأكدة من إجابتها «سيكون جهاز الحياة المحلية هذا فدرالية نقابات وهذه الفدرالية المحلية ستصبح الكومونة» مهما يكن، لم يقرر هؤلاء الذين حرروا التقرير شيئاً كاملاً حول هذه النقطة وأثاروا السؤال: «هل تكون جمعية عامة لكل السكان أو لمندوبين من النقابات... تضع دستور الكومونة؟» كانت الخلاصة أن هناك نظامين يؤخذان في الاعتبار. أيجب أن تكون الأسبقية لنقابة العمال أم الكومونة؟ عزل هذا السؤال فيما بعد وخاصةً في روسيا وإسبانيا «الشيوعيين اللاسلطويين» عن «النقابيين اللاسلطويين».

رأى باكونين الكومونة الواسطة المثالية لامتلاك أدوات الإنتاج لصالح التسيير الذاتي، وفي المرحلة الأولى لإعادة التنظيم الاجتماعي فإنها الكومونة التي ستمنح لكل شخص «غير مالك» الحد الأدنى الجوهري كتعويض عن السلع المصادرة. ووصف تنظيمها الداخلي ببعض الدقة. إنها ستدار بواسطة مجلس مؤلف من مندوبين منتجين مع تفويضات إيجابية واضحة وسيكون هؤلاء مسؤولين دوماً تجاه الناخبين وخاضعين للإقالة. وينتخب مجلس الكومونة من بين أعضائه اللجان التنفيذية لكل فرع من فروع الإدارة الثورية

(1) فرع سويسري للأممية تبنى أفكار باكونين.

للكومونة، وتوزيع المسؤولية بين العديدين فيه فائدة إشراك أكبر عدد من الكوادر المتفرغة في الإدارة. إنه يقلل من مضار نظام تمثيلي حيث يستطيع عدد صغير من المندوبين المنتخبين تولي كل المهام بينما يبقى الناس سلبيين غالباً في جمعيات تجتمع في النادر. أدرك باكونين بدقة أن المجالس المنتخبة يجب أن تكون «كيانات عاملة» مع مهام تنظيمية وتنفيذية معاً ـ ما كان قد دعاه لينين فيما بعد «ديمقراطية بدون برلمانية» في واحدة من لحظات مزاجه التحرري. مرة أخرى جعلت مقاطعة كورتيلاي هذه الفكرة أكثر وضوحاً «لكي يتم تجنب السقوط القهقرى في أخطاء الإدارة المركزية والبيروقراطية نظن أن المصالح العامة لكومونة يجب أن تدار من قبل مختلف البعثات الخاصة بكل فرع من فروع الفعاليات وليس بواسطة كيان إداري محلي منفرد. . . ستمنع هذه التدابير الإدارة من اتخاذ هيئة حكومة».

لم يُظهر أتباع باكونين حكماً متوازناً كهذا عن المراحل الضرورية للتطور التاريخي وفي ثمانينات القرن التاسع عشر وجّهوا اللوم للاسلطويين الجماعيين. وفي انتقاد لسابقة أوجدتها كومونة باريس لسنة 1871 وبّخ كروبتكن الناس لوضعهم «النظام التمثيلي مرة أخرى موضع التنفيذ داخل الكومونة» ولكونهم «تخلوا عن مبادرتهم لصالح جمعية من أناس انتخبوا صدفة تقريباً» ورثى أن بعض الإصلاحيين «يحاولون دوماً الاحتفاظ بهذه الحكومة» بالتوكيل بأي ثمن «وأوضح إن كان للنظام التمثيلي يومه. أنه كان السيادة المنظمة للبرجوازية ويجب أن تختفي معها» ويجب أن نبحث لعصر الاقتصاد الجديد القادم عن شكل جديد من التنظيم السياسي القائم على قاعدة تختلف تماماً عن التمثيل «يجب أن يجد المجتمع أشكالاً للعلاقات السياسية أقرب إلى الشعب منه إلى الحكومة التمثيلية، أقرب إلى التسيير الذاتي، إلى حكم الواحد نفسه بنفسه».

بالنسبة للاشتراكيين التحرريين أو السلطويين فإن المثال السائد يجب أن يكون بالتأكيد هذه الديمقراطية المباشرة التي إذا ما ضغطت في حدود التسيير

الذاتي الاقتصادي والإدارة الإقليمية معاً فإنها ستقضي على الآثار الأخيرة لأيّ نوع من السلطة. مهما يكن، من المؤكد أن الشرط الضروري لتحققها هو مرحلة من التطور الاجتماعي حيث يتملك العمال جميعاً التعليم والمهارات بالإضافة إلى الوعي بينما في نفس الآونة تأخذ الوفرة محل الندرة. في 1880 وقبل لينين بوقت طويل أعلنت مقاطعة كورتيلاي «سيصبح للتطبيق الديمقراطي للتصويت العام تقريباً أهمية متناقصة في مجتمع منظم بطريقة علمية» ولكن ليس قبل حلوله.

10 ـ الاسم المثير للخلاف «الدولة»:

ليعلم القارىء من الآن أن اللاسلطويين رفضوا استخدام اسم «الدولة» حتى لموقف انتقالي، ولم تكن الفجوة واسعة جداً دوماً ما بين السلطويين والتحرريين في هذه الناحية. أجاز الجماعيون الذين كان باكونين ناطقاً باسمهم في الأُممية الأولى عبارة «الدولة المتجددة» «الدولة الثورية والجديدة» أو حتى «الدولة الاشتراكية» لتُقبل كمرادفات «للجماعية الاجتماعية» مهما يكن، سرعان ما رأى اللاسلطويون أنه على الأصح من الخطر عليهم استخدام نفس الكلمة بينما يعطيها السلطويون معنى مغايراً تماماً، وشعروا أن مفهوماً جديداً يستدعي كلمة جديدة وربما يكون في استخدام الاسم القديم غموض خطير وهكذا توقفوا من إعطاء اسم «الدولة» للتجمع الاجتماعي للمستقبل.

كان الماركسيون قلقين من جانبهم من أجل الحصول على عون اللاسلطويين لتحقيق انتصار مبدأ الملكية الجماعية على البقية الباقية من فردية البرودونية الجديدة في الأُممية وهكذا كانوا راغبين في إعطاء تنازلات شفوية ووافقوا ببرود على مقترح اللاسلطويين باستبدال كلمة الدولة إما بفيدرالية أو تضامنية الكومونات، وبنفس الروحية هاجم أنجلز صديقه ومواطنه أوغست بيبل حول برنامج غوتا للديمقراطيين الاجتماعيين الألمان. واعتقد أن من الحكمة اقتراح «حظر اسم الدولة في كل مكان مستخدماً بدلاً منه جيميوزين: كلمة المانية قديمة وحيدة تعني نفس معنى الكلمة الفرنسية كومونة» وفي مؤتمر

بازل لسنة 1869 توحّد اللاسلطويون الجماعيون والماركسيون ليقرروا أنه حالما تصبح الملكية اشتراكية فإنها ستتطور بواسطة تضامنيات الكومونات. وفي خطابه وضع باكونين النقاط على حروف الأنوية «أنا أصوت من أجل جماعية الثروة الاجتماعية وبخاصة الأرض، بمعنى التصفية الاجتماعية، وأعني بالتصفية الاجتماعية تجريد ملكية كل من يتملك الآن، وإلغاء الدولة القانونية والسياسية التي هي الحامية والضامنة الوحيدة للملكية كما هي الآن. كما وللأشكال التالية من التنظيم... أنا أفضّل تضامنية الكومونات... مع كل الرضى التام، لأن تضامنية كهذه تسجل تنظيماً للمجتمع من القاعدة فصاعداً».

11 ـ كيف يجب أن تدار الخدمات العامة؟

كانت التوفيقية المتحققة بعيدة عن القضاء على الغموض والأكثر أنه منذ مؤتمر بازل ذاته تماماً لم يشعر الاشتراكيون السلطويون بالخجل من استحسان إدارة الاقتصاد من قبل الدولة. وبرهنت المشكلة فيما بعد على تعقيد خاص عندما انتقل البحث إلى إدارة الخدمات العامة الكثيرة مثل السكك الحديدية والخدمات البريدية الخ، ومنذ مؤتمر لاهاي لسنة 1872 افترق أتباع ماركس وأتباع باكونين عن الرفقة. وبالتالي ثار الجدال حول الخدمات العامة تحت الاسم الخاطىء: الأُممية «المعادية للسلطوية» الذي أبقى على الانشقاق. خلق هذا السؤال خلافاً طويلاً بين اللاسلطويين وهؤلاء الذين هم تقريباً اشتراكيون «دولتيون Statists» اختاروا فصل أنفسهم عن ماركس وبقوا مع اللاسلطويين في الأُممية.

ما دامت خدمات كهذه هي على نطاق القطر، فمن الواضح عدم إمكان إدارتها بواسطة تعاونيات العمال لوحدها ولا الكومونة لوحدها. وحاول برودون حل المشكلة «بموازنة» إدارة العمال مع بعض أشكال «المبادرة العامة» التي لم يوضحها تماماً. من كان سيدير الخدمات العامة؟ أجاب التحرريون: فدرالية الكومونات، وحاول السلطويون الإجابة: الدولة.

في مؤتمر بروكسل للأممية في 1874 حاول الاشتراكي البلجيكي سيزار دي بيب أن يخلق توفيقاً بين الرأيين المتعارضين بأن تذهب الخدمات العامة المحلية إلى الكومونات لتدار بتوجيه جهاز الإدارة المحلية نفسه والمعيَّن من قبل نقابات العمال. وتدار الخدمات العامة الواسعة بواسطة إدارة إقليمية مؤلفة بالتعيين من قبل فدرالية الكومونات يشرف عليها مجلس إقليمي للعمل، بينما تقع تلك التي على نطاق القطر تحت إدارة «دولة العمال» تلك هي دولة «قائمة على ائتلاف كومونات العمال الأحرار» وكان اللاسلطويون في شك من هذا التنظيم الغامض، ولكن دي بيب فضّل معالجة هذا الشك كسوء فهم: أليس هو من بعد كل شيء خلافاً لفظياً؟ إذا كان الأمر كذلك فإنه سيكون راضياً لوضع كلمة «الدولة» جانباً مع الاحتفاظ وحتى توسيع الشيء الفعلي «خلف القناع الأكثر مسرَّة لبعض العبارات الأخرى».

اعتقد أغلب التحرريين أن تقرير مؤتمر بروكسل يعادل استعادة الدولة: رأوا أن «دولة العمال» ستنقلب حتماً إلى «دولة سلطوية» وإن كان هو مجرد خلاف لفظي فإنهم لا يستطيعون أن يفهموا لماذا يجب أن يعمِّدوا المجتمع الجديد الخالي من الحكومة بواسطة الاسم الفعلي المستخدم لوصف التنظيم الذي كان سيُلغى وفي مؤتمر لاحق في برن سنة 1876 اعترف مالاتيستا بأن الخدمات العامة تحتاج لشكل منفرد مركزي من التنظيم ولكنه رفض من أن تدار من فوق بواسطة دولة. وبدا له خصومه يخلطون بين الدولة والمجتمع «ذلك الكيان العضوي الحيّ».

وفي السنة التالية 1877 اعترف سيزار دي بيب في المؤتمر الاشتراكي العالمي في غينت أن دولة العمال أو دولة الشعب التي استعملها «يجب ألا تكون لفترة أطول من دولة مكتسبي الأجور» لكن «ينبغي ألا يكون ذلك أكثر من مرحلة انتقالية مفروضة بحكم الظروف» حيث لن تعجز الجموع المغمورة من بعد من استلام وسائل الإنتاج ووضعها في أيدي تعاونيات العمال. ولم

يكن اللاسلطويون راضين عن هذا المنظور غير المؤكد والبعيد: ما استولت عليه الدولة فلن تتخلى عنه قط.

12 ـ الفدرالية:

للإيجاز: سيتحقق المجتمع التحرري للمستقبل ببناء مزدوج اقتصاد في هيئة فدرالية لتعاونيات العمال مُدارة ذاتياً وإدارة في هيئة فدرالية كومونات. وكانت الحاجة الأخيرة تتويج وربط هذا الصرح بمفهوم ذي نطاق أوسع، وربما يتوسع ليطبَّق على العالم كله: الفدرالية.

حالما نضج تفكير برودون توضحت الفكرة الفدرالية وصارت مهيمنة، وحملت إحدى كتاباته الأخيرة عنوان «المفهوم الفدرالي وضرورة إعادة بناء جانب الثورة» 1863 وكما أشرنا سابقاً كان في نهاية حياته أكثر ميلاً إلى تسمية نفسه فيدرالياً أكثر من لاسلطويّ. نحن لم نعد نعيش في عصر المدن الصغيرة القديمة التي كانت فضلاً عن ذلك تتجمع حتى في زمانها أحياناً على أسس فدرالية. وإن مشكلة عصرنا هي إدارة البلدان الواسعة. علّق برودون «إذا لم تمتد الدولة قط لما وراء بقعة مدينة أو كومونة فسأترك كل واحد ليصدر حكمه الخاص ولن أقول المزيد. لكننا يجب ألا ننسى أنها مسألة مجموعة مقاطعات هائلة بداخلها مدن وقصبات وقرى يمكن أن تعد بالآلاف» لا إشكال في تفتيت المجتمع إلى عوالم صغيرة جداً. التوحيد ضروري.

لقد كان قصد السلطويين على كل حال حكم هذه المجاميع المحلية بواسطة قوانين «العزو» التي رد عليها برودون «أنا أعلن لهم أن هذا مستحيل كلية باسم فضيلة قانون التوحيد تماماً» «كل هذه المجاميع... أجهزة غير قابلة للتخريب... لا تستطيع بعد من تحرير نفسها من استقلالها ذي السيادة أكثر من قدرة ساكن المدينة على إضاعة مواطنته أو ميزته كإنسان حر... وكل ذلك سيتم نيله... سيكون خلق خصومه ليس في المستطاع فضّها بين السيادة العامة وكل من السيادات المفصلة... إقامة سلطة ضد سلطة وبكلمات

أخرى: على الرغم من الوحدة ذات النمو المفترض سينظم الواحد تجزئة».

في نظام كهذا «للامتصاص الاتحادي» فإن المدن والمجاميع «ستكون محكومة دوماً بفقدان هويتها داخل كتلة عظمى يجب أن يدعوها المرء بالاصطناعية» المركزية تعني «الاحتفاظ بمجاميع العلائق الحكومية التي هي مستقلة ذاتياً بطبيعتها» «ذلك هو الطغيان الحقيقي للمجتمع الحديث» إنه نظام الأمبريالية، الشيوعية، الإطلاقية. أرعد برودون مضيفاً واحداً من تلك الألغام التي كان أستاذاً فيها «كل هذه الكلمات مترادفة».

في الجانب الآخر: ستكون الوحدة، الوحدة الحقيقية المركزية، المركزية الحقيقية غير قابلة للتخريب فيما لو امتد قيد قانوني، اتفاقية تبادلية، حلف فدرالي عقد بين الوحدات الإقليمية «ما هو الشيء الذي يركز حقاً مجتمع رجال أحرار.. هو الاتفاق. ووحدة المجتمع هي نتاج الاتحاد الحرّ للمواطنين... لكي تعلن أمة نفسها موحدة، يجب أن تكون هذه الوحدة متمركزة... في كل وظائفها وطواقمها. يجب أن تُخلق المركزية من القاع فصاعداً، من المحيط إلى المركز، ويجب أن تكون كل الوظائف مستقلة ومحكومة ذاتياً، ستكون بؤرتها الأكثر تعدداً ومركزيتها الأكثر قوة».

إن النظام الفدرالي مضاد للمركزية الحكومية. وقد قُدِّر لمبدأي التحررية والسلطوية اللذين هما في صراع مستمر أن ينتهيا إلى هذه الشروط «تحلّ الفدرالية كل المشاكل التي تقوم من الحاجة للتوليف بين الحرية والسلطة. وزوّدت الثورة الفرنسية أسس نظام جديد، السرّ الذي ينطرح لدى وريثتها الطبقة العاملة. هذا هو النظام الجديد: توحيد كل أبناء الشعب في فدرالية للفدراليات» لم تستخدم هذه العبارة بلا مبالاة: فدرالية عالمية ستكون كبيرة جداً، يجب أن تتوحد الوحدات الكبيرة فيما بينها. أعلن برودون بأسلوبه التنبؤي المفضل لديه «سيفتتح القرن العشرون عصر الفدراليات».

طوَّر باكونين ودعم الأفكار الفدرالية لبرودون وحسب، ونادى مثل

برودون بتفوُّق الوحدة الفدرالية على الوحدة السلطوية «عندما لا تعود السلطة البغيضة للدولة موجودة هناك لتكبيل الأفراد فستعيش التعاونيات والكومونات والمقاطعات والأقاليم سوية وستكون مترابطة عن قرب قريب أكثر وتنتصب أكثر حيوية وواقعية وقوة شمولية فما هي في الوقت الحاضر مدفوعة بواسطة سلطة الدولة المضطهدة إياها جميعاً بالتساوي» إن السلطويين «مرتبكون دوماً. . . شكليون، عقديون وحكوميون. وحدة حقيقية وحيَّة تتمكن وحدها من الانبثاق، من النمو الأكثر تحرراً لكل الأفراد والجماعات، ومن تحالف فدرالي واختياري مطلقاً. . . لتعاونيات العمال في الكومونات وما وراء الكومونات في الأقاليم، وما وراء الأقاليم في الأُمم».

أكد باكونين الحاجة إلى كيان وسيط ما بين الكومونة والجهاز الفدرالي الوطني: الإقليم أو المقاطعة، فدرالية حرة للكومونات المستقلة ذاتياً، ويجب ألا يُظنّ على كل حال أن الفدرالية ستقود إلى الأنانية أو العزلة. التضامن لا يفترق عن الحرية «برغم أن الكومونات تبقى مستقلة ذاتياً بصورة مطلقة فإنها تشعر. . . بالتضامن فيما بينها وتتضافر بأحكام دون فقدان أيٍّ من حرياتها» خلقت المصالح المعنوية والمادية والفكرية في العالم الحديث وحدة حقيقية وقوية بين الأجزاء المختلفة للأمة الواحدة وبين الأُمم المختلفة وستخلف تلك الوحدة الدولة.

إن الفدرالية، مهما يكن، سلاح ذو حدين، وكانت «فدرالية» الجيرونديين إبّان الثورة الفرنسية رجعية وأيدتها المدرسة الملكية لتشارلس موراس تحت اسم «الإقليمية» وفي بعض الأقطار مثل الولايات المتحدة اسْتُغِلَّ الدستور الفدرالي من قبل هؤلاء الذين يحرمون الملونين من حقوقهم المدنية. اعتقد باكونين أن الاشتراكية وحدها تقدر على إعطاء الفدرالية مضموناً ثورياً، ولهذا السبب أظهر أتباعه الإسبان حماساً ضئيلاً للحزب الفدرالي البرجوازي لـ (بي يامارجال) الذي دعا نفسه برودونياً وحتى لجناحه اليساري «الكانتوتي» إبان

المأساة القصيرة والمجهضة لجمهورية[1] 1873.

13 ــ الأُممية:

تقود الفكرة الفدرالية منطقياً إلى الأُممية، ذلك بالقول بانتظام الأُمم على أسس فدرالية في «اتحاد أخوي واسع للجنس البشري» وهنا أظهر باكونين ثانية النزعة الطوباوية البرجوازية لفكرة فدرالية غير قائمة على الأُممية والاشتراكية الثورية، وبعيداً تماماً عن زمانه كان «أوروبياً» كما يقول الناس اليوم، ودعا لولايات متحدة لأوروبا ورغب في ذلك. السبيل الوحيد «لجعل حرب أهلية بين الشعوب المختلفة داخل الأسرة الأوروبية مستحيلة» وكان، على كل حال، معنيّاً بإصدار تحذير ضد أية فدرالية أوروبية مؤسسة على دول «كما هي قائمة في الوقت الحاضر».

«ليس من دولة مركزية، بيروقراطية وعسكرية هنا وإن تكن تدعى جمهورية تقدر على الدخول بجد وإخلاص في فدرالية عالمية. ستكون دولة كهذه وبقوامها الحقيقي دوماً سراً أو علانية ناكرة للحرية الداخلية، وهنا بالضرورة إعلان دائم للحرب وتهديد لوجود الأقطار المجاورة» وأي تحالف مع دولة رجعية سيكون «خداعاً للثورة» ويمكن أن تقوم الولايات المتحدة الأوربية والعالمية فيما بعد بعد إسقاط النظام القديم الذي يستقر من القمة إلى القاعدة على العنف ومبدأ السلطة وحسب. في اليد الأخرى إذا ما تحققت الثورة الاجتماعية في أي قطر منفرد، أي قطر أجنبي صنع ثورة على نفس القواعد سيُرحَّب به في فدرالية ثورية وبدون اعتبار لحدود الدولة القائمة.

تستقر الأُممية الحقيقية على تقرير المصير المتضمن حق الانفصال، وتابعاً

---

(1) كان بي يامارجال وزيراً في الحقبة ما بين 1873 و1874 حينما أُنشأت جمهورية لفترة وجيزة في إسبانيا (ملاحظة المترجمة) في كانون ثاني 1937 عندما أصبحت فدريكا مونتسيني، لاسلطوية امرأة وزيرة امتدحت إقليمية بي يامارجال وردَّ جاستون ليفال: إنه كان بعيداً عن كونه تابعاً مخلصاً لباكونين.

لبرودون اقترح باكونين أن «كل فرد، كل تعاونية، كومونة أو إقليم، كل مقاطعة وأمة لها الحق المطلق لتقرير مصيرها هي للارتباط بالآخرين أم لا، لتتحالف مع من تشاء أو تفسخ أي تحالف بدون اعتبار لما يدعى بالمطاليب التاريخية أو التلاؤم مع جيرانها» إن حق الاتحاد بحرية والانفصال بنفس الحرية هو الأهم من كلّ الحقوق السياسية والذي بدونه تكون الكونفدرالية مركزية مقنَّعة دوماً».

لم يعتبر اللاسلطويون هذه القاعدة، على كل حال، كنهج نحو العزلة أو الانفصال، على العكس أعلنوا «الاعتقاد بأن الحق في الانفصال إذا ما اعترف به مرة فإنه سيصبح مستحيلاً في الحقيقة لأن الوحدات القومية نشأت بحرية ولم تعد نتاج العنف والزيف التاريخي» ومن بعد، بعد فحسب ستكون «قوية حقاً، مثمرة ودائمية».

ومن بعد تبنى لينين والمؤتمرات الأولى للأُممية الثالثة هذا المفهوم من باكونين وجعله البلاشفة أساساً لسياستهم حول القومية واستراتيجيتهم بمعاداة الكولونيالية إلى أن نقضوه أخيراً بالتحول إلى المركزية السلطوية والإمبريالية المقنَّعة.

14 ـ ضد ـ الكولونيالية:

مما هو جدير بالملاحظة أن الاستقصاء المنطقي قاد مبدعي الفدرالية إلى توقع نبوئي لمشاكل ضدّ الكولونيالية. وميّز برودون الوحدة «القائمة على الغزو» عن الوحدة «العقلية» ورأى أن «كل تنظيم يتجاوز حدوده الصحيحة ويميل إلى غزو أو إلحاق تنظيمات أخرى يفقد في القوة ما يكسب في الحجم، ويتحرك نحو الانحلال» والأكثر أن مدينة (يعني، أمة) توسّع سكانها أو أراضيها تصل عاجلاً إلى الطغيان وأخيراً إلى التمزق «إذا ما أقامت ممتلكات أو مستعمرات على مبعدة منها فإن هذه الممتلكات أو المستعمرات ستتغير عاجلاً أو آجلاً إلى مدن جديدة تبقى مرتبطة بالمدينة الأم بفدرالية فقط أم لا على الإطلاق».

«حينما تصبح المدينة الجديدة جاهزة لإعالة نفسها فإنها تعلن بنفسها استقلالها. بأي حقّ تتجرأ المدينة الأم على معاملتها كإقطاعية، كملك ليُستغل؟».

«بالتالي رأينا في زماننا الولايات المتحدة تحرر نفسها من إنجلترا وبنفس الطريقة كندا، في الواقع وإن لم يكن بالاسم، وتشرع أستراليا في طريق الانفصال بمصادقة وموافقة الوطن الأم. وبنفس الطريقة ستقيم الجزائر نفسها عاجلاً أو آجلاً فرنسا إفريقية ما لم نحتفظ بها لدوافع كريهة وأنانية كوحدة منفردة وبوسائل القوة والفاقة».

راقب باكونين الأقطار غير النامية وشك فيما إذا كانت تستطيع «أوروبا الإمبريالية» الاحتفاظ بثمانمائة مليون آسيوي في العبودية «ثلثا البشرية، ثمانمائة مليون آسيوي راقدون في عبوديتهم، سينهضون بالضرورة ويبدأون بالتحرك. ولكن بأي اتجاه ولأية غاية؟» لقد أعلن «التعاطف الشديد مع أية انتفاضة وطنية ضد أي شكل للاضطهاد» وامتدح للشعوب الخاضعة النموذج الساحر للانتفاضة الإسبانية ضد نابليون. وبرغم عدم التناسب الخيالي ما بين العصابات البدائية والقوات الإمبرطورية فقد فشلت القوة المحتلة في إسقاطها وسيق الفرنسيون إلى خارج إسبانيا بعد نضال خمس سنوات.

لكل شعب «الحق في أن يكوّن نفسه، وليس من أحد مُخوّل بفرض أزيائه، عادته، لغته، وجهات نظره أو قوانينه عليه» على كل حال، آمن باكونين أيضاً بأنه لا يمكن أن تكون هناك فدرالية حقيقية بدون اشتراكية وتمنى إمكان تحقيق التحرر الوطني «في الاقتصاد بقدر ما في المصالح السياسية للجماهير» «وليس بقصد طموح لإقامة دولة قوية» أية ثورة من أجل الاستقلال الوطني «ستكون ضد الشعب حتماً... إذا نفذت بدون الشعب ومن ثم فإنها ستعتمد حتماً لأجل النجاح على طبقة ذات امتيازات» وتصبح بالتالي «حركة متقهقرة، كوارثية، مضادّة للثورة».

سيكون من المؤسف إنْ تخلصت الأقطار المعادية للكولونيالية من النير الأجنبي لتقع في عبودية محلية سياسية ودينية وحسب. إن تحررها يتطلب «اجتثاث كل إيمان بأية سلطة مقدسة أو بشرية لدى الجماهير» إن المسألة الوطنية ثانوية تاريخياً بالنسبة للمسألة الاجتماعية ويعتمد الخلاص على الثورة الاجتماعية. لا يمكن لثورة وطنية منعزلة النجاح. الثورة الاجتماعية تصبح لا محالة ثورة عالمية.

تنبأ باكونين أن معاداة الكولونيالية ستعقبها فدرالية تتوسع دوماً للشعوب الثورية «يكمن المستقبل مبدئياً في خلق وحدة عالمية أوربية ـ أميركية وتندمج الأمة الأوربية ـ الأميركية الكبيرة هذه فيما بعد، بعيداً جداً مع الوحدات الإفريقية والآسيوية».

ينقلنا هذا التحليل مباشرة إلى منتصف القرن العشرين.

الفصل الثالث

اللاسلطوية في التطبيق الثوري

1 ـ اللاسلطوية تصبح منعزلة عن حركة الطبقة العاملة (1880 ـ 1914):

لقد آن الأوان لاختبار اللاسلطوية في العمل مما ينقلنا إلى عشية القرن العشرين. لعبت الأفكار التحررية بعض الدور بالتأكيد في ثورات القرن التاسع عشر، ولكن ليس دوراً مستقلاً. واتخذ برودون موقفاً سلبياً من ثورة 1848 حتى قبل نشوبها. وهاجمها كثورة سياسية، شراك المغفلين للبرجوازية. وفي الحقيقة كان الكثير من هذا صحيحاً. وأكثر من ذلك فإنها كانت تعباً لبرودون في غير محلّه وإن استخدامها المتاريس ومعارك الشوارع كان في غير أوانه، لأنه هو نفسه حلم بطريق مختلف تماماً لغلبة ترياقه الناجع لكل الأمراض: الجماعية التبادلية. وكذلك بالنسبة لكومونة باريس فبينما هو صحيح أنها انفصلت بعفوية عن «المركزية الدولتية التقليدية» إلا أنها كانت ثمرة «توفيق» كما لاحظ هنري لوفيفر.. نوعاً من «جبهة متحدة» بين البرودونيين والباكونينيين من جانب، واليعاقبة والبلانكويين من جانب آخر. «نبذت بشجاعة» الدولة ولكن باكونين اعترف أن اللاسلطويين الأمميين كانوا «أقلية ضئيلة» في صفوفها.

وكنتيجة لقوة دفع باكونين نجحت اللاسلطوية على كل حال في فرض

نفسها على الأُممية الأولى ـ حركة جماهيرية لا سياسية، أممية، بروليتارية، ولكن في بعض الأوقات حوالي 1880 بدأ اللاسلطويون في إنكار «الأُممية الجبانة للفترة الأولى» ونشدوا إقامة ما وصفه مالاتيستا في 1884 «بالأُممية المروِّعة» محلها لتكون لا سلطوية، شيوعية، معادية للدين، ضد ـ البرلمانية وثورية، كل ذلك في وقت واحد. وكانت هذه الفزّاعة مهلهلة جداً. عزلت اللاسلطوية نفسها عن حركة الطبقة العاملة ونتيجة لذلك فإنها فسدت وفقدت طريقها في الفئوية وفعالية الأقلية.

ما الذي أدى لهذا الانحطاط؟ كان أحد الأسباب نعومة النمو الصناعي والكسب السريع للحقوق السياسية من قبل العمال الذين صاروا لهذا السبب أكثر تقبلاً للإصلاحية البرلمانية. وأعقب ذلك تغلب ذوي العقلية السياسية، الانتخابيين، الإصلاحيين، الديمقراطيين الاجتماعيين على حركة الطبقة العاملة العالمية ممن لم يكن هدفهم الثورة الاجتماعية بل المكاسب المشروعة من الدولة البرجوازية والاكتفاء بالمطالب القصيرة الأمد.

عندما وجدوا أنفسهم أقلية صغيرة، نبذ اللاسلطويون فكرة النضال داخل الحركات الشعبية الواسعة فأطلق العنان للنظريات الطوباوية المؤتلفة بين توقعات غير متبلورة واستثارة للحنين إلى عصر ذهبي. وأدار كروبتكن ومالاتيستا وأصدقاؤهم ظهورهم للطريق الذي فُتح من قبل باكونين بحجة إبقاء نظريتهم نقية، واتهموا باكونين والأدبيات اللاسلطوية عموماً بكونها «مصبوغة بالماركسية كثيراً جداً» وانقلب اللاسلطويون على أنفسهم ونظموها من أجل عمل مباشر في مجاميع سرية صغيرة حيث تسرب إليها مخبرو الشرطة بسهولة.

سرعان ما أعقب تقاعد باكونين عن العمل وفاته وأصيب اللاسلطوية من 1876 فصاعداً بجرثومة المغامراتية والخيالات الجامحة، وأطلق مؤتمر برن شعار «الدعاية بواسطة الفعل» وأعدَّ كافيرو ومالاتيستا الدرس الأول في العمل. في 5 نيسان 1877 قادا مجموعة من حوالي ثلاثين مناضلاً مسلحاً

حيث ظهروا فجاة في جبال مقاطعة بنيفتو الإيطالية، وأحرقوا سجلات أبرشية قرية صغيرة، ووزعوا النقود الموجودة بحوزة جامع الضريبة على الفقراء، وحاولوا تنصيب الشيوعية التحررية في مجال بدائي صغير جداً، وفي النهاية ساروا على الأقدام وأصابهم الخدر من البرد واستسلموا بدون مقاومة.

وبعد ثلاث سنوات في 25 كانون أول 1880 كان كروبتكن يدعو في صحيفته «الثورة» «للتمرد الدائم بالكلام، الكتابة، بواسطة الخنجر والبندقية أو بواسطة الديناميت. . . أي شيء يلائمنا إنما هو انحراف بنظر الشرعية» بقيت خطوة واحدة فحسب بين «الدعاية بواسطة الفعل» والهجوم على الأفراد، وسرعان ما قُطعت.

كان ارتداد جماهير الطبقة العاملة أحد أسباب اللجوء إلى الإرهاب، وقد ساهمت «الدعاية بواسطة الفعل» بعض الشيء في الحقيقة في إيقاظ العمال من لامبالاتهم. كاتباً في «الثورة البروليتارية» تشرين الثاني 1937 دافع روبرت لوزون[1] «كان شبيهاً بدقَّة جرس إنذار أقامت البروليتاريا الفرنسية على قدميها بعد الإذلال الذي غطست فيه بواسطة مذابح الكومونة ـ من قبل اليمين. . . وكان لها التقدمة في تأسيس سي جي تي ـ الكونفدرالية العامة لترافيل وحركة نقابات العمال الجماهيرية لسنوات 1900 ـ 1910 ـ صُحح هذا الرأي المتفائل نوعاً ما أو أُلحق به[2] آراء فرناند بولتير، لاسلطوي شاب اتجه فيما بعد نحو النقابية الثورية: آمن بأن استعمال الديناميت منع العمال من تقبل الاشتراكية، ومهما تكن خيبة الأمل، فإنهم وقفوا مع الاشتراكية البرلمانية ولم يجرؤ واحد منهم على تسمية نفسه لاسلطوياً خشية أن يبدو وقد اختار التمرد المنعزل وضد العمل الجمعي.

---

(1) الثورة البروليتارية شهرية فرنسية وروبرت لوزون محارب ثوري سندكالي (ملاحظة المترجمة).

(2) لفت روبرت لوزون نظر المؤلف إلى أن من وجهة نظر دايلكتيكية فإن هذا التصريح وذلك لبلوتير محدودان بالتبادل لا مناص. للإرهاب تأثيرات متناقضة على حركة الطبقة العاملة.

لم يتباطأ الديمقراطيون الاجتماعيون في استعمال الأسلحة ضد اللاسلطويين المجهزين بتوليفة القنابل وطوباويات باكونين.

2 ـ إدانة الديمقراطية الاجتماعية للاسلطوية:

انقسمت حركة الطبقة العاملة الاشتراكية لعدة سنوات إلى شيع متضاربة، بينما انزلقت اللاسلطوية إلى الإرهاب متوافقاً مع انتظار سلبي للعصر الذهبي، وصارت الحركة السياسية التي تدعي كذباً تقريباً كونها ماركسية عاجزة عن التقدم في «القماءة البرلمانية» وتذكّر بيير موناتي فيما بعد، وهو لاسلطوي تحول إلى سندكالي «كانت الروح الثورية في فرنسا تموت... سنة بعد سنة وكانت الأفكار الثورية لجوسيد ألان لفظية وحسب ـ أو الأسوأ: انتخابية وبرلمانية، وتلك لجوريس ببساطة وبصراحة تامة وزارية وحكومية» وتم الطلاق في فرنسا بين اللاسلطويين والاشتراكيين في مؤتمر الهافر لسنة 1880 عندما ألقى حزب العمال الوليد نفسه في السياسة الانتخابية.

في باريس سنة 1889 قرر الديمقراطيون الاجتماعيون من مختلف الأقطار إحياء التطبيق المهمل تقريباً بعقد مؤتمرات الاشتراكية الدولية، فتح هذا الطريق لخلق الأُممية الثانية واعتقد بعض اللاسلطويون أن من الضروري حضور الاجتماع. أثار حضورهم أحداثاً عنيفة منذ أن استخدم الديمقراطيون الاجتماعيون تفوقهم العددي لكبح كل نقاش من خصومهم. وفي مؤتمر بروكسل لسنة 1891 استهجن التحرريون وأُبعدوا. وعلى كل حال انسحب العديد من مندوبي الطبقة العمالية في انجلترا وإيطاليا وهولندا محتجين ولو أنهم كانوا في الحقيقة إصلاحيين. انعقد المؤتمر التالي في زوريخ سنة 1893 وطالب الديمقراطيون الاجتماعيون بإبعاد كل المنظمات غيرالنقابية العمالية التي لا تعترف بضرورة «النشاط السياسي» في المستقبل، وهذا يعني كسب السلطة البرجوازية بواسطة الاقتراع.

في مؤتمر لندن لسنة 1896 التف بضعة لاسلطويين إيطاليين وفرنسيين على

شرط الإبعاد بإقناع نقابات عمال على تعيينهم كمندوبين. ولم يكن هذا ببساطة أخدوعة لأن اللاسلطويين، كما سنرى أدناه، وجدوا مرة أخرى الطريق إلى الواقع: دخلوا حركة نقابات العمال. ولكن عندما حاول واحد منهم، پول ديليسالي، اعتلاء منصة الخطابة قذف به بعنف إلى أسفل المدرج وجرح. اتهم جوريس اللاسلطويين بتحويل نقابات العمال إلى مجاميع لاسلطوية ثورية وتمزيقها، مثلما جاؤوا إلى المؤتمر لتمزيقه وحسب «للمصلحة الكبرى للرجعية البرجوازية».

أظهر قائدا الديمقراطية الاجتماعية الألمانية في المؤتمر، مدمنا الانتخابية ولهلم ليبكنخت وأوغست بيبل نفسيهما همجيين تجاه اللاسلطويين كما كانا في الأُممية الأولى وبدعم من ابنة ماركس الينور ايفلنج التي اعتبرت اللاسلطويين «كمجانين» كان لهما طريقهما الخاص في الاجتماع ودعياه ليصدر قراراً يُبعد من المؤتمرات المقبلة كل «المضادين للنزعة البرلمانية» بأي قناع قد يظهرون.

قدّم لينين باقة ردّ فيما بعد للاسلطويين في «الدولة والثورة» تخفي بعض الأشواك، متناولاً إياهم بصدد العلاقة مع الديمقراطيين الاجتماعيين، متهماً الأخيرين بكونهم «تركوا للسلطويين احتكار نقد النزعة البرلمانية» وكونهم «وصموا» نقداً كهذا بأنه «لاسلطوي» وكان من المدهش جداً أن صارت بروليتاريا الأقطار البرلمانية تشمئز من اشتراكيين كهؤلاء وتتعاطف أكثر فأكثر مع اللاسلطويين. ودعا الديمقراطيون الاجتماعيون كل جهد للقضاء على الدولة البرجوازية بلاسلطوي. واللاسلطويون «وصفوا بصورة صحيحة الشخصية الانتهازية لأفكار أغلب الأحزاب الاشتراكية عن الدولة».

تبعاً للينين كان ماركس وبرودون متفقين في الرغبة «بتدمير الماكنة القائمة للدولة» «إن الانتهازيين غير راغبين في الاعتراف بالمماثلة ما بين الماركسية ولاسلطوية برودون وباكونين» ودخل الديمقراطيون الاجتماعيون في نقاش مع اللاسلطويين بأسلوب «غير ماركسي» وتقلص انتقادهم واللاسلطويون إلى تفاهة

بورجوازية صرفة «نحن نعترف بالدولة واللاسلطويين لا يعترفون» اللاسلطويون في مركز قوي ليردوا بأن هذا النوع من الديمقراطية الاجتماعية يفشل في واجبه بتوفير تعليم ثوري للعمال. وانتقد لينين بشدة كراسة معادية للاسلطوية للديمقراطي الاجتماعي الروسي يليخانوف بكونها «ظالمة جداً بحق اللاسلطويين» «سفسطائية» مليئة بالجدل المبتذل وتدس بأن ليس هناك فارقاً بين لاسلطوي وقاطع طريق».

3 ـ اللاسلطويون في نقابات العمال:

بلغ اللاسلطويون نهاية خانقة في تسعينات القرن التاسع عشر، وانقطعوا عن عالم العمال الذي صار حكراً للديمقراطيين الاجتماعيين. اندسّوا إلى شيع صغيرة، وتحصنوا في أبراج عاجية، حيث صقلوا بصورة متزايدة معتقدات غير واقعية أو آخرون نفذوا وطبقوا أعمالاً من الإرهاب الفردي، وتركوا أنفسهم تقع في شبكة قمع وانتقام.

يحتفظ كروتبكن بفضل كونه واحداً من أوائل الذين اعترفوا بأخطائهم والإقرار بعقم «الدعاية» بواسطة الفعل «وأكد في سلسلة مقالات ظهرت سنة 1890» «يجب أن يكون المرء مع الشعب الذي لم يعد يريد أعمالاً منعزلة، وإنما يريد رجال فعل داخل صفوفه» وحذَّر قراءه من «وهم أن الواحد يستطيع دحر تحالف المستغلين ببضعة أرطال من المتفجرات» واقترح العودة إلى النقابية العمالية الجماهيرية مثل تلك التي كانت الأُممية جنيناً ومصدر تكثير «نقابات هائلة تعانق ملايين البروليتاريين» إنه كان الواجب الملحّ للاسلطويين بالنفاذ إلى نقابات العمال لعزل الجماهير العاملة عن الاشتراكيين المزيفين الذين كانوا يخدعونها. في سنة 1895 نشرت أسبوعية لاسلطوية «العصر الحديث» مقالة لفرناند بلوتير بعنوان «اللاسلطوية ونقابات العمال» مقدمة التكتيك الجديد تستطيع اللاسلطوية أن تعمل جيداً جداً بدون ديناميت ويجب أن تدنو من الجماهير لتنشر الأفكار اللاسلطوية في أوسع نطاق ممكن ولتحفظ

حركة نقابات العمال من النزعة النقابية الضيقة التي غرقت فيها معاً. ويجب أن تكون نقابات العمال «مدرسة تطبيقية للاسلطوية» كمخبر للصراع الاقتصادي منفصلة عن المنافسة الانتخابية وتدار على خطوط لا سلطوية. ألم تكن نقابة العمال هي المنظمة الثورية التحررية الوحيدة التي تستطيع أن توازي وتقضي على النفوذ الشرير للسياسيين الديمقراطيين الاجتماعيين؟ ربط بلوتير نقابات العمال بالمجتمع الشيوعي التحرري الذي بقي هو الهدف النهائي للاسلطوي: في اليوم الذي تنشب فيه الثورة تساءل «ألا تكون على الأغلب منظمة تحررية جاهزة للتغلب على النظام القائم، وهكذا بالنتيجة تلغي السلطة السياسية بكاملها، كل قسم يسيطر على وسائل الإنتاج ويدير شؤونه الخاصة يسود على نفسه بالموافقة الحرة لأعضائه؟».

صرح بيير موناتي فيما بعد في المؤتمر اللاسلطوي العالمي لسنة 1907 «تفتح النقابات العمالية. . . منظورات جديدة للاسلطوية انعكست لفترة طويلة جداً على نفسها» من جانب «تجدد النقابات العمالية. . . إدراك اللاسلطوية لجذورها في الطبقة العاملة. من جانب آخر كانت مساهمة اللاسلطويين ضئيلة في وضع حركة الطبقة في طريق الثورة وتعميم فكرة العمل المباشر» وبعد نقاش حي تبنى هذا المؤتمر قراراً توفيقياً افتتح بالنص التالي عن قاعدة «ينظر المؤتمر اللاسلطوي العالمي إلى نقابات العمال كوحدات مقاتلة في الصراع الطبقي من أجل ظروف عمل أفضل وكتعاونيات منتجين قادرة على خدمة تحويل المجتمع الرأسمالي إلى مجتمع شيوعي ـ لاسلطوي معاً».

لاقى اللاسلطويون النقابيون بعض الصعوبات في جهودهم لجرّ الحركة التحررية بكاملها إلى الطريق الجديد الذي اختاروه، وتعلّق «أصفياء» اللاسلطوية بشكوكهم التي لا تقهر ذات العلاقة بحركة نقابات العمال، واستاؤوا منها لثبات أقدامها الشديد على الأرض واتهموها بموقف الترضية من المجتمع الرأسمالي لكونها جزءاً لا يتجزأ منه، وفي تقييد نفسها بمطالب

قصيرة الأمد، وخالفوا دعواها بأنها قادرة على حل المشكلة الاجتماعية بيد واحدة. في مؤتمر 1907 ردَّ مالاتيستا بحدَّة على موناتي مدافعاً بأن حركة العمال الصناعيين كانت وسيلة للاسلطوية وليست غاية «لم تكن النقابية العمالية ولن تكون قط أي شيء غير حركة مشروعة ومحافظة وغير قادرة على أن تنال ما هو أبعد ـ إن كان ذلك بعيداً ـ من تحسين ظروف العمل» وأصبحت الحركة النقابية ضيقة النظر بواسطة ملاحقة المكاسب الآنية وحرف العمال جانباً عن الصراع الحاسم «يجب ألا يطالب المرء من العمال أن يضربوا وإنما بالأحرى يستمروا بالعمل من أجل مصلحتهم» وانتهى مالاتيستا إلى تحذير مستمعيه من النزعة المحافظة لبيروقراطي نقابات العمال «إن الموظف في حركة العمال الصناعيين خطر يمكن مقارنته بذوي النزعة البرلمانية وحسب. ويعتبر أي لاسلطوي يوافق على أن يصبح موظفاً دائمياً لقاء راتب في نقابة عمال مفقوداً بالنسبة للاسلطوية».

ردَّ موناتي على هذا بأنه لم تكن الحركة النقابية بالتأكيد أكثر اكتمالاً من أية مؤسسة بشرية أخرى «بعيداً عن التستر على أخطائها، أظن أن من الحكمة الاحتفاظ بها دوماً في الذهن لكي يتم رد الفعل تجاهها» واعترف أن الوظائفية في نقابات العمال أثارت انتقادات حادة مبرَّرة غالباً، لكنه احتجّ على تهمة الرغبة في التضحية باللاسلطوية والثورة من أجل النقابية «كما هو الحال مع أيّ واحد آخر هنا فإن اللاسلطة هي هدفنا الأخير. مهما يكن، بسبب تغير الأزمان فإننا غيَّرنا مفهومنا عن الحركة وعن الثورة. . . إذا ما، بدلاً من نقد أخطاء النقابة العمالية في الماضي والحاضر وحتى في المستقبل من فوق، ربط اللاسلطويون أنفسهم بعملها بصميمية أكثر، لأمكن تجنب الأخطار الكامنة في النقابية العمالية إلى الأبد».

لم يكن غضب اللاسلطويين الفئويين بدون سبب كلياً، على كل حال، فإن نوعية نقابات العمال التي لم يوافقوا عليها تعود لحقبة ماضية، تلك التي

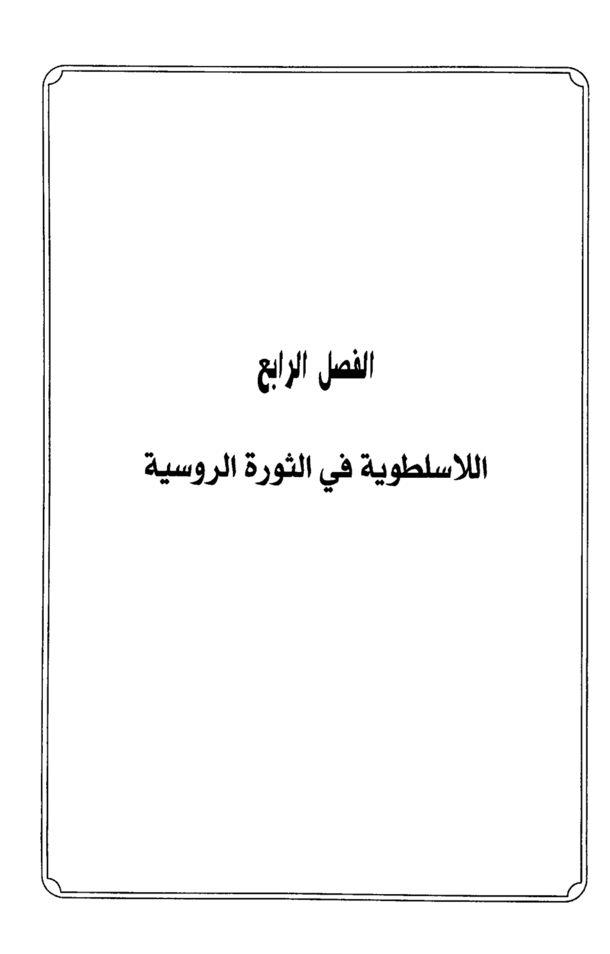
كانت في البداية بنقاء وببساطة تعاونية وفيما بعد تابعة عمياء لهؤلاء الساسة الديمقراطيين الاجتماعيين الذين تضاعفوا في فرنسا إبّان السنوات الطويلة اللاحقة لقمع الكومونة. ومن جانب آخر تجددت نقابية عمال الصراع الطبقي بواسطة النقابيين اللاسلطويين الذين دخلوا فيها، وأعطت للاسلطويين «الأصفياء» السبب المضاد للشكوى: إنها طالبت لتقديم ايديولوجيتها الخاصة «لتكون مكتفية بذاتها» ودافع إميل بوجيه الناطق الأكثر تأثيراً باسمها «نقابة العمال متفوقة على أي شكل آخر للالتحام بين الأفراد لأن مهمة التحسين الجزئي والتحويل الاجتماعي الأكثر حسماً يمكن تنفيذهما جنباً إلى جنب ضمن إطارها. إنه بالضبط بسبب أن نقابة العمال تستجيب لهذه الحاجة المزدوجة... لن تعود تضحي بالحاضر من أجل المستقبل أو بالمستقبل من أجل الحاضر ذلك أن نقابة العمال تقف كأفضل أنواع التجمع».

أعلن عن الاهتمام بالنقابية العمالية الجديدة بالتأكيد والحفاظ على «استقلاليتها» في وثيقة شهيرة تبناها مؤتمر سي جي تي في آمينس في 1906 لم تكن الوثيقة متأثرة كثيراً بالتعارض مع اللاسلطوية بقدر الرغبة في التحرر من وصاية الديمقراطية البرجوازية وامتداداتها في حركة الطبقة العاملة ـ الديمقراطية الاجتماعية. كما شعرت بأهمية الحفاظ على التحام الحركة النقابية عندما تواجه تكاثر الشيع السياسية المنافسة مثل تلك التي وجدت في فرنسا قبل نشوء «الاتحاد الاشتراكي» واتخذ كتاب برودون «الإمكانية السياسية للطبقات العاملة» 1865 من قبل النقابيين الثوريين كإنجيل لهم واختاروا منه بعناية خاصة فكرة «الانفصال» كونها طبقة محددة يجب أن ترفض البروليتاريا كل معونة من الطبقة المضادة. مهما يكن صُدم بعض اللاسلطويين من طلب النقابية العمالية العمل بدون وصايتهم. أوضح مالاتيستا أنه كان معتقداً زائفاً جذرياً وهدد الوجود الكامل للاسلطوية وأرجع جان غريف تابعه المخلص الصدى «يمكن ويجب أن تكون النقابية العمالية مكتفية ذاتياً في نضالها ضد الاستغلال من قبل أرباب

العمل ولكنها لا تستطيع التظاهر بكونها قادرة على حل المشكلة الاجتماعية بنفسها» إنها «ذات إمكانية ضئيلة في داخلها بحيث إن الفكرة التامة عما هي، عما يجب أن تكون، وعما يجب أن تفعل تأتي إليها من الخارج».

برغم هذه الاتهامات المضادة فإن الهياج الثوري الذي صاحب التحول اللاسلطوي نحو النقابية العمالية جعل الحركة النقابية في فرنسا والأقطار اللاتينية الأخرى قوة يحسب لها حساب في السنوات التي سبقت الحرب العظمى، وهذا لم يؤثر في البرجوازية والحكومات فقط وإنما أيضاً في الساسة الديمقراطيين الاجتماعيين الذين يفقدون من الآن فصاعداً أغلب نفوذهم على الحركة العمالية. اعتبر الفيلسوف جورج سوريل دخول اللاسلطويين في نقابات العمال كواحد من الأحداث الرئيسية لزمانه. لقد ذاب المعتقد اللاسلطوي في حركة جماهيرية لينبثق متجدداً وبمزاج طري وحسب.

كان على الحركة التحررية أن تبقى مخصبة بهذا الالتحام بين الفكرة اللاسلطوية والفكرة النقابية حتى سنة 1914 حيث كانت سي جي تي الفرنسية النتاج القصير العمر لهذا التركيب. إلا أن النتاج الأكثر اكتمالاً وعمراً كان سي ان تي الإسبانية (الكونفدرالية الوطنية ديل تراباجو) وقد تأسست في 1910 مستفيدة من انحلال الحزب الراديكالي للسياسي الكسندر ليرو. لم ينس أحد الناطقين باسم النقابية اللاسلطوية الإسبانية دايجو أباد دي سانتيلان من ردّ الفضل إلى فرناند بيلوتير وإلى إميل بوجيه واللاسلطويين الآخرين الذين فهموا كم كان ضرورياً البدء بغرز أفكارهم في التنظيمات الاقتصادية للبروليتاريا.



الفصل الرابع

اللاسلطوية في الثورة الروسية

وجدت اللاسلطوية دورتها الثانية في النقابية الثورية وأعطتها الثورة الروسية دورتها الثالثة. ربما تدهش هذه العبارة القارىء لأول وهلة وهو قد اعتاد على الاعتقاد بأن الحركة الثورية الكبرى لأكتوبر 1917 صنيعة ومُلك البلاشفة وحدهم. كانت الثورة الروسية في الحقيقة حركة جماهيرية عظمى. موجهة ترتفع من بين صفوف الشعب وتجاوزت وغمرت البنى الايدولوجية. إنها لم ترتبط بأحد فيما عدا بالشعب. وإلى مدى بعيد كانت ثورة أصيلة مستمدة دوافعها من الأعماق فإلى أعلى ومثمرة بعفوية أجهزة الديمقراطية المباشرة وقدمت كل سمات ثورة اجتماعية مع ميول تحررية. وعلى كل حال منع الضعف النسبي للاسلطويين الروس إياهم من استغلال المواقف التي كانت مفضلة بصورة استثنائية من أجل انتصار أفكارهم.

صودرت الثورة كلياً وحرفت بواسطة تفوق، تبعاً للبعض، ومهارة الفريق الثوري المحترف والمتجمع حول لينين تبعاً لآخرين. إلا أن إخفاق اللاسلطوية والثورة الشعبية الأصيلة معاً هذا لم يكن عقيماً كلياً بالنسبة للفكرة التحررية. في المكان الأول: لم يعد الاستيلاء الجماعي على وسائل الإنتاج موضع سؤال ثانية، وهذا ما ضمن الأرضية التي عليها ربما تتغلب الاشتراكية من القاعدة في يوم ما على النظام الدولتي. أكثر من ذلك زودت التجربة الروسية الفرصة لبعض اللاسلطويين الروس وبعض من غير الروس لتعلّم الدروس

المعقدة لإخفاق مؤقت ـ الدروس التي بدا أن لينين نفسه أصبح واعياً لها عشية وفاته. وبهذا المعنى فإنهم يقدرون على إعادة التفكير في مجمل مشكلة الثورة واللاسلطوية. تبعاً لكروبتكن، أرجع فولاين صداه فإنها علمتهم، إن كانوا بحاجة قط ليعرفوا، كيف أن الثورة لا تُصنع. من الصعب إثبات أن الاشتراكية التحررية غير عملية فقد أكدت التجربة السوڤياتية على العكس وبجلاء الصحة التنبؤية لآراء مؤسسي اللاسلطوية وبالأخص في انتقادهم للاشتراكية السلطوية.

1 ــ ثورة تحررية:

كانت نقطة إنطلاق ثورة 1917 تلك لسنة 1905 التي ظهر إبّانها إلى الوجود نوع جديد من الأجهزة الثورية: السوڤياتات. إنها ولدت في معامل سنت بطرسبورج أثناء إضراب عفوي عام، وفي غياب تام لحركة وتقاليد نقابية تقريباً. ملأت السوڤياتات فراغاً بتنسيق نضال المعامل في الإضراب. كان اللاسلطوي فولاين واحداً من المجموعة الصغيرة التي كان لديها فكرة إخراج السوڤيات الأول إلى الوجود ضمن علاقة وثيقة بالعمال وبناءً على موافقتهم. تتوافق شهادته مع تلك التي لتروتسكي الذي أصبح رئيس السوڤيات بعد أشهر معدودات وكتب عن حصيلته لسنة 1905 بدون أي قصد ازدراء، على العكس تماماً «مثلت فعالية السوڤيات تنظيم اللاسلطة وأظهر وجوده وتطوره اللاحق تماسك اللاسلطة».

خلقت هذه التجربة علامة دائمة في وعي الطبقة العاملة، وعندما نشبت الثورة الروسية الثانية في شباط 1917 لم يكن قادتها يملكون أي شيء ليبدعوه. استولى العمال على المعامل بعفوية وتم إحياء السوڤياتات اعتماداً على مبادرتهم الخاصة مرة أخرى. باغتوا الثوريين المحترفين على حين غرَّة.

وبناءً على اعتراف لينين نفسه كانت جماهير الفلاحين والعمال «أبعد مائة مرة إلى اليسار» من البلاشفة كانت السوڤياتات من الهيبة بحيث إنه باسمها وحده وبأمرها استطاع تمرد أكتوبر من الانطلاق.

وبرغم قوتها على كل حال، فإنها كانت تفتقر إلى التجانس، الخبرة الثورية والإعداد الأيديولوجي، هذا ما جعلها فريسة سهلة لأحزاب سياسية وأفكار ثورية غير مؤكدة. وبرغم أن الحزب البلشفي كان أقلية إلا أنه كان القوة الثورية المنظمة الحقيقة الوحيدة التي عرفت إلى أين تسير، ولم يكن له منافسون في أقصى اليسار سواء في الحقل السياسي أو النقابي العمالي، وله كوادر من الدرجة الأولى تحت تصرفه ومُقحمة في الحركة، وكما اعترف فولاين «بفعالية مجموعة، غامرة ضارية».

اعتبرت ماكنة الحزب على كل حال السوڤياتات دوماً ـ حينما كان ستالين في ذلك الوقت حلية مغمورة ـ مع التشكيك كمنافسة محرجة لها. حال الاستيلاء على السلطة اجتازت النزعة العفوية التي لا تقاوم نحو تشريك الإنتاج في البدء قنوات رقابة العمال. وأسبغ مرسوم 14 تشرين الثاني 1917 الصفة القانونية على مشاركة العمال في إدارة المشاريع وتثبيت الأسعار وألغى أسرار التجارة وألزم أرباب العمل على نشر مراسلاتهم وحساباتهم تبعاً لفكتور سيرج «لم يقصد قادة الثورة الذهاب إلى ما بعد ذلك» في نيسان 1918 كانوا «لا زالوا يقصدون. . . إقامة شركات مختلطة ذات حصص حيث تساهم فيها الدولة السوفياتية والرأسمال الروسي والأجنبي» جميعاً «وجاءت مبادرة إجراءات المصادرة من الجماهير لا من السلطة».

مبكراً كما في 20 تشرين الأول 1917 في المؤتمر الأول لمجالس المصانع قدم اقتراح مستلهم من اللاسلطوية اقترح «الرقابة على الإنتاج، ويجب ألا تكون تلك البعثات الرقابية ببساطة أجهزة تفتيشية بل. . . من هذه اللحظة على خلايا المستقبل التهيئة لتحويل الإنتاج إلى أيدي العمال» وفي أيام مبكرة جداً من ثورة أكتوبر أفادت آنا بانكراتوڤا[1] «توضحت النزعات اللاسلطوية بيسر

(1) مؤرخة بلشفية أصبحت ستالينية فيما بعد.

ونجاح زائدين، لأن الرأسماليين أعدّوا مقاومة نشطة ضد تطبيق المرسوم بشأن رقابة العمال ورفضوا عملياً مساهمتهم في الإنتاج».

سرعان ما أظهرت رقابة العمال نفسها في النتيجة كونها نصف إجراء، مترددة وغير كافية. قام أرباب العمل بتخريبها وإخفاء مخزونهم، ونقلوا المعدات، وتحدّوا أو منعوا العمال من دخول المعامل، وفي بعض الأحيان استخدموا لجان المصانع كوكلاء أو مساعدين للإدارة حتى إنهم فكروا أن من المفيد محاولة جعل منشآتهم تؤمم. كان رد فعل العمال تجاه هذه المنظورات الاستيلاء على المعامل وإدارتها لصالحهم الخاص «نحن أنفسنا سوف لن نطرد المالكين» قال العمال في قراراتهم «وإنما سنغيّر الإنتاج إذا لم يضمنوا تشغيل المعامل» وتضيف آنا بانكراتوفا أن مجالس العمال في هذه الحقبة الأولى من «فوضى» «وبدائية» التشريك «غالباً ما استلمت إدارة المصانع التي اختفى أصحابها أو هربوا».

وسرعان ما فسحت رقابة العمال المجال للتشريك ومارس لينين العنف موضوعياً مع أعوانه الجبناء بقذفهم في «بوتقة الإبداع الشعبي الحي» وإلزامهم بالتحدث بلغة تحررية أصيلة. وكان يجب أن تكون قاعدة إعادة البناء الثوري هي التسيير الذاتي للعمال وهو وحده يستطيع تصعيد حماس ثوري كهذا في الجماهير. ذلك أن المستحيل يصبح ممكناً. عندما يستطيع آخر عامل يدوي، أي شخص عاطل، أي عاطل رؤية المعامل... الأرض... الإدارة في أيدي تعاونيات العمال، المستخدمين، الموظفين، الفلاحين. موزعة في أيدي اللجان الديمقراطيين الخ وقد أوجدت كلها من قبل الشعب بعفوية «حينما يرى الفقراء ويشعرون بأنه لن يكون هناك من قوة قادرة على إفشال الثورة الاجتماعية» سيبدو المستقبل مفتوحاً لجمهورية من طراز كومونة 1871 جمهورية سوڤياتات.

تبعاً لحسابات فولاين «بغية اقتناص خيال الجماهير وكسب ثقتها وعطفها

أعلن الحزب البلشفي. . . شعارات كانت تتصاعد إلى أن أصبحت سمة مميزة للاسلطوية» كان «كل السلطة للسوڤياتات» شعاراً إدركته الجماهير بحس تحرري. أفاد بيتر أرتشينوف أن «العمال فسّروا فكرة سلطة السوڤيات كحق خاص بهم لتقرير مصيرهم اجتماعياً واقتصادياً» في المؤتمر الثالث للسوڤياتات في بداية 1918 أعلن لينين «تتخذ الأفكار اللاسلطوية الآن شكلاً حياً» وبعده فوراً في مؤتمر الحزب السابع 6 ـ 8 آذار اقترح تبني موضوعات نوقشت ضمن أمور أخرى مع إنتاج أُدير بواسطة تنظيمات العمال (نقابات العمال، لجان المصانع الخ) هي: إلغاء فئة الموظفين المسؤولين عن المهن اليدوية والشرطة والجيش وتساوي الرواتب والتعويضات ومساهمة كل أعضاء السوڤياتات في تنظيم وإدارة الدولة والإزالة التامة على مراحل للدولة المذكورة واستعمال النقود، في مؤتمر نقابات العمال (ربيع 1918) وصف لينين المصانع «ككومونات مدارة ـ ذاتياً للمنتجين والمستهلكين» يذهب النقابي ـ اللاسلطوي ماكسيموڤ إلى أبعد من ذلك ليؤيد «أن البلاشفة لم ينبذوا نظرية ذبول الدولة التدريجي فحسب، بل والايديولوجية الماركسية عموماً. لقد أصبحوا من بعض أنواع اللاسلطويين».

2 ـ ثورة سلطوية:

نجح هذا الخط الجريء المتصل بغريزة الجماهير ومزاجها الثوري في إعطاء البلاشفة السيادة على الثورة. لكن لم يكن لديهم ما يفعلونه مع ايديولوجيتهم التقليدية أو مقاصدهم الحقيقية. لقد كانوا سلطويين لفترة طويلة ومتشبعين بأفكار الدولة. . . الدكتاتورية. . . المركزية. . . الحزب الحاكم. . . إدارة الاقتصاد من فوق. . . كل الأشياء التي كانت في تناقض مع مفهوم تحرري للديمقراطية السوڤياتية.

كتب «الدولة والثورة» عشية تمرد أكتوبر ويعكس تقابل أضداد تفكير

لينين. كتبت بعض الصفحات بتحررية كما رأينا أعلاه[1] ويعطي بعض الفضل على الأقل إلى اللاسلطويين. مهما يكن، هذه الدعوة لثورة من القاعدة تسير موازية لعبارة قضية الثورة من فوق. مفاهيم عن نظام دولة هرمية ومركزية ليست نصف مخفية لكي تخطر على الذهن لاحقاً، وإنما على العكس تم التعبير عنها بصراحة: ستحافظ الدولة على انتزاع السلطة من قبل البروليتاريا وستذوي بعد فترة انتقالية وحسب. كم تستغرق فترة التطهّر هذه؟ لم تكن هذه مخفية: قيل لنا بارتياح عما يأسف إن العملية ستكون «بطيئة» «ولأمد طويل» وتحت غطاء سلطة السوڤياتات ستنجب الثورة «دولة البروليتاريا» أو «ديكتاتورية البروليتاريا» حتى إن الكاتب يدع عبارة «الدولة البرجوازية بدون برجوازية» تفلت منه عندما يكشف بالضبط عن أفكاره المطمورة جداً. هذه الدولة النهمة تتعمد بالتأكيد السيطرة على كل شيء.

أخذ لينين درساً من رأسمالية الدولة الألمانية المعاصرة «كريجسور تسجافت ـ اقتصاد الحرب» وكان أحد نماذجه الأخرى تنظيم الصناعة الواسعة الحديثة بواسطة الرأسمالية «وانضباطها الحديدي» وكان مشدوهاً على الأخص باحتكار الدولة كما في البريد والبرق وهتف «أية ميكانيكية كاملة مثيرة للإعجاب إن تنظيم الحياة الاقتصادية بكاملها مثل الخدمات البريدية... تلك هي الدولة، تلك هي القاعدة الاقتصادية التي نحتاج إليها» البحث عن العمل بدون «سلطة» «وخضوع» هو «حلم لاسلطوي» وانتابته ذات مرة نوبة حماس لفكرة إيداع الإنتاج والمبادلة إلى تعاونيات العمال وإلى التسيير الذاتي، ولكن كان ذلك مجرد خطأ في توزيع أوراق اللعب. وهو لا يخفي الآن وصفته السحرية: كل المواطنين يصبحون «مستخدمين وعمالاً لتروست دولة عامة وواحدة» ويتحول الجميع بكامله إلى «دائرة كبيرة واحدة ومصنع كبير واحد» ستوجد هناك سوڤياتات بالتأكيد ولكن تحت سيطرة حزب العمال، حزب مهمته التاريخية «توجيه» البروليتاريا.

---

(1) انظر صفحة (109).

لم ينخدع اللاسلطويون الروس الأكثر صفاء في الرأي بوجهة النظر هذه وفي ذروة الحقبة التحررية للينين كانوا يحذرون العمال بالضبط بأن يبقوا على يقظتهم، وفي صحيفتهم كولوس ترودا (صوت العمال) كتب فولاين في الشهور الأخيرة من 1917 وأوائل 1918 التحذير النبوئي التالي «دفعة واحدة وحَّد البلاشفة وقننوا قوتهم وهم اشتراكيون وسياسيون ومؤمنون بالدولة كما يقال، مركزيون ورجال فعل سلطويون وسيبدأون بتدبير حياة الشعب والبلاد بوسائل حكومية ودكتاتورية مفروضة من المركز. . . سوڤياتاتكم. . . سوف تصبح تدريجاً ببساطة أجهزة تنفيذية لإرادة الحكومة المركزية. . . وستقام أجهزة دولة سياسية وسلطوية تعمل من فوق مبتغية سحق كل شيء بقبضتها الحديدية. . . سيصيب الويل كل من ليس على وفاق مع السلطة المركزية» «وفي النتيجة ستصبح كل السلطات للسوڤياتات سلطة قادة الحزب».

كان من رأي فولاين أن النزعات اللاسلطوية المتزايدة للجماهير هي التي أجبرت لينين على التحول عن طريقه الأصلي لفترة، فهوسيسمح للدولة، السلطة، الدكتاتورية بالبقاء لوهلة فحسب، للحظة قصيرة وبعدها ستأتي «اللاسلطوية» لكن أيها الإله الطيب ألم تتنبأ ماذا سيقول المواطن لينين عندما تتركز السلطة الحقيقية ولن يعود ممكناً الاستماع أكثر إلى صوت الجماهير؟» ومن ثم يعود إلى الوراء، إلى الطريق المألوف إنه سيخلق «دولة ماركسية» من الطراز الأكثر اكتمالاً.

سيكون من المجازفة بالطبع التأكيد بأن لينين وفريقه نصبوا عن وعي مصيدة للجماهير، فقد كانت فيهم ثنائية عقائدية أكثر من ازدواجية متعمدة، وكان التناقض بين قطبي تفكيرهم واضحاً وفاضحاً تماماً لحد أنه كان ينبىء مسبقاً بأنه سيصطدم عاجلاً بالأحداث ولن يجبر الاتجاه اللاسلطوي وضغط الجماهير البلاشفة على تناسي السمة السلطوية لمفاهيمهم ولا على العكس يقود تصلب قوتهم متوافقاً مع إنهاك الفورة الثورية للشعب إياهم إلى وضع أفكارهم اللاسلطوية العابرة جانباً.

ثم أخلّ ظهور عامل جديد بتوازن المواضيع المبحوثة: الظروف المزعجة للحرب الأهلية والتدخل الأجنبي، عدم تنظيم النقل نقص الفنيين ودفعت هذه الأمور قادة البلاشفة إلى إجراءات اضطرارية، إلى الدكتاتورية، المركزية واللجوء إلى «القبضة الحديدية» على كل حال، أنكر اللاسلطويون إن كانت هذه ببساطة نتيجة أسباب موضوعية خارجية بالنسبة للثورة، في رأيهم إنها كانت عائدة في جزء منها إلى المنطق الداخلي للأفكار السلطوية للبلشفية وإلى ضعف سلطة مفرطة في البيروقراطية ومركزية فوق العادة. تبعاً لفولاين كان عدم كفاءة الدولة ورغبتها في التوجيه والسيطرة على كل شيء بين أمور أخرى هو ما جعلها غير قادرة على إعادة تنظيم الحياة الاقتصادية للبلاد وأدى إلى «انهيار» حقيقي. ذلك هو شلل الصناعة، خراب الزراعة ودمار كل الصلات ما بين مختلف فروع الاقتصاد.

وكمثال روى فولاين قصة مصفى نفط نوبل السابق في بتروجراد. كان قد هجر من قبل مالكيه وصمم عماله الأربعة آلاف على تشغيله جماعياً، وخاطبوا الحكومة البلشفية عبثاً ثم حاولوا تشغيل المعمل حسب مبادرتهم: وزعوا أنفسهم في مجاميع متنقلة، حاولوا العثور على وقود ومواد أولية ومنافذ ووسائط نقل، ولحساب الأخيرة بدأوا فعلاً بالتداول مع رفاقهم بين رجال السكك الحديد. غضبت الحكومة شاعرة أن مسؤوليتها تجاه البلاد تمنعها من السماح لكل مصنع بالعمل على وجه الاستقلال. أصرّ مجلس العمال ودعا إلى اجتماع عام للعمال، وتناول مفوض الشعب للعمل المشكلة بإعطاء تحذير شخصي إلى العمال من أي «عمل جدي للعصيان» وانتقد موقفهم بشدة «كلاسلطوي وأناني» وهددهم بالطرد بدون تعويض. رد العمال بأنهم لا يطلبون أي امتياز ويجب أن تدع الحكومة العمال والفلاحين في جميع أرجاء البلاد ليعملوا بنفس الطريقة. كان كل ذلك عبثاً وتمسكت الحكومة بوجهة نظرها بشدة وأُغلق المعمل.

تؤكد إحدى الشيوعيات تحليل فولاين، الكسندرا كولنتاي في سنة 1921 اشتكت من أن نماذج كثيرة من مبادرات العمال انتهت إلى كارثة في وسط أعمال ورقية لا نهاية لا ومناقشات إدارية لا مجدية «كم من ألم ممضّ هناك في وسط العمال. . . عندما يرون ما كانوا يقدرون على إنجازه فيما لو منحوا الحق والحرية في العمل. . . المبادرة والرغبة في الفعل تضعف وتموت».

في الحقيقة دامت سلطة السوڤياتات بضعة شهور فقط، من تشرين الأول 1917 إلى ربيع 1918 وسريعاً جداً انتزع من مجالس العمال سلطتها بحجة أن التسيير الذاتي لم يأخذ بالحسبان الاحتياجات «العقلانية» للاقتصاد، ذلك أنه انغمس في أنانية التنافس ما بين المشروع الواحد والآخر، جشعه في طلب الموارد النادرة والرغبة في البقاء بأي ثمن حتى ولو كانت المصالح الأخرى أكثر أهمية «للدولة» ومجهزة بشكل أفضل. وبإيجاز تبعاً لأنا بانكراتوڤا كان الموقف يتحرك لمحو تشتت الاقتصاد في فدراليات «منتجين مدارة ـ ذاتياً من النوع الذي حلم به اللاسلطويين «لا شك أن التسيير الذاتي المتنامي للعمال لم يكن فوق اللوم، لقد حاول بألم وتردد خلق أشكال جديدة من الإنتاج لا سابقة لها في تاريخ العالم. إن ارتكب أخطاءً بالتأكيد واتخذ انعطافات خاطئة. كان ذلك ثمن المران. وكما دافعت الكساندرا كولونتاي لا تستطيع الشيوعية أن تولد «إلا بواسطة عملية بحث تطبيقي، ربما مع أخطاء، ولكن مبتدئة من القوى الخلاقة للطبقة العاملة نفسها».

لم يحمل قادة الحزب هذا الرأي. كانو مسرورين جداً فقط من استرجاع السلطة من لجان المصانع الذين لم يكونوا في أعمق أعماق قلوبهم سعداء في التخلي عنها. مبكراً في سنة 1918 صرح لينين بتفضيله «الإرادة المنفردة» في إدارة المشاريع، وعلى العمال أن يطيعوا «بدون قيد وشرط» الإرادة الوحيدة لمدراء تسيير العمل. كل قادة البلاشفة، تقول لنا كولونتاي كانوا «شكوكيين بشأن القدرات الخلاقة لجماعيات العمال» أكثر من ذلك غُزيت الإدارة بواسطة أعداد واسعة من البرجوازيين الصغار الذي خلفتهم رأسمالية روسيا القديمة ممن

حولوا أنفسهم جميعاً بسرعة شديدة إلى مؤسسات من طراز السوفيات ووضعوا أنفسهم في مراكز المسؤولية في المفوضيات المختلفة مصرّين على أن الإدارة الاقتصادية يجب أن تودع إليه وليس إلى تنظيمات العمال.

لعبت بيروقراطية الدولة دوراً متزايداً في الاقتصاد. من 5 كانون الأول 1917 فصاعداً وضعت الصناعة تحت إدارة المجلس الاقتصادي الأعلى مسؤولاً عن التنسيق السلطوي لفعالية كل أجهزة الإنتاج، ومن 26 أيار إلى 4 حزيران 1918 انعقد مؤتمر المجالس الاقتصادية وقرر أنه يجب أن تتألف إدارة كل مشروع من أعضاء يُعيّن ثلثاهم من قبل المجالس الإقليمية للمجلس الاقتصادي الأعلى وينتخب الثلث فقط من قبل العمال في المواقع. وسع مرسوم 28 أيار 1918 الجماعية إلى الصناعة ككل، ولكن لنفس السبب قلب التشريك العفوي للأشهر الأولى من الثورة إلى تأميم. جُعل المجلس الاقتصادي الأعلى مسؤولاً عن إدارة الصناعات المؤممة وبقي المدراء الكوادر الفنية في مراكزهم باعتبارهم معينين من قبل الدولة. في المؤتمر الثاني للمجلس الاقتصادي الأعلى في نهاية 1918 هزمت مجالس المصانع تقريباً من قبل مقرر اللجنة في محاولة لإدارة المصانع بدلاً من مجلس المدراء.

ومن أجل سلامة الظاهرة استمرت انتخابات لجان المصانع لتأخذ مكانها إلا أن عدداً من الخلايا الشيوعية أخرجت قائمة أسماء مرشحين معدة مسبقاً، وكان التصويت برفع الأيدي في حضور «الحرس الشيوعي» المسلح للمشروع، وأصبح كل من أعلن معارضته للمرشحين المقترحين موضع عقوبة اقتصادية (تخفيض الأجور الخ) وكما أفاده بيتر آرتشينوف بقي هناك سيد وحيد كلي السلطة هو ـ الدولة، وأصبحت العلاقات بين العمال وهذا السيد الجديد شبيهة بتلك التي كانت قائمة من قبل بين العمال والرأسمال.

أصبحت وظائف السوفياتات اسمية بحتة. تحولت إلى مؤسسات لسلطة الحكومة وقال لينين لمؤتمر مجالس المصانع في 27 حزيران 1918 «يجب أن

تصبحوا خلايا أساسية للدولة» وكما عبر عنه فولاين فإنها تقلصت إلى دور «أجهزة إدارية وتنفيذية بحتة مسؤولة عن قضايا صغيرة، محلية غير ذات أهمية وخاضعة كلية لتوجيهات من السلطة المركزية: الحكومة والأجهزة القيادية للحزب» ولم يعد لها «حتى ظلال السلطة» وفي مؤتمر نقابات العمال الثالث (نيسان 1920) اعترف مقرر اللجنة لوزوفوسكي «لقد نبذنا الأساليب القديمة لرقابة العمال واحتفظنا فقط بقاعدة رقابة الدولة» من الآن فصاعداً ستطبق هذه «الرقابة» بواسطة جهاز للدولة: مفتشية العمال والفلاحين.

ساعدت الفدراليات الصناعية التي كانت مركزية في بنائها البلاشفة في المحل الأول في امتصاص وإخضاع مجالس المصانع التي كانت فدرالية وتحررية في طبيعتها في 1 نيسان 1918 أصبح الالتحام بين طرازي التنظيم حقيقة منتهية. منذ ذلك الحين فصاعداً لعبت نقابات العمال دوراً تبعياً تحت إشراف الحزب منع اتحاد العمال في الصناعات المعدنية الثقيلة في بيتروغراد «المبادرات التمزيقية» لمجالس المصانع وعارض اتجاهها «الأكثر خطورة» لوضع هذا المشروع أو ذاك في أيدي العمال. هذا ما قيل إنه أسوأ طريقة لتقليد تعاونيات الإنتاج «الفكرة التي أفلست منذ زمن طويل» والتي سوف لن «تكف عن تحويل نفسها إلى مشاريع رأسمالية» «أي مشروع هُجر أو خرِّب من قبل صاحب مصنع وكان إنتاجه ضرورياً للاقتصاد الوطني سيوضع تحت سيطرة الدولة» «ولم يكن مسموحاً» تولي العمال لمشاريع كهذه بدون موافقة منظمة نقابة العمال.

وبعد عملية السيطرة الأولية هذه أصبحت نقابات العمال بدورها مدجَّنة خالية من أي استقلال ذاتي، مطهّرة؛ مؤتمراتها مؤجلة، أعضاؤها معتقلون، حُلّت منظماتها أو أُدمجت في وحدات أكبر، في نهاية هذه العملية كُنست أية نزعة سندكالية ـ لاسلطوية خارجاً، وأُخضعت حركة نقابات العمال بكاملها للدولة وللحزب الواحد.

وحصل نفس الشيء مع تعاونيات المستهلكين. وقد قامت في المراحل الأولى للثورة في كل مكان وازدادت عدداً واتحد بعضها مع الآخر وكان ذنبها على كل حال أنها كانت خارج سيطرة الحزب، وتسرب عدد محدود من الديمقراطيين الاجتماعيين (المناشفة) إليها. في الأول حرمت المخازن المحلية من تجهيزاتها ووسائط النقل بحجة أنها «تجارة خاصة» وتقوم «بالمضاربة» وحتى بدون أية حجة على الإطلاق. ثم أغلقت كل التعاونيات الحرة بضربة واحدة وأنشأت تعاونيات الدولة بصورة بيروقراطية محلها. أذاب مرسوم 20 آذار 1919 تعاونيات المستهلكين في مفوضية المواد الغذائية وتعاونيات المنتجين الصناعيين في المجلس الاقتصادي الأعلى. وأُلقي بعدد من أعضاء التعاونيات في السجون.

لم يصدر رد فعل سريع أو قوي كاف من الطبقة العاملة. كانت مشتتة ومعزولة بصورة هائلة، متخلفة وبالنسبة لأكثر أنحاء المناطق الريفية منهكة من الفاقة والصراع الثوري، والأسوأ حتى الآن مرتبكة. أخيراً غادر خيرة أعضائها إلى جبهات الحرب الأهلية أو ذابوا في الحزب وأجهزة الحكومة. وبرغم ذلك شعر عدد من العمال أنفسهم تماماً بأنهم حرموا تقريباً من ثمار انتصاراتهم الثورية، وانتزعت منهم حقوقهم، وأُخضعوا للوصاية، وأذلّوا بواسطة غطرسة وتحكم السادة الجدد. وأصبح هؤلاء مدركين للطبيعة الحقيقية «لدولة البروليتاريا» المزعومة. وهكذا انتخب العمال المستاؤون في مصانع موسكو وبيرتوغراد مندوبين من بينهم إبّان صيف 1918 محاولين بهذه الطريقة وضع «مجالس المندوبين» الأصيلة مقابل سوفياتات المشاريع المستولى عليها من قبل السلطة عنوة وتوّاً. تقدم كولانتاي شهادة بأن العامل شعر بالمرارة وأدرك أنه دُفع جانباً. استطاع مقارنة أسلوب حياة منتسبي السوفياتات بالطريقة التي يعيش بها هو الذي تأسست عليه «دكتاتورية البروليتاريا» نظرياً على الأقل.

كان الوقت الذي رأى فيه العمال حقاً النور متأخراً جداً، وامتلكت السلطة

الوقت لتنظيم نفسها بصلابة ولها تحت تصرفها قوى قمع قادرة تماماً على تحطيم أية محاولة تحرك ذاتي من جانب الجماهير. تبعاً لفولاين استغرق صراع قاس ولكن غير متكافىء القوى نحو ثلاث سنوات وكان مجهولاً كلياً خارج روسيا. في هذا قاومت طليعة للطبقة العاملة جهاز دولة مصممة على إنكار الانقسام الذي نما بينها وبين الجماهير. من 1919 ـ 1921 زادت الإضرابات في المدن الكبيرة، في بيتروغراد خاصة وحتى في موسكو وقمعت بقسوة كما سنرى المزيد فيما بعد.

ارتفعت ضمن الحزب القائد نفسه «معارضة» عمالية طالبت بالعودة إلى ديمقراطية السوڤياتات والتسيير الذاتي. في مؤتمر الحزب العاشر في آذار 1921 وزعت إحدى الناطقات باسمه الكساندرا كولانتاي كراسة تطالب بحرية مبادرة وتنظيم لنقابات العمال «وبمؤتمر منتجين» لانتخاب جهاز إداري مركزي للاقتصاد الوطني. صودرت الكراسة ومُنعت. حث لينين تقريباً المؤتمر بكامله على التصويت لقرار يطابق طروحات «المعارضة العمالية» مع «الانحرافات البرجوازية الصغيرة واللاسلطوية» كانت «سندكالية» وشبه لاسلطوية «المعارضين» «خطراً مباشراً» بنظره على احتكار السلطة المطبق من قبل الحزب باسم البروليتاريا. وحُرم من الآن فصاعداً كل معارضة داخل الحزب وفُتح الطريق أمام «التوتاليتالزم» كما اعترف به من قبل تروتسكي بعد سنوات.

استمر الصراع داخل القيادة المركزية لنقابات العمال. أُبعد تومسكي وربازانوف من الرئاسة وأُرسلا إلى المنفى لأنهما وقفا بجانب نقابات عمال مستقلة عن الحزب، ولقي قائد المعارضة العمالية شليابنكوف نفس المصير وسرعان ما أعقبه المحرك الرئيسي لمجموعة معارضة أخرى: جي آي مياسنكوف، عامل أصيل حكم بالموت على الدوق الأعظم ميشيل في 1917 وكان عضواً في الحزب لخمس عشرة سنة قبل الثورة، قضى أكثر من سبع سنوات في السجن وخمسة وسبعين يوماً في إضراب عن الطعام. في تشرين

الثاني 1921 تجرأ على التصريح في كراسة بأن العمال فقدوا ثقتهم بالشيوعيين لأنه لم يعد للحزب لغة مشتركة مع الكوادر المتفرغة ويستعمل الآن ضد الطبقة العاملة الإجراءات القمعية التي أدخل استعمالها ضد البرجوازيين ما بين 1918 و1920.

3 ـ الدور المؤدى من قبل اللااسلطويين.

أي دور لعب اللااسلطويون الروس في هذه المسرحية حيث تحولت ثورة ذات أسلوب تحرري إلى ضدها؟ لم يكن لروسيا تقاليد تحررية وإنما هي كانت في البلاد الأجنبية حيث صار باكونين وكروبتكن لاسلطويين، لم يلعب واحد منهما دوراً لاسلطوياً نضالياً داخل روسيا في أي وقت كان وإلى حين ثورة 1917 ظهرت بضع نسخ من مقتطفات قصيرة فقط من كتاباتهما في روسيا بصورة سرية وبصعوبة بالغة. لم يكن هناك شيء لاسلطويّ في التربية الاجتماعية والاشتراكية والثورية للروس، على العكس، كما قال لنا فولاين «كان الشباب الروسي التقدمي يقرأ الأدبيات التي تقدم الاشتراكية دوماً بشكل دولتي» وتشبعت أذهان أبناء الشعب بأفكار الحكوماتية التي لوثتها الديمقراطية الاجتماعية الألمانية.

كان اللااسلطويين «حفنة صغيرة جداً من رجال بدون نفوذ» وفي أفضل الأحوال بضعة آلاف. أفاد فولاين أن حركتهم كانت ما تزال أصغر جداً من أن يكون لها أي تأثير آني قوي في الأحداث» فضلاً عن أن غالبيتهم كانوا مثقفين فرديي ـ النزعة. لم ينخرطوا كثيراً في حركة الطبقة العاملة. كان فولاين استثناء، كما كان نسطور ماخنو الذي استطاع من تحريك مشاعر الجماهير في بلاده أوكرانيا. في ذكريات ماخنو أنه تجاوز الحكم القاسي بأن «اللااسلطوية الروسية سارت خلف الأحداث أو حتى عملت بالكامل خارجها».

على كل حال، يبدو هذا الحكم أقل عدالة. لعب اللااسلطويون دوراً بعيداً عن السلبية في الأحداث ما بين ثورتي شباط وأكتوبر. اعترف تروتسكي بهذا

أكثر من مرة في كتابه «تاريخ الثورة الروسية» «شجعان ونشيطون» ولو قليلين في العدد. كانوا معارضين مبدئيين في الجمعية التأسيسية في وقت لم يكن البلاشفة قد تحولوا بعد إلى معادين للنزعة البرلمانية. أطلقوا شعار «كل السلطات للسوفياتات» قبل أن يفعل حزب لينين ذلك طويلاً. وأحدثوا حركة للتشريك العفوي للسكن ضد إرادة البلاشفة غالباً. لعب الناشطون السندكاليون اللاسلطويون دوراً في حث العمال على الاستيلاء على المعامل حتى قبل أكتوبر.

كان اللاسلطويون إبّان الأيام الثورية التي وضعت نهاية لجمهورية كيرنسكي البرجوازية في طليعة النضال العسكري، خاصة في فوج دفسك بقيادة التحرريين القدامى مثل كراتشوف وفيدوتوف طردت هذه القوة «الكاديت» المعادين للثورة بمساعدة من كتيبته حل اللاسلطوي جيلزنياكوف الجمعية التأسيسية، وصادق البلاشفة على الواقعة المنجزة فحسب. تشكل العديد من كتائب المحاربين أو قادها اللاسلطويون (موكرويسوف، جيرنياك وآخرون) وحاربوا بلا انقطاع جيوش البيض ما بين 1918 ـ 1920.

نادراً ما كانت مدينة كبيرة بدون مجموعة لاسلطوية أو نقابية ـ لاسلطوية ناشرة كمية كبيرة نسبياً من مواد مطبوعة: صحف، دوريات، أوراق تعريف، كراسات وكتب. كانت هناك اسبوعيتان في بيتروغراد ويومية في موسكو، تظهر كل واحدة بـ (25.000) نسخة وازداد عدد المتعاطفين اللاسلطويين كلما تعمقت الثورة ثم ابتعدوا عن الجماهير. كتب النقيب الفرنسي جاكو سادول، في بعثة إلى روسيا، في تقرير مؤرخ في 6 نيسان 1918 «إن مجموعة اللاسلطوية هي الأكثر نشاطاً والأكثر نضالاً من بين المجموعات المعارضة، ومن المحتمل الأكثر شعبية... البلاشفة قلقون» في نهاية 1918 تبعاً لفولاين «أصبح هذا النفوذ من القوة بحيث إن البلاشفة الذين لا يتقبلون نقداً ولا زالوا أقل معارضة صاروا منزعجين جدياً» يفيد فولاين أنه بالنسبة للسلطات البلشفية

«كان يساوي. . . الانتحار أن يتسامحوا مع الدعاية اللاسلطوية. لقد عملوا جهدهم أولاً لإعاقة ومن ثم لمنع أي إعلان عن الأفكار التحررية وأخيراً قمعها بقوة وحشية».

بدأت الحكومة البلشفية «بغلق مكاتب التنظيمات التحررية بالقوة ومنع اللاسلطويين من المساهمة في أية دعاية أو نشاط» في موسكو ليلة 12 نيسان 1918 استولت كتائب الحراس الحمر المسلحة حتى الأسنان بفزع على خمسة عشر داراً يشغلها اللاسلطويون. ردَّ الأخيرون بإطلاق النار اعتقاداً منهم أنهم هوجموا من قبل الحراس البيض. وتبعاً لفولاين سرعان ما استمرت السلطات «في إجراءات أشد عنفاً: سجن، مطاردة وإعدام» «أبقى هذا الصدام السلطات البلشفية في حالة استنفار لأربع سنوات. . . إلى أن سُحق الاتجاه التحرري نهائياً بواسطة إجراءات عسكرية في نهاية 1921».

كانت تصفية اللاسلطويين الأكثر سهولة منذ أن انقسموا إلى عصبتين رفضت إحداهما أن تُدجَّن بينما سمحت الأخرى لنفسها بأن تُروَّض. اعتبرت الأخيرة «الضرورة التاريخية» كتبرير لاتخاذ موقف ولاء للنظام وعلى الأقل مؤقتاً، والموافقة على أنشطته الدكتاتورية واعتبرت نهاية منتصرة للحرب الأهلية وسحق الثورة المضادة هي الضرورات الأولى.

اعتبر اللاسلطويون الأكثر تصلباً هذا كتكتيك قصير النظر لأن حركات الثورة المضادة كانت تُغذى بواسطة العجز البيروقراطي للأجهزة الحكومية ومن خيبة أمل واستياء الشعب إضافة إلى أن السلطات تقيدت بعدم وضع فارق بين الجناح الفعال للثورة التحررية الذي كان يناقش أساليبها في الرقابة وبين الفعاليات الإجرامية لخصومها في الجناح الأيمن. كان قبول الدكتاتورية والإرهاب سياسة انتحارية بالنسبة للاسلطويين الذين كانوا هم أنفسهم سيصبحون ضحاياها. وأخيراً فإن الحوار مع من يسمون باللاسلطويين السوفيات جعل سحق هؤلاء الآخرين العنيدين أكثر سهولة، لأنهم عوملوا

كلاسلطويين «مزيفين» وغير مسؤولين، حالمين غير واقعيين ومشوشي أذهان أغبياء، مجانين، زارعي شقاق وأخيراً قطاع طرق للثورة المضادة.

كان فكتور سيرج أكثرهم تألقاً وعليه اعتبر الأكثر رسمية بين اللاسلطويين المنحرفين. عمل من أجل النظام ونشر كراسة بالفرنسية تحاول الدفاع عنه ضد النقد اللاسلطوي. والكتاب الذي كتبه فيما بعد «عن الثورة الروسية» هو على الأكثر تبرير لتصفية السوڤياتات من قبل البلاشفة، وقدم الحزب ـ أو بالأحرى نخبته القائدة كأدمغة للطبقة العاملة، ويعود للقائد المختار في أوانه للطليعة اكتشاف ما تستطيع وما يجب أن تعمله البروليتاريا، وبدونهم لن تكون الجماهير المنتظمة في سوڤياتات أكثر من «رجال متناثرين مع طموحات مشوشة تنطلق من جانب إلى آخر مع ومضات ذكاء».

كان فكتور سيرج بالتأكيد أوضح تفكيراً من أن تكون لديه أية أوهام عن الطبيعة الحقيقية للسلطة السوڤياتية المركزية، لكن هذه السلطة كانت لا تزال محاطة بهيبة أول ثورة بروليتارية منتصرة وكانت مكروهة من قبل ثورة العالم المضادة. كان ذلك أحد الأسباب ـ الأكثر تقديراً لما رآه سيرج وعدد آخر من الثوريين مناسباً لوضع قفل على أفواههم. في صيف 1921 جاء اللاسلطوي جاستون ليفال إلى موسكو ضمن الوفد الإسباني إلى المؤتمر الثالث للأُممية الشيوعية. أفضى إليه سيرج سراً أن «لم يعد الحزب الشيوعي يطلق دكتاتورية البروليتارية بل الدكتاتورية على البروليتاريا» وعائداً إلى فرنسا نشر ليفال مقالات في «التحرري» مستخدماً حقائق موثقة جيداً وعارضاً جنباً إلى جنب ما قال له فكتور سيرج سرّاً وتصريحاته العامة التي وصفها «بأكاذيب واعية» في «عائشة حياتي» لم تكن اللاسلطوية الأميركية الكبيرة ايما غولدمان أكثر رفقاً بفيكتور سيرج الذي رأته نشطاً في موسكو.

4 ــ الماخنوية:

لقد كان من السهل نسبياً تصفية النواة الصغيرة الضعيفة للاسلطويين في

المدن، لكن الأمور كانت مختلفة في أوكرانيا حيث أقام الفلاح نسطور ماخنو تنظيماً لاسلطوياً ريفياً قوياً - اقتصادياً وعسكرياً معاً. ولد ماخنو لفلاحين أوكرانيين فقيرين، وكان في العشرين من العمر في 1919 ورأى ثورة 1905 كطفل وصار لاسلطوياً فيما بعد. حكم عليه النظام القيصري بالموت، استبدل بالسجن لثمان سنوات قضى أكثرها في الحديد في سجن بوتوكي، المدرسة الوحيدة التي التحق بها في أي وقت، وملأ بعض الثغرات على الأقل في تعليمه بمساعدة سجين زميل - بيتر أرتشينوف.

اتخذ ماخنو المبادرة بعد ثورة أكتوبر مباشرةً في تنظيم جماهير الفلاحين في مقاطعة مدارة ذاتياً وذات مساحة دائرية تقريباً 480 × 400 ميل مع سبعة ملايين من السكان. تصل نهايتها الجنوبية إلى بحر آزوف عند ميناء برديانسك. كانت تتمركز في جوليا - بولي. . . مدينة كبيرة ذات 20.000 إلى 30.000 نسمة وكانت هذه مقاطعة متمردة عادة حيث شهدت قلاقل عنيفة سنة 1905.

بدأت القصة عندما فرضت الجيوش الألمانية والنمساوية المحتلة نظاماً يمينياً أسرع إلى إعادة الأراضي التي استولى عليها الفلاحون الثوريون إلى ملاكيها السابقين. أقام عمال الأراضي دفاعات مسلحة ضد غزاتهم الجدد. قاوموا الرجعية ولكن أيضاً التطفل في غير أوانه للقوميسيارين البلاشفة وأتاواتهم الباهظة، أُلهم هؤلاء الجاكواريون[1] ذوو العدد الهائل بـ «محب العدالة» - نوع من روبن هود اللاسلطوي يدعى من قبل الفلاحين «بالأب» ماخنو كان أول عمل بطولي مسلح له هو الاستيلاء على جوليا - بولي في منتصف أيلول 1918 وأدى وقف القتال في 11 تشرين الثاني على كل حال إلى انسحاب القوات الألمانية النمساوية المحتلة وأعطى ذلك لماخنو فرصة فريدة لإنشاء احتياطي من الأسلحة والتجهيزات.

---

(1) كان «الجاكواريون» الاسم المعطى للفلاحين الفرنسيين الذين تمردوا سنة 1358 (من جاكو وهو اسم التلطيف للفلاح الفرنسي) (ملاحظة المترجمة).

طبقت مبادىء الشيوعية التحررية لأول مرة في التاريخ في أوكرانيا المحرَّرة ونُفذ التسيير الذاتي إلى أبعد حد ممكن في ظروف الحرب الأهلية. اتحد الفلاحون في «كومونات» أو «سوڤياتات العمل الحر» وحرثوا الأرض بصورة جماعية من أجل ما قاتلوا الملاكين السابقين بسببه. احترمت هذه المجاميع مبادىء المساواة والأخوة وتعيَّن على كل رجل وامرأة أو طفل أن يعمل حسب طاقته أو طاقتها وانتخب رفاق لأداء مهام إدارية مؤقتة وعادوا بعدها إلى أعمالهم الاعتيادية جنباً إلى جنب الأعضاء الآخرين لكومونات.

كان كل سوڤيات ببساطة منفِّذاً لإرادة الفلاحين في المنطقة التي انتخب فيها. اتحدت وحدات الإنتاج داخل المناطق والمناطق داخل الإقاليم. كانت السوڤياتات مرتبطة بنظام اقتصادي عام قائم على مساواة اجتماعية ومستقلة عن كل حزب سياسي. لم يكن السياسي يفرض إرادته عليها تحت غطاء سلطة السوڤياتات. يتعين على الأعضاء أن يكونوا عمالاً أصلاء في خدمة الجماهير العاملة.

كلما انتقل الأنصار الماخنويون إلى منطقة رفعوا ملصقات تقرأ «حرية العمال والفلاحين لهم وحدهم ولا تخضع لأية قيود. يعود للعمال والفلاحين أنفسهم أن يعملوا، ينظموا ذواتهم، يتفقوا فيما بينهم في كل جوانب حياتهم فيما يرون هم أنفسهم ملائماً ومرغوباً. . . لا يستطيع الماخنويون أن يفعلوا أكثر من تقديم المساعدة والاستشارة. . . لا يستطيعون في أية ظروف ولا أنهم يرغبون في أن يحكموا».

عندما أُحضر رجال ماخنو في سنة 1920 للتحاور مع البلاشفة تصرفوا هكذا كنظراء لهم، وعقدوا اتفاقية معهم لم تدم طويلاً، حيث أصرُّوا على إضافة الملحق التالي إليها «في المنطقة التي يعمل فيها الجيش الماخنوي يقيم السكان العمال والفلاحون مؤسساتهم الحرة الخاصة بهم للإدارة الذاتية الاقتصادية والسياسية يجب أن تكون هذه المؤسسات مستقلة ذاتياً وترتبط

فدرالياً وبموجب اتفاقيات بالأجهزة الحاكمة للجمهوريات السوفياتية» تردد المتحاورون البلاشفة وفصلوا الملحق عن الاتفاقية لكي يحيلوه إلى موسكو حيث اعْتُبِرَ بالطبع «غير مسموحٍ به على الإطلاق».

كان أحد جوانب الضعف النسبية للحركة الماخنوية افتقارها إلى مثقفين تحرريين، إلا أنها تسلمت بعض العون المتقطع من الخارج وجاء هذا أولاً من خاركوف وكورسك حيث شكل لاسلطويون متأثرون بفولاين في سنة 1918 اتحاداً دُعي نابات (الناقوس) في سنة 1919 عقدوا مؤتمراً أعلنوا فيه أنفسهم «تصنيفاً وتحديداً معارضين لأي شكل من أشكال المساهمة في السوفياتات التي تصبح كيانات سياسية بحتة ومنظمة على أسس دولتية مركزية وسلطوية» اعتبرت الحكومة البلشفية هذا التصريح كإعلان حرب وأجبر نابات على التخلي عن كل نشاطاته فيما بعد. في تموز نفذ فولاين إلى المقر الرئيسي لماخنو ومنضماً مع بيتر آرتشينوف للعناية بالجانب الثقافي والتعليمي للحركة، ترأس المؤتمر المنعقد في تشرين الأول في الكساندروفسك حيث تم تبنى «الأطروحات العامة» المعلنة لنظرية «السوفياتات الحرة».

ساهم مندوبو الفلاحين والأنصار في هذه المؤتمرات، وفي الحقيقة كان التنظيم المدني امتداداً لجيش فلاحين متمرد يطبق تاكتيكات حرب العصابات. كان هذا الجيش متنقلاً بصورة ملحوظة ومغطياً لحوالي ميل في اليوم ليس بفرسانه وحدهم وإنما أيضاً بمشاته المتنقلة بعربات خفيفة ذات نوابض تجرها الخيول. نُظم هذا الجيش على أسس طوعية تحررية بالتحديد. طُبق المبدأ الانتخابي على كافة المستويات، وتتم الموافقة على قواعد الانضباط بحرية، وتُرسم الأخيرة بواسطة مبعوثي الأنصار ثم تُقرّ في اجتماعات عامة وتلاحظ بشدة من قبل الجميع.

خلق التصويب الجيد متاعب كثيرة للجيوش البيضاء المعتدية. لم تكن وحدات الحراس الحمر البلاشفة كثيرة الفعالية من جانبها. قاتلت على امتداد

السكك الحديدية فحسب، ولم تبتعد قط عن قطاراتها المدرعة حيث تنسحب إليها عند أول تراجع، وأحياناً بدون أن تضع فيها كل مقاتليها هي. لم يمنح هذا ثقة كبيرة للفلاحين الذين كانوا قليلي التسليح ومعزولين في قراهم، وهكذا كانوا تحت رحمة المعادين للثورة. كتب أرتشينوف مؤرخ الماخنوية «يعود شرف تدمير الثورة المضادة لدانكن في خريف 1919 جوهرياً إلى المتمردين اللاسلطويين».

لكن بعد امتصاص الجيش الأحمر لوحدات الحراس الأحمر أصرَّ ماخنو على رفض وضع جيشه تحت إمرة القيادة العامة لقائد الجيش الأحمر تروتسكي. لذا آمن ذلك الثوري الكبير بضرورة الانقلاب على حركة التمرد. في 4 حزيران 1919 حرّر أمراً يمنع فيه المؤتمرات الماخنوية المقبلة متهماً إياها بالوقوف ضد السلطة السوڤياتية في أوكرانيا. وصمم المساهمة في المؤتمرات كفعل من أفعال «الخيانة العظمى» ودعا إلى اعتقال المندوبين وامتنع عن إعطاء أسلحة لأنصار ماخنو متوقفاً عن أداء واجبه في مساعدتهم واتهمهم لاحقاً «بالتضليل» وبالسماح لأنفسهم بأن يضربوا من قبل قوات البيض. اتبع نفس الإجراء بعد ثماني عشرة سنة من قبل الستالينيين الإسبان ضد ألوية اللاسلطويين.

على كل حال، توصل الجيشان إلى اتفاق مرة أخرى في مناسبتين عندما دعاهما الخطر الداهم الناجم من المتدخلين للعمل معاً. حصلت الأولى في آذار 1919 ضد دانكن والثانية إبّان صيف وخريف 1920 تجاه تهديدات قوات ورانجل البيضاء التي دُمرت أخيراً من قبل ماخنو، ولكن حالما انقضى الخطر الأعظم عاد الجيش الأحمر إلى العمليات العسكرية ضد أنصار ماخنو الذي ردّ هجوماً بهجوم.

في نهاية تشرين الثاني 1920 ذهب هؤلاء الذين في السلطة بعيداً لإعداد كمين. دعا البلاشفة ضباط الجيش الماخنوي الكريمي للمشاركة في مجلس

عسكري واعتقلوا هناك فوراً بواسطة التشايكا ـ الشرطة السياسية ـ وأُطلقت النار عليهم، في وقت جُرِّد فيه أنصارهم من السلاح، وفي نفس الوقت أيضاً تقدم هجوم منظم على جوليا ـ بولي. استمر الصراع غير المتكافىء يتزايد بين التحرريين والسلطويين لتسعة أشهر أخرى، وفي النهاية على كل حال قُهروا بواسطة القوات الأكثر عدداً والأفضل عُدَّة، وكان على ماخنو أن يوقف الصراع، وعمل على اللجوء إلى رومانيا في آب 1921 ووصل فيما بعد إلى باريس حيث توفي بعد معاناة كبيرة من المرض والفاقة. كانت هذه نهاية القصة الملحمية للماخنوية. تبعاً لبيتر أرتشينوف كانت طرازاً أولياً لحركة مستقلة للجماهير العاملة ومن هنا مصدر إلهام المستقبل لعمال العالم.

5 ـ كرونشتادت:

في شباط وآذار 1921 دُفع عمال بيتروغراد وبحارة حصن كرونشتادت على العصيان، وكانت الطموحات التي ألهمتهم شبيهة جداً بتلك التي للفلاحين الثوريين الماخنويين.

أصبحت الظروف المادية لعمال المدن لا تطاق بسبب الافتقار للمواد الغذائية، الوقود ووسائط النقل. كان أي تعبير عن الاستياء يُسحق من قبل نظام توتاليتاري دكتاتوري باطراد. في نهاية شباط نشبت إضرابات في بيتروغراد، موسكو ومراكز صناعية كبيرة عديدة أخرى. طالب العمال بالخبز والحرية، وساروا من مصنع إلى آخر غالقين إياه، جاذبين مجاميع جديدة من العمال إلى مظاهراتهم. ردت السلطات بإطلاق النار وعمال بيتروغراد بدورهم باجتماع احتجاجي حضره 10.000 عامل. كانت كرونشتادت قاعدة بحرية لجزيرة تبعد ثمانية وأربعين ميلاً عن بيتروغراد في خليج فنلندا الذي كان يتجمد إبّان الشتاء. كانت مأهولة بالبحارة وعدة آلاف من العمال المستخدمين في مستودعات الأسلحة البحرية.

كان بحارة كرونشتادت في طليعة الأحداث الثورية لسنة 1905 و1917

وكما عبّر عنه تروتسكي كانوا «فخر وعز الثورة الروسية» شكل السكان المدنيون لكرونشتادت كومونة حرة مستقلة نسبياً عن السلطات. في مركز الحصن ساحة جماهيرية ضخمة تستخدم كمحل لاجتماعات عامة تسع حوالي 30.000 شخص.

في سنة 1921 لم يكن للبحارة بالتأكيد نفس البيئة الثورية ونفس الملاكات كما في سنة 1917 كانوا منحدرين من أصول فلاحية أكثر بكثير من أسلافهم، إلا أن الروح النضالية كانت باقية وكنتيجة لفعالياتهم المبكرة استعادوا حق القيام بدور فعال في اجتماعات العمال في بيتروغراد. عندما مضى عمال العاصمة السابقة إلى إضراب أرسلوا مبعوثين أعيدوا من قبل قوات النظام. خلال اجتماعين جماهيريين عقدا في الساحة الرئيسية رفعوا مطاليب المضربين وكأنها تعود إليهم. حضر ستة عشر ألف بحار وعامل وجندي الاجتماع الثاني المنعقد في 1 آذار كما وحضر رئيس الدولة كلينين رئيس الجهاز التنفيذي المركزي، وبرغم حضوره فإنهم أصدروا قراراً يطالب بدعوة عمال وجنود حمر وبحاري بيتروغراد وكرونشتادت وإقليم بيتروغراد معاً إلى مؤتمر مستقل عن الأحزاب السياسية خلال عشرة أيام القادمة، كما دعوا إلى إلغاء «الضباط السياسيين» منادين بوجوب ألا يكون لأي حزب سياسي أية امتيازات وحل الكتائب الصدامية الشيوعية في الجيش «والحراس الشيوعيين» في المصانع.

كان احتكار السلطة من قبل الحزب الحاكم هو ما يهاجمون في الحقيقة. تجرأ متمردو كرونشتادت على دعوة هذا الاحتكار «بالاغتصاب» دع البحارة الغاضبين يتحدثون بأنفسهم وكما نستخلص عبر صفحات الصحيفة الرسمية لهذه الكومونة الجديدة «إزفستيا» كورنشتادت. تبعاً لهم فذات مرة استولى الحزب الشيوعي على السلطة وهمُّه الوحيد الاحتفاظ بها بوسائل نظيفة أو قذرة.. إنه فقد الصلة مع الجماهير وبرهن على عدم قدرته على إبعاد البلاد من حالة الانهيار الشامل، إنه أصبح بيروقراطياً وفقد ثقة العمال. فقدت

السوفياتات سلطتها الحقيقية وأصبحت طفيلية، مغلوب على أمرها وموضع تلاعب. صارت نقابات العمال أدوات بيد الدولة. أَرهق جهاز شرطة رهيب كاهل الشعب منفذاً قوانينه بالنار واستخدام الإرهاب. لم تصبح الحياة الاقتصادية هي الاشتراكية الموعودة القائمة على العمل إنما رأسمالية دولة فظة والعمال ببساطة مكتسبي أجور في ظل هذا التروست الوطني مستغَلِّين ـ بفتح الغين ـ كما من قبل. ذهب رجال كورنشتادت الصريحون إلى أبعد ليعبروا عن الشك في عصمة القادة الكبار للثورة، فسخروا من تروتسكي وحتى من لينين بدون تردد. كانت مطالبهم الآنية إقرار كل الحريات والانتخابات الحرة لكل أجهزة الديمقراطية السوفياتية، إلا أنهم كانوا ينظرون من وراء ذلك إلى غلية أبعد كثيراً مع مضمون لاسلطوي واضح «ثورة ثالثة».

ابتغى المتمردون على كل حال البقاء ضمن إطار الثورة وتولي الحرص على إنجازات الثورة الاجتماعية. أعلنوا أن ليس لديهم ما يشتركون فيه مع من يتمنى «العودة إلى سياط القيصرية» ولو أنهم لا يخفون مقاصدهم في خلع الشيوعيين عن السلطة وهذا لن يكون لغرض «إعادة العمال والفلاحين إلى العبودية» فضلاً عن أنهم لم يعطوا كل إمكانيات التعاون مع النظام ولا زالوا يأملون «أن يكون ممكناً إيجاد لغة مشتركة» أخيراً لم تكن حرية التعبير التي كانوا يطالبون بها لكل فرد بالضبط وإنما فقط للمؤمنين المخلصين بالثورة: اللاسلطويين «واشتراكية اليسار» (صيغة تستبعد الديمقراطيين الاجتماعيين أو المناشفة).

كانت جرأة كونشتادت أكثر مما يقدر لينين أو تروتسكي على تحمّله. طابق القادة البلاشفة مرة وإلى الأبد الثورة مع الحزب الشيوعي وأي شيء سار ضد هذه الأسطورة يبدو في نظرهم «كثورة ـ مضادة» حتماً ورأوا أن الماركسية اللينينية السُنية ككل في خطر. أفزعتهم كرونشتادت أكثر ما داموا يحكمون باسم البروليتاريا وتقاوم سلطتهم فجأة بواسطة حركة عرفوا كونها بروليتارية

أصيلة. فضلاً عن حمل لينين للفكرة الساذجة بأن عودة القيصرية هي البديل الوحيد لدكتاتورية حزبه. ناقش بيان الكرملين في سنة 1921 المسألة شبيهاً بتلك الطريقة التي جرت فيما بعد طويلاً، في خريف 1956 كانت كرونشتادت نذيراً لبودابست.

تولى تروتسكي الرجل ذو «القبضة الحديدية» المسؤولية الشخصية للقمع وأذاع على «المتمردين» «إذا كنتم تصرّون فسوف تطلق عليكم النار وتسقطون من المخابىء كالحجول» وعومل البحارة «كحراس بيض» شركاء لقوات الغربيين المتدخلين «ولبورصة باريس». كان عليهم الخضوع بواسطة قوة السلاح. لقد كان عبثاً أن اللاسلطويين إيما غولدمان والكسندر بيركمان اللذين وجدا ملجأً في أرض وطن العوامل بعد أن أُبعدا من الولايات المتحدة أرسلا رسالة طلب عفو إلى زينوفيف مؤكدين أن استخدام القوة سيخلف أضراراً لا تعد ولا تحصى للثورة الاجتماعية» وناشدا «الرفاق البلاشفة» حل الصدام من خلال مباحثات أخوية. لم يستطع عمال بيتروغراد المجيء لمساعدة كرونشتادت لأنهم أُرهبوا فوراً وأُخضعوا للأحكام العرفية.

جُهزت قوة استثنائية مؤلفة من قطعات منتقاة بعناية لأن عدة جنود حمر كانوا غير راغبين في إطلاق النار على إخوتهم في الطبقة. وضعت هذه القوة تحت قيادة ضابط قيصري سابق، مارشال المستقبل توكاجيفسكي. بدأ قصف الحصن في 7 آذار وتحت شعار «دع العالم يعرف» تقدم السكان المحاصرون بطلب أخير «لتكن دماء الأبرياء في رقبة الشيوعيين، المجانين والمخمورين والمتيمين بالسلطة. لتحيا سلطة السوڤياتات» تحركت القوة المهاجمة عبر خليج فنلندا المتجمد في 18 آذار وقمعت «التمرد» في طقوس قتل.

لم يلعب اللاسلطويون دوراً في هذه القضية، على كل حال، دعت اللجنة الثورية لكرونشتادت تحرريين اثنين للانضمام إليها: ياركوف (مؤسس سوڤيات كرونشتادت سنة 1917) وفولاين عبثاً لأنهما كانا في ذلك الوقت مسجونين من

قبل البلاشفة. علّقت إيداميت مؤرخة تمرد كرونشتادت (في كومونة كرونشتادت» «لقد جاء التأثير اللاسلطوي إلى التطبيق بالقدر الذي نشرت به اللاسلطوية نفسها فكرة ديمقراطية العمال وحسب» ولم يلعب اللاسلطويون أي دور مباشر في الأحداث، إلا أنهم ربطوا أنفسهم بها. كتب فولاين فيما بعد «كانت كرونشتادت أول محاولة مستقلة كلياً للشعب لتحرير نفسه من كل سيطرة وتطبيق الثورة الاجتماعية: جرت هذه المحاولة مباشرة... من قبل الجماهير العمالية نفسها وبدون رعاة سياسيين، بدون قادة أو معلمين» وأضاف الكسندر بيركمان «فجّرت كرونشتادت في السماوات العليا أسطورة الدولة البروليتارية وبرهنت على أن ديكتاتورية الحزب الشيوعي والثورة غير متجانستين حقاً».

6 ـ حياة اللاسلطوية وموتها:

رغم أن اللاسلطويين لم يلعبوا دوراً مباشراً في انتفاضة كرونشتادت إلا أن النظام استفاد من سحقها ليضع نهاية لايديولوجية استمرت في تخويفه قبل بضعة أسابيع وفي 8 شباط توفي كروبتكن الشيخ على الأرض الروسية وشيعت جنازته تشيعياً مهيباً حيث تبعها موكب هائل من حوالي 100.000 شخص يستطيع الواحد أن يرى من فوق رؤوس المحتشدين بين الرايات الحمر أعلاماً سوداء للمجاميع اللاسلطوية منقوشاً عليها بأحرف من نار «حيثما تكون هناك سلطة فلن تكون حرية» تبعاً لمترجم حياة كروبتكن كان هذا «آخر تظاهرة كبرى ضد الطغيان البلشفي وساهم فيها العديدون للمطالبة بالحرية أكثر مما لتمجيد اللاسلطوي الكبير».

اعتقل مئات من اللاسلطويين بعد كرونشتادت وبعدها ببضعة شهور فقط رُميت التحررية فاني بارون وثمانية من رفاقها بالنار في أقبية سجن التشايكا في موسكو. تلقت اللاسلطوية المناضلة ضربة مميتة، إلا أن اللاسلطويين الذين عايشوا الثورة الروسية بذلوا خارج روسيا مجهوداً هائلاً من النقد وإعادة التنظير

أعاد الحيوية للفكر التحرري وجعله أكثر صلابة. مبكراً كما في أيلول 1920 رفض مؤتمر كونفدرالية المنظمات اللاسلطوية في أوكرانيا نايات عبارة «دكتاتورية البروليتاريا» على إطلاقها مدركاً أنها تقود حتماً إلى الدكتاتورية على الجماهير بواسطة زمرة البروليتاريا المتخندقة في الحزب تلك، موظفين وحفنة قادة. قبل وفاته مباشرة نشر كروبتكن رسالة إلى عمال الغرب أدان فيها بأسف قيام «بيروقراطية مفزعة» يبدو لي أن هذه المحاولة في بناء جمهورية شيوعية على أساس دولة مركزية بشدة وتحت ظل القانون الحديدي لدكتاتورية حزب واحد قد انتهت إلى إخفاق مزعج. تعلمنا روسيا كيف لا تفرض الشيوعية فرضاً».

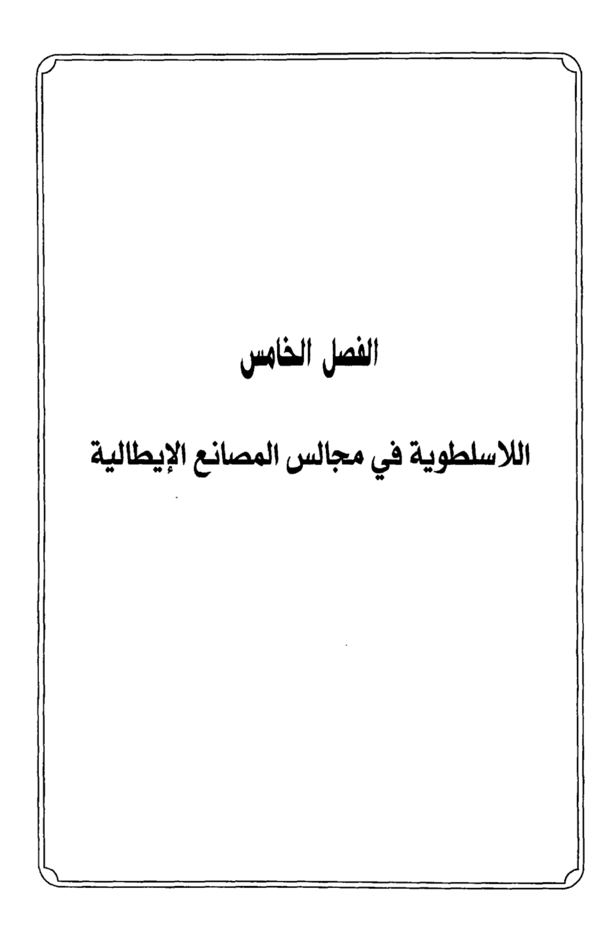
نشر طلب محزن من النقابيين اللاسلطويين الروس إلى بروليتاريا العالم في عدد 7 ـ 14 كانون الثاني 1921 من الصحيفة الفرنسية التحرري «أيها الرفاق ضعوا نهاية لسيطرة برجوازيتكم مثلما فعلنا نحن تماماً هنا، ولكن لا تعيدوا أخطاءنا، لا تدعوا شيوعية الدولة تقيم نفسها في بلادكم» في سنة 1920 كتب اللاسلطوي الألماني رودولف روكر الذي عاش وتوفي فيما بعد في الولايات المتحدة «إفلاس شيوعية الدولة» الذي ظهر في سنة 1921 كان هذا أول تحليل كتب عن انحطاط الثورة الروسية، وبرأيه لم تكن «دكتاتورية البروليتاريا» الشهيرة التعبير عن إرادة طبقة واحدة بل دكتاتورية حزب يتظاهر بالتحدث باسم طبقة ويبقى في الحكم بقوة الحراب نمت طبقة جديدة تحت شعار دكتاتورية البروليتاريا في روسيا: الشيوقراطيين لتستعبد أوسع الجماهير بالقدر الذي اعتاد عليه النظام القديم بالضبط فبالإخضاع المنمط لكل عوامل الحياة الاجتماعية لحكومة ذات قوة طاغية ومنحت كل الامتيازات «لا يستطيع المرء أن ينقطع من الصعود في التسلسل الهرمي للموظفين الذي برهن على موت نمو الثورة الروسية» «لم يعمل البلاشفة على استعارة جهاز الدولة من المجتمع السابق فحسب بل أعطوه أيضاً قوة مُطبقة جداً بحيث لا تدعيها أية حكومة أخرى لنفسها».

في حزيران 1922 نشرت مجموعة اللاسلطويين الروس المنفيين في ألمانيا كتاباً كاشفاً صغيراً بأسماء أي. جوريلك، وأي. كوموف، وفولاين «قمع اللاسلطوية في روسيا السوڤياتية» وضع له فولاين ترجمة فرنسية ظهرت في بداية سنة 1923 وتضمّن قائمة حسب الحروف الهجائية بأسماء شهداء اللاسلطوية الروسية. نشر الكسندر بيركمان في سنة 1921 ـ 1922 وإيما غولدمان في سنة 1922 ـ 1923 سلسلة من الكراسات عن الأحداث المأسوية التي شاهداها في روسيا. وبدورهما نشر بيتر آرتشينوف ونسطور ماخنو نفسه، ماخنويان هاربان اتخذا ملجأً لهما في الغرب، شهادتيهما.

جاء الكتابان الكلاسيكيان التحرريان الكبيران عن الثورة الروسية «المقصلة في العمل: أربع وعشرون سنة من الإرهاب في روسيا» بقلم جي.بي. ماكسموف «والثورة المجهولة» لفولاين متأخرين جداً... إبّان الحرب العالمية الثانية. وقد كتبا بتفكير ناضج أصبح ممكناً بواسطة رحلة السنين.

بالنسبة لماكسموف الذي ظهر تقويمه في أميركا أعدّت له دروس الماضي توقعات أكيدة لمستقبل أفضل. لا يمكن ولن تكون الطبقة الحكومة الجديدة في الاتحاد السوڤياتي دائمية وسوف تعقبها الاشتراكية التحررية. تقود الظروف الموضوعية هذا التطور إلى أمام «أهو ممكن تصديقه... ذلك أن العمال يرغبون في عودة الرأسماليين إلى مشاريعهم؟ لا قطعاً لا! لأنهم متمردون بالتحديد ضد الاستغلال بواسطة الدولة وبيروقراطييها» ما يرغب فيه العمال هو استبدال هذه الإدارة السلطوية للإنتاج بمجالسهم الخاصة للمصانع وتوحيد هذه المجالس في فدرالية وطنية كبيرة واحدة. ما يرغبون فيه هو التسيير الذاتي للعمال. وبنفس الطريقة أدرك الفلاحون أنه لا يمكن أن تكون هناك مسألة العودة إلى اقتصاد فردي، فالزراعة الجماعية هي الحل الوحيد مجتمعة مع تعاون الجمعيات الريفية مع مجالس العمال ونقابات العمال وباختصار النمو المطّرد لبرنامج ثورة أكتوبر بكامل الحرية.

أكد فولاين بشدة أن أية تجربة وفق النموذج الروسي تقود حصراً إلى «رأسمالية الدولة القائمة على استغلال قبيح للجماهير» أراد أشكال الرأسمالية، والذي ليس له أن يفعل أي شيء إطلاقاً من أجل تقدم الإنسانية نحو مجتمع اشتراكي «إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى إطالة أمد «دكتاتورية الحزب الواحد التي تقود لا محالة إلى اضطهاد كل حريات الكلام، النشر، التنظيم والفاعلية حتى بالنسبة للاتجاهات الثورية مع استثناء واحد هو للحزب في السلطة» وإلى «الاستجواب الجماعي» الذي يخنق تماماً «أنفاس الثورة» ويستمر فولاين موضحاً أن ستالين «لم يسقط من القمر» وستالين والستالينية برأيه النتيجة المنطقية للنظام السلطوي الذي وجد وأُقيم ما بين سنة 1918 ـ 1921 «هذا هو الدرس الذي يجب أن يتعلمه العالم من التجربة البلشفية الهائلة والمضللة: درس يدعم بقوة الأطروحات التحررية وسرعان ما ستوضح الأحداث مدارك كل هؤلاء الذين حزنوا وعانوا وفكروا وناضلوا».



الفصل الخامس

اللاسلطوية في مجالس المصانع الإيطالية

تابع اللاسلطويون الإيطاليون نمط الأحداث في روسيا ووقفوا بجانب أنصار سلطة السوڤياتات في الحقبة التي أعقبت الحرب العظمى مباشرة وقوبلت الثورة الروسية بتعاطف عميق من قبل العمال الإيطاليين وخاصة من قبل طليعتهم عمال الصلب في القسم الشمالي من البلاد. وفي 20 شباط 1919 كسبت الفدرالية الإيطالية لعمال الصلب (إيف آي أو إم) اتفاقاً يهيىء لانتخابات «البعثات الداخلية» في المصانع. حاولوا لاحقاً تحويل أجهزة التمثيل العمالي هذه إلى مجالس مصانع مع مهام إدارية بواسطة تسيير سلسلة من الإضرابات واحتلال المصانع.

وضعت نهاية لهذا بإغلاق المصانع في نهاية آب 1920 من قبل أرباب العمل. قرر عمال الصلب ككل الاستمرار في الإنتاج من جانبهم. جربوا الإكراه والإقناع بالمناوبة. إلا أنهم فشلوا في كسب تعاون المهندسين والملاكات المشرفة. لهذا تم تسيير إدارة المصانع من قبل اللجان الإدارية والفنية للعمال. قطع التسيير الذاتي شوطاً بعيداً تماماً. وتم الحصول في الفترة الأولى على مساعدة من البنوك، ولكن عندما سُحبت أصدر نظام التسيير الذاتي النقود الخاصة به لدفع أجور العمال. وتطلّب انضباطاً ذاتياً شديداً جداً ومُنع تناول المشروبات الكحولية ونظمت خفارات مسلحة من أجل الدفاع

الذاتي. نشأ تضامن وثيق جداً بين المصانع المدارة ذاتياً. وضعت خامات المعادن والفحم في جوزة مشتركة وبالتساوي في الحصص.

اختار الجناح الإصلاحي لنقابات العمال المساومة مع أرباب العمل بعد بضعة أسابيع من الاحتلال الإداري كان على العمال مغادرة المصانع مقابل وعد بتوسيع سيطرة العمال، وعد لم يُلتزم به، صرخ الجناح اليساري الثوري المؤلف من اللاسلطويين واشتراكيي اليسار عبثاً: إنها خيانة.

كان لهذا الجناح اليساري نظرية وناطق باسمه وصحيفة. ظهرت «النظام الجديد» الأسبوعية في تورين أولاً في 1 أيار 1919 كانت تُحرر من قبل اشتراكي يساري، أنطونيو غرامشي، يساعده أستاذ فلسفة في جامعة تورين ذو أفكار لاسلطوية كاتباً بالاسم المستعار كارلو بيتري وكذلك نواة كاملة من تحرريي تورين. دُعمت مجموعة «النظام الجديد» في المصانع من قبل عدد من الناس وخاصة المناضلين النقابيين اللاسلطويين لنقابات الصلب: بيترو فريرو وموريزيو جارينو. وقَّع بيان النظام الجديد من قبل اشتراكيين وتحرريين معاً متفقين على اعتبار مجالس العمال «كأجهزة مناسبة للإدارة الشيوعية للمستقبل، للمصنع المنفرد وللمجتمع بكامله معاً».

مالت «النظام الجديد» إلى إحلال هيكل مجالس المصانع محل النقابية العمالية التقليدية. لم تكن معادية كلياً لنقابات العمال التي اعتبرتها «كعمود فقري صلب لجسد البروليتاريا الكبيرة» مهما يكن، وبأسلوب مالاتيستا في 1907 كانت خطورة تدهور حركة نقابية إصلاحية وبيروقراطية أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الرأسمالي هي التي حطَّت من قدرة النقابات على العمل كأدوات للثورة البروليتارية.

في الجانب الآخر نسبت «النظام الجديد» الفضائل كلها إلى مجالس المصانع. اعتبرتها كوسائل لتوحيد الطبقة العاملة والجهاز الوحيد القادر على رفع العمال فوق المصالح الذاتية للنقابات المختلفة والربط بين «المنظَّم» «وغير

المنظِّم» أُعطيت المجالس فضل توليد سيكولوجية منتجين مُهيئة العمال للتسيير الذاتي، ونتيجة لها يصبح احتلال المصانع منظوراً ملموساً في متناول العامل الأكثر تدنياً اجتماعياً واعتبرت المجالس كتجسيد مسبق للمجتمع الاشتراكي.

كان اللاسلطويون الإيطاليون أكثر واقعية وأقل إطناباً في تغيير رأيهم من أنطونيو غرامشي، وانهمكوا أحياناً في تعليقات قاسية حول غزارة الاحتفال «بصنع المعجزات» لصالح مجالس العمال. كانوا مدركين بالطبع لمزاياها ولكنهم توقفوا على مبعدة من التعميم. أدان غرامشي النزعة ـ الإصلاحية لنقابات العمال ليس بدون سبب إلا أن النقابيين اللاسلطويين أظهروا أنه يمكن في حقبة غير ثورية أن تنحط مجالس العمال أيضاً إلى... أجهزة للتعاون الطبقي. فكَّر هؤلاء الأشخاص الأكثر اهتماماً بالنقابية العمالية أيضاً في إجحاف إدانة «النظام الجديد» بدون تمييز ليس للنقابية العمالية الإصلاحية فحسب، وإنما أيضاً للنقابية الثورية لمركزهم: اتحاد نقابات إيطاليا[1].

أخيراً والأهم جداً: لم يكن اللاسلطويون مرتاحين لحد ما إلى التفسير الغامض والمتناقض الذي قدمته «النظام الجديد» للطراز الأوّلي لمجالس العمال: السوڤياتات. استخدم غرامشي غالباً عبارة «التحررية» في كتاباته بالتأكيد، وتبارز مع السلطوي الراسخ أنجيلو تاسكا الذي عرض مفهوماً ديمقراطياً «الدكتاتورية البروليتاريا» حيث تتقلص مجالس العمال إلى مجرد أدوات للحزب الشيوعي، والذي هاجم حتى تفكير غرامشي «كبرودني» لم يكن غرامشي يعرف بما فيه الكفاية عن الأحداث في روسيا ليميز ما بين

---

(1) علاوة على أن الخلاف بين النقابيين ـ اللاسلطويين حول المزايا النسبية لمجالس المصانع ونقابات العمال ليس جديداً، فإنه قسَّم أخيراً اللاسلطويون في روسيا، وحتى إنه أدى إلى انشقاق في صفوف فريق التحرير الخاص بالصحيفة التحررية كولوس ترودا وبقي بعض الأعضاء مخلصين للنقابية التقليدية بينما اختار آخرون، من بينهم جي.بي. ماكسيموف، المجالس.

السوڤياتات الحرة للأشهر الأولى من الثورة والسوڤياتات المدجّنة للدولة البلشفية مما قاده إلى استخدام صيغ غامضة. رأى مجالس المصانع «كنموذج للدولة البروليتارية» حيث توقع أن تندمج في نظام عالمي: الأُممية الشيوعية. اعتقد أنه يستطيع أن يوفق بين البلشفية وأفول الدولة مع تفسير ديمقراطي «للدكتاتورية البروليتاريا».

بدأ اللاسلطويون الإيطاليون الترحيب بالسوڤياتات الروسية مع حماس غير مسؤول. في 1 حزيران 1919 نشر أحد أعضائهم كاميليو بير نيري مقالاً بعنوان «الديمقراطية الدينامية» محيياً النظام البلشفي «التجربة لأكثر عملية في الديمقراطية الكاملة جرت محاولتها على أوسع نطاق لحد الآن» «والنقيض لاشتراكية الدولة المركزية».

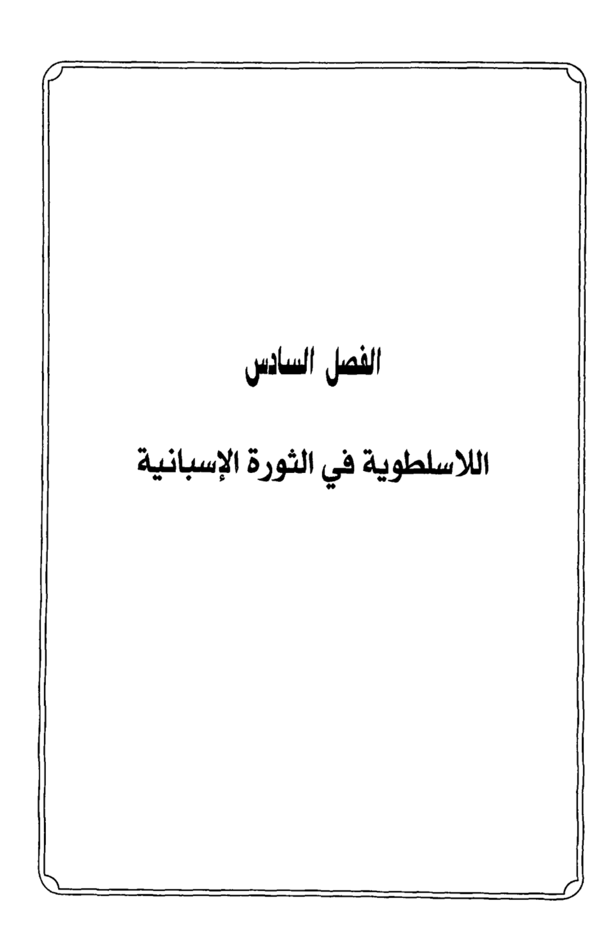
على كل حال، بعد سنة وفي مؤتمر الاتحاد اللاسلطوي الإيطالي تحدّث موريزيو جارينو بشكل مختلف تماماً: كانت السوڤياتات المقاومة في روسيا من قبل البلاشفة تختلف موضوعياً عن التسيير الذاتي للعمال كما اعتقد به اللاسلطويون، وقد أنشأوا «أسس دولة جديدة، مركزية وسلطوية حتماً».

اتبع اللاسلطويون الإيطاليون وأصدقاء غرامشي طرقاً مختلفة فيما بعد. أكّد الأخيرون في البدء أن الحزب الاشتراكي مثل نقابات العمال منظمة مندمجة في النظام البرجوازي، وبالنتيجة فإن دعمه ليس ضرورياً ولا مرغوباً فيه. ومن بعد صنعوا «استثناء» للمجاميع الشيوعية داخل الحزب الاشتراكي. بعد انشقاق ليفرنو في 21 كانون ثاني 1921 شكلت هذه المجاميع الحزب الشيوعي الإيطالي وانضم إلى الأُممية الشيوعية.

كان على التحرريين الإيطاليين بدورهم نبذ بعض أوهامهم وإعطاء اهتمام أكبر لرسالة نبوئية كتبت إليهم من قبل مالاتيستا مبكراً كما في صيف 1919 حذرتهم هذه من «حكومة جديدة أقامت نفسها ـ في روسيا ـ فوق الثورة لكي تلجمها وتخضعها لأغراض حزب معين. . . أو بالأحرى لقادة حزب «وناقش

الثوري القديم بصورة نبوئية بأنها كانت دكتاتورية» بمراسيمها وأحكامها الجزائية ووكالاتها التنفيذية، وفوق كل شيء بقواتها المسلحة التي خدمت للدفاع عن الثورة ضد أعدائها الخارجيين ولكنها ستخدم غداً لفرض إرادة الدكتاتوريين على العمال، كبح جماح الثورة، تركيز المصالح الناشئة حديثاً عن الطبقة صاحبة الامتيازات الجديدة ضد الجماهير. إن لينين وتروتسكي وأصحابهما ثوريون مخلصون بالتأكيد، إلا أنهم يهيئون الكوادر الحكومية التي ستجعل خلفاءهم قادرين على الانتفاع بواسطة الثورة وقتلها، سيكونون أول الضحايا لأساليبهم الخاصة بهم».

بعد سنتين التقى الاتحاد اللاسلطوي الإيطالي في مؤتمر في أنكونا في 2 ـ 4 تشرين الثاني 1921 ورفض الاعتراف بالحكومة الروسية كممثلة للثورة، بدلاً منه أدانوها «كعدو رئيسي للثورة «ومستعبدة ومستغلة البروليتاريا التي تتظاهر بممارسة السلطة باسمها» ولخص الكاتب التحرري لويجي فابري ذلك بنفس السنة «إنَّ دراسة نقدية للثورة الروسية ذات أهمية كبرى. . . لأن الثوار الغربيين يستطيعون توجيه نشاطهم بطريقة يتجنبون بها الأخطاء التي ظهرت للنور بواسطة التجربة الروسية».



الفصل السادس

اللاسلطوية في الثورة الإسبانية

1 ـ سراب السوفيات:

إن تباطؤ الزمن ما بين الوعي الذاتي والحقيقة الموضوعية ثابت في التاريخ. استقى اللاسلطويون الروس وهؤلاء الذي شهدوا الدراما الروسية درساً مبكراً كما في سنة 1920 أصبح معروفاً، معترفاً به ومشتركاً بعد سنوات وحسب. كان لانتصار الثورة البروليتارية الأولى في سدس الكرة الأرضية تقدير ولمعان بحيث ظلت الطبقة العاملة منوَّمة مغناطيسياً طويلاً بواسطة نموذج مفروض كهذا. برزت «المجالس» في صورة السوفياتات الروسية في كل مكان ليس في إيطاليا كما رأينا، وإنما أيضاً في ألمانيا، النمسا، وهنغاريا. في ألمانيا كان نظام المجالس الفقرة الجوهرية في برنامج رابطة سبارتكوس لروزا لكسمبورج وكارل ليبكنخت.

في سنة 1919 اغتيل رئيس جمهورية باڤاريا كورت إيسنر في ميونيخ وأعلنت جمهورية سوفياتية بقيادة الكاتب التحرري جوستاف لاندوير الذي اغتيل بدوره من قبل الثورة المضادة. نظم صديقه ورفيقه في السلاح الشاعر اللاسلطوي إيرك موهسام «ريت مارسليز ـ مارسليز المجالس» حيث دعا فيه العمال إلى السلاح ليس بتشكيل الكتائب وإنما المجالس على طراز تلك التي لروسيا وهنغاريا، وهكذا تُصنع نهاية لعالم العبودية الذي دام قروناً.

على كل حال، في ربيع 1920 تركت مجموعة ألمانية معارضة ومؤيدة إلى «ريت كومنزم ـ شيوعية المجالس» الحزب الشيوعي لتشكيل حزب العمال الشيوعيين الألمان كي. أي. بي. دي[1]. ألهمت فكرة المجالس مجموعة مماثلة في هولندا بقيادة هيرمان غورير وأنطون بانيكوك. ولم يخف الأول خلال حوار حي مع لينين مع الرد بأسلوب تحرري محض على زعيم الثورة الروسية المعصوم من الخطأ «نحن لا زلنا نرنو إلى قادة حقيقيين سوف لا ينشدون إخضاع الجماهير ولا تضليلها. طالما هم ليسوا لدينا فنحن نريد أن يتحقق كل شيء من الأسفل فصاعداً وبواسطة دكتاتورية الجماهير على نفسها. إذا كان لي دليل جبال ويقودني إلى شفا هاوية فأنا أُفضل أن أسير بدونه «أعلن بانيكوك أن المجالس كانت شكلاً من أشكال التسيير الذاتي التي ستحل محل أشكال حكومات العالم القديم، ومثل غرامشي تماماً لم يستطع رؤية الفارق بين الأخيرة «ودكتاتورية البلاشفة».

في أماكن عديدة، خاصة باڤاريا، ألمانيا، هولندا لعب اللاسلطويون دوراً إيجابياً في التطوير النظري والعملي لنظام المجالس.

ونفس الشيء في إسبانيا: انبهر النقابيون اللاسلطويون بثورة أكتوبر وتبنى مؤتمر مدريد لـ (سي. أن. تي)[2] 10 ـ 20 كانون الأول 1919 تصريحاً يقرر أن «ملحمة الشعب الروسي كهربت بروليتاريا العالم» والتهليل بأنها «كالحسناء التي تعطي نفسها للرجل الذي تحب بدون تحفظ» وصوَّت المؤتمر مؤقتاً على الانضمام إلى الأُممية الشيوعية لشخصيتها الثورية، معبّراً عن الأمل على أي حال بأن مؤتمراً عالمياً سيدعى لتحديد الأسس التي يمكن بناء أُممية عالمية حقيقية عليها. سُمعت بضعة أصوات معارضة خائفة، على كل حال، كانت

(1) في نيسان 1922 أقامت كي. أي. بي. دي. «أُممية العمال الشيوعيين» مع مجاميع معارضة بلجيكية وهولندية.

(2) الكونفدرالية الوطنية الإسبانية للعمل.

الثورة الروسية ثورة «سياسية» ولم تجسّد المثل التحررية. ولم يسجل المؤتمر أية ملاحظات وقرر إرسال وفد إلى المؤتمر الثاني للأُممية الثالثة الذي افتتح في موسكو في 15 تموز 1920.

على كل حال، منذ ذلك الحين كان زواج الحب في طريقه للانفصام. ضغط الوفد الممثل للنقابية اللاسلطوية للمساهمة في إنشاء مركز نقابي ثوري عالمي، ولكنه غيّر الدفة عندما قدم إليه نص يشير إلى الاستيلاء على «السلطة السياسية» «ودكتاتورية البروليتاريا» ويقترح علاقة عضوية بين نقابات العمال والأحزاب الشيوعية تخفي برقّة علاقة إخضاع الأولى للأخيرة. في اللقاءات التالية للأُممية الشيوعية سوف تُمثل المنظمات النقابية للأمم المختلفة من قبل مندوبين من الأحزاب الشيوعية لأقطارها المعنية وأن مشروع أُممية النقابات الحمراء سوف تسيطر عليه الأُممية الشيوعية وأقسامها الوطنية علناً. أوضح المتحدث الإسباني انجيل بيستانا المفهوم التحرري للثورة الاجتماعية وطالب «ليست الثورة ولا يمكن أن تكون من صنع حزب. أكثر ما يقدر حزب ما على صنعه هو إثارة انقلاب ولكن الانقلاب ليس ثورة» وانتهى إلى «أنتم تقولون لنا إن الثورة لا يمكن أن تتحقق بدون حزب شيوعي وبدون كسب السلطة السياسية فإن التحرير غير ممكن وبدون دكتاتورية لا يمكن للواحد القضاء على البرجوازية: كل هذه التأكيدات لا مبرر لها إطلاقاً».

في ضوء الشكوك التي عبر عنها مندوب سي أن تي عرض الشيوعيون تعديلاً للقرار بالنسبة «لدكتاتورية البروليتاريا» مع ذلك نشر القائد النقابي الروسي لوزوفسكي النص أخيراً بشكله الأصلي وبدون التعديل المقدم من بيستانا ولكن حاملاً توقيعه. من فوق المنبر أخذ تروتسكي يوجه اللوم إلى المندوب الإسباني لحوالي ساعة، إلا أنه عندما طلب بيستانا وقتاً للرد على هذه الهجمات أعلن الرئيس غلق باب المناقشة.

قضى بيستانا عدة شهور في موسكو وغادر روسيا في 6 أيلول 1920 خائب

الأمل بعمق بكل ما لاحظ خلال تلك الفترة. في حساب لزيارة لاحقة إلى برلين وصف رودولف روكر بيستانا بكونه شبيهاً برجل «نجا من سفينة غارقة» لم تكن لديه الشجاعة ليقول الحقيقة لرفاقه الإسبان. إنها بدت له مثل «جريمة قتل» لتدمير الأمل العظيم الذي بعثته الثورة الروسية فيهم. وحالما عبر الحدود الإسبانية قذف به في السجن، وهكذا وفّر الواجب الأليم بأن يكون المتكلم الأول.

إبّان صيف 1921 ساهم وفد مغاير من سي.أن.تي في المؤتمر التأسيسي للأُممية النقابية الحمراء. كان هناك ضمن موفدي سي.أن.تي أتباع شبان للبلشفية الروسية مثل جاكوين مورين وأندرياس نن، إلا أنه كان هناك أيضاً لاسلطوي فرنسي، جاستون ليفال، ذو رأس رابط الجأش. تحمّل مجازفة كونه متهماً «بلعب لعبة البرجوازية» «ومساعدة الثورة المضادة» ورغم ذلك بقي ساكتاً. إن عدم مفاتحة الجماهير بأن ما أخفق في روسيا لم تكن الثورة بل الدولة «وأن عدم إطلاعها على ما وراء الثورة الحية: الدولة التي تسبب لها الشلل وتقتلها» أسوأ من السكوت، استعمل هذه العبارات في «التحرري» في تشرين الثاني 1921. اعتقد أن «أي تعاون شريف ومخلص» مع البلاشفة سيصبح مستحيلاً. وفي عودته إلى إسبانيا أوصى سي.أن.تي بالانسحاب من الأُممية الثالثة ومؤسستها الفرعية الزائفة.

بإعطاء هذا المؤشر قرر بيستانا نشر تقريره الأول موسّعاً إياه لاحقاً بثان حيث سيكشف الحقيقة الكاملة عن البلاشفية «إن مبادىء الحزب الشيوعي هي بالضبط الضدّ لتلك التي أكدها وأعلنها إبّان الساعات الأولى للثورة. المبادىء، الأساليب والغايات النهائية للحزب الشيوعي تتعارض بكل ما في الكلمة من معنى مع تلك التي للثورة الروسية... وحالما نال الحزب الشيوعي سلطة مطلقة فرض أن كل من لا يفكر كشيوعي ـ وذلك تبعاً لتحديده الخاص ـ ليس له حق في التفكير إطلاقاً... أنكر الحزب الشيوعي على البروليتاريا الروسية كل الحقوق المقدسة التي منحتها إياها الثورة».

أبعد من ذلك طرح بيستانا شكّاً حول شرعية الأُممية الشيوعية: توسيع بسيط للحزب الشيوعي الروسي غير قادر على تمثيل الثورة في أعين البروليتاريا العالمية.

تلقى المؤتمر الوطني لـ (سي. أن. تي) المنعقد في سيراقوزا في حزيران 1922 هذا التقرير وقرر الانسحاب من جبهة نقابات العمال وأُممية النقابات الحمراء، كما وقرر إرسال مندوبين لمؤتمر عالمي للنقابية اللاسلطوية المنعقد في برلين في كانون الأول الذي نتجت منه «الرابطة العالمية للعمال» ولم تكن هذه عالمية حقاً ما دامت بعيدة عن المجموعة الإسبانية المهمة، كان لها عون من أعداد صغيرة جداً من الأقطار الأخرى[1].

ومن وقت هذا الانفصام حملت موسكو كراهية متواصلة للاسلطوية الإسبانية وتبرأ جاكوين مورين وأندرياس نن من (سي. أن. تي) وتركاها لإيجاد الحزب الشيوعي الإسباني. في أيار 1924 نشر مورين كراسة معلناً الحرب حتى الموت على رفاقه السابقين «إن المحو التام للاسلطوية مهمة صعبة في بلد تحمل فيه حركة العمال علامة خمسين سنة من الدعاوة اللاسلطوية لكننا سننال منهم» تهديد نفذ فيما بعد.

2 ـ التقاليد اللاسلطوية في إسبانيا:

هكذا تعلّم اللاسلطويون الإسبان درس الثورة الروسية مبكراً جداً، ولعب هذا دوراً في إلهامهم إعداد ثورة ذات استقلال ذاتي. زاد تدهور الشيوعية السلطوية من تصميمهم على تحقيق انتصار شكل تحرري من الشيوعية. لقد خاب أملهم بقساوة في السراب السوڤياتي وبكلمات دياجو أباد دي سانتيلان رأوا في اللاسلطوية «الأمل الأخير في التجديد خلال هذه الفترة الكئيبة».

---

(1) في فرنسا على سبيل المثال فإن نقابيي العمال الذين تبعوا بيير بيزاد أُبعدوا من الكونفدرالية العامة لاتحادات تريفيل الخاضعة للشيوعيين، وفي سنة 1924 أُوجدت الكونفدرالية العامة لنقابات تريفيل الثورية.

كانت الأسس من أجل ثورة تحررية جميلة وأُلقيت في وعي الجماهير الشعبية وفي تفكير المنظِّرين التحرريين. تبعاً لجوزيه بيراتس كانت النقابية اللاسلطوية «بسبب من سيكولوجيتها، مزاجها، واستجاباتها الشيء الأكثر إسبانية في كل إسبانيا» كانت النتاج المضاعف لتطور مركّب. إنها لاءمت الحالة المتخلفة لقطر متطور قليلاً، حيث بقيت ظروف الحياة الريفية مهملة وكذلك نمو بروليتاريا حديثة ولدت من التصنيع في مناطق معينة معاً. كانت السمة الوحيدة للاسلطوية الإسبانية مزيجاً غريباً من الماضي والمستقبل وكان التعايش بين هاتين النزعتين بعيداً عن الكمال.

في سنة 1918 كان لـ (سي. أن. تي) أكثر من مليون عضو نقابي في الحقل الصناعي. كانت قوية في قطالونيا وأقل في مدريد وفالانسيا[1] لكن لها جذور عميقة في الريف بين الفلاحين الفقراء ممن احتفظوا بتقاليد مشاعية Communalism القرية مصطبغة بوطنية محلية وبروح تعاونية. في سنة 1898 وصف الكاتب جواكين كوستا ديمومة هذه النزعة الجماعية الزراعية. لا زال للعديد من القرى ملكية شائعة تُخصص منها قطع صغيرة للمحرومين من الأرض أو تستغلها مع قرى أخرى سوية للرعي أو لأغراض مشتركة أخرى. في منطقة الملكية الواسعة للأرض في الجنوب فضّل العمال الزراعيون المياومون التشريك على تقسيم الأرض.

فضلاً عن أن عدة عقود من الزمن للدعاوة اللاسلطوية في الريف بشكل الكراسات الشعبية الصغيرة هيأت الأسس للجماعية الزراعية. كانت (سي. أن. تي) قوية خاصة بين فلاحي الجنوب (الأندلس) والشرق (مساحة من ليفانت حوالي ڤالانسيا) وفي أقصى الشمال (أراغون حوالي سيراقوزا).

(1) حيث سيطر في قشطاله وفي استورياس الخ مركز النقابات العمالية الديمقراطية الاجتماعية والاتحاد العام للعمال (يو. جي. تي).

حوّل هذا الأساس المزدوج، الصناعي والريفي معاً، الشيوعية التحررية للنقابية اللاسلطوية الإسبانية إلى اتجاهين متباعدين نوعاً ما: أحدهما مشاعي والآخر سندكالي. تم التعبير عن المشاعية بروح أكثر محلية، أكثر ريفية ويستطيع الواحد أن يقول على الأغلب أكثر جنوبية، لأن أحد حصونه الرئيسية كان في الأندلس. في الجانب الآخر كانت السندكالية أكثر حضرية وتوحيداً في الروح وأكثر شمالية أيضاً منذ أن كان مركزها الرئيسي قطالونيا. كان المنظرون التحرريون ممزقين ومنقسمين نوعاً ما حول هذا الموضوع.

مالت قلوب بعضهم إلى كروبتكن ومعرفته الواسعة (ولكن المثالية الساذجة) عن كومونات القرون الوسطى التي قاموا بمطابقتها مع التقاليد الإسبانية في التجمعات الفلاحية البدائية. كان شعارهم «الكومونة الحرة» احتلت تجارب تطبيقية مختلفة في الشيوعية التحررية مكانها إبّان عصيان الفلاحين التي أعقبت تأسيس الجمهورية في سنة 1931 وقررت بضع مجاميع فلاحين مالكين صغار العمل معاً بموجب اتفاق حر متبادل وتقسيم الأرباح إلى أقسام متساوية وتأمين استهلاكهم الخاص «بالسحب من الحوزة المشتركة Commonpool» تجاهلوا الإدارات البلدية وأحلّوا محلها لجاناً منتخبة، مؤمنين بسذاجة أنهم يستطيعون تحرير أنفسهم من المجتمع المحيط بهم: الضرائبية، والخدمة العسكرية.

كان باكونين مؤسس الجماعية الإسبانية، السندكالية وحركة العمال الأُممية. مال هؤلاء اللاسلطويون الذين كانوا أكثر واقعية، الأكثر اهتماماً بالحاضر عما بالعصر الذهبي إلى اتباعه وتابعه ريكاردو ميللا. اهتموا بالتوحيد الاقتصادي وآمنوا بأن حقبة انتقالية طويلة تكون ضرورية حيث سيكون تعويض العمل خلالها تبعاً لساعات الاشتغال وليس تبعاً للحاجة أكثر حكمة. تصوّروا البناء الاقتصادي للمستقبل كتوحيد للتجمعات النقابية المحلية وفيدراليات فروع الصناعة.

لفترة طويلة سيطرت الاتحادات المحلية داخل (سي أن تي). هذه المجاميع قريبة من العمال، متحررة من كل أنانية مشتركة، خدمت كمأوى بدني وروحي للبروليتاريا[1] قام التدريب في هذه الاتحادات المحلية بلحم أفكار النقابية والكومونة في أذهان مناضلي الكوادر المتفرغة.

انتعش الخلاف النظري الذي عارض فيه النقابيون اللاسلطويين في المؤتمر اللاسلطوي العالمي لسنة 1907[2] في التطبيق ليقسِّم اللاسلطويين الإسبان. خلق النضال من أجل المطاليب اليومية نزعة إصلاحية داخل (سي. أن. تي) بوجه تولى (اف أي آي) (الفدرالية اللاسلطوية الإيبرية) التي تأسست في سنة 1907 الدفاع عن تكامل النظريات اللاسلطوية. في سنة 1931 خرج «بيان الثلاثين» بنزعة نقابية ويدين «دكتاتورية» الأقليات داخل الحركة النقابية ويعلن استقلالية النقابية العمالية ومطلبها في أن تكون مكتفية بذاتها. تركت بعض النقابات (سي أن تي) واستمر عنصر إصلاحي داخل ذلك المركز النقابي حتى بعد التئام القطيعة عشية ثورة تموز 1936.

3 ـ نظرية:

نشر اللاسلطويون الإسبان باستمرار الأعمال الرئيسية وحتى الثانوية للاسلطوية العالمية باللغة الإسبانية. هكذا حفظوا من الإهمال ومن المحتمل حتى من الدمار الشامل تقاليد اشتراكية ثورية وحرة معاً. كان أوغسطين سوجي كاتباً سندكالياً ـ لاسلطوياً ألمانياً وضع نفسه في خدمة اللاسلطوية الإسبانية وتبعاً له «نوقشت مشكلة الثورة الاجتماعية باستمرار وتنميط في نقاباتهم ولقاءات المجموعات، في صحفهم، في كراساتهم، وفي كتبهم».

---

(1) وافقت سي أن تي على إيجاد الفدرالية الصناعية فقط في 1931 في 1919 كانت هذه قد رُفضت من قبل اللاسلطويين «الخالصين» باعتبارها تقود نحو المركزية والبيروقراطية لكنها صارت جوهرية للرد على تركّز الرأسمالية بواسطة تركّز الاتحادات في الصناعة الواحدة استقرت الفدراليات الصناعية الواسعة حقاً في 1937 وحسب.

(2) انظر صفحة (111).

قاد إعلان الجمهورية الإسبانية في سنة 1931 إلى اندلاع كتابات «توقيعية»: يضع بيراتس قائمة لحوالي خمسين اسماً مؤكداً أنه كان هناك عدد أكبر، ويشدد على أن «استحواذ البناء الثوري» هذا قاد إلى تكاثر كتابات ساهمت كثيراً في تهيئة الشعب للسير في طريق ثوري. كانت كراسة جيمس غوليوم لسنة 1876 «أفكار عن تنظيم المجتمع» معروفة للاسلطويين الإسبان لأنها اقتبست على نطاق واسع في كتاب بيير بيسنارد «العمال النقابيون والثورة الاجتماعية» الذي ظهر في باريس في سنة 1930 هاجر جاستون ليفال إلى الأرجنتين وفي سنة 1931 نشر «إعادة البناء الاجتماعي في أسبانيا» الذي أوحى مباشرة بالكتاب المهم لدياجو أباد دي سانتيلان المبحوث عنه أدناه.

وفي سنة 1932 نشر طبيب الأرياف إسحاق بيونتي خلاصة محلية ومثالية عن الشيوعية التحررية تنبىء مؤتمر (سي. أن. تي) في سيراقوزا في أيار 1936 أفكارها وصار بيونتي نفسه الروح المحرّكة للجنة متمردة في أراغون في سنة 1933.

حدَّد برنامج سيراقوزا لسنة 1936 عملية ديمقراطية القرية المباشرة ببعض الدقة: ينتخب مجلس مشترك بواسطة جمعية عامة للسكان مؤلَفاً من ممثلي اللجان الفنية المختلفة. تجتمع الجمعية العامة متى ما تطلبت مصالح الكومونة ذلك، وبناء على طلب أعضاء المجلس المشترك أو الطلب المباشر للسكان. ليس لمراكز المسؤولية المختلفة أية صفة تنفيذية أو بيروقراطية. يؤدي ذوو المناصب (باستثناء بضعة فنيين وأخصائيين). واجباتهم كمنتجين مثل أي شخص آخر، مجتمعين في نهاية يوم العمل لمناقشة الأمور التفصيلية التي لا تتطلب قرارات من الجمعية العامة.

يستلم العمال النشيطون بطاقة المنتج مسجَّلاً عليها مقدار العمل المنجز مُثمَّناً بالوحدات اليومية والتي يمكن تبادلها بالسلع. يستلم الأعضاء غير النشيطين من السكان بطاقة مستهلك لا غير. يجب ألا يكون هناك نوعاً عاماً: من الواجب احترام الاستقلال الذاتي لكومونات. إذا ما اعتقدت بصورة ملائمة

فبإمكانها إقامة نظام مغاير للتبادل الداخلي بشرط واحد هو عدم إيذائِه مصالح الكومونات الأخرى. لأن الحق في الاستقلال الذاتي الجماعي على كل حال لا يعني التغاضي عن واجب التضامن الجماعي داخل فدراليات الكومونات المنطقية والإقليمية.

كان تهذيب العقل أحد الاهتمامات الرئيسية لأعضاء مؤتمر سيراقوزا. كان على كل الرجال أن يثقوا طوال حياتهم من الحصول على العلم، الفن والبحث من جميع الأنواع مع التحوط فقط من أن تلك الأنشطة تظل في تنافس مع إنتاج الموارد المادية. لن يعود المجتمع مقسَّماً إلى عمال يدويين ـ وذهنيين فقد كان على الكل أن يكونوا متماثلين: الواحد مع الآخر على حد سواء. إن ممارسة أنشطة متوازية كهذه ستضمن توازناً صحياً في الطبيعة البشرية. حالما ينتهي عمله اليومي كمنتج سيكون الشخص السيد المطلق لوقته. تنبأت (سي.أن.تي) أن الاحتياجات الروحية ستبدأ بالتعبير بالطريقة أشد ضغطاً حالما يُشبع المجتمع المتحرر الحاجات المادية.

اهتمت السندكالية ـ اللاسلطوية الإسبانية طويلاً بتوفير حماية للاستقلال الذاتي لما دعت إياه «المجاميع المتآلفة» وكان هناك خبراء عديدون في النزعة الطبيعية والنباتية بين أعضائها وخاصة بين الفلاحين الفقراء في الجنوب. اعتبر هذان الأسلوبان معاً في الحياة ملائمين لتحويل الكائن البشري إلى التهيؤ لمجتمع تحرري. لم ينس الأعضاء في مؤتمر سيراقوزا مراعاة مصير مجاميع الطبيعيين والعراة «غير الملائمين للتصنيع» عندما لن تكون كل هذه المجاميع قادرة على توفير كل احتياجاتها الخاصة، توقع المؤتمر أن مندوبيها إلى اجتماعات كونفدرالية الكومونات سيتمكنون من التحاور حول اتفاقات اقتصادية خاصة مع الكومونات الزراعية والصناعية الأخرى. ألا يجعلنا هذا نبتسم؟ في عشية تحول اجتماعي دموي هائل لا تفكر (سي.أن.تي) أن من الحماقة مواجهة التنوع اللانهائي لطموحات الكائنات البشرية المنفردة.

فيما يتعلق بالجريمة والعقاب اتبع مؤتمر سيراقوزا تعاليم باكونين مقرّراً أن الظلم الاجتماعي هو السبب الرئيسي للجريمة، وبالنتيجة حالما يزول هذا فلن ترتكب اعتداءات إلا نادراً. أكّد المؤتمر أن الإنسان ليس شرّيراً بطبعه وستبحث عيوب الفرد في الحقل الأخلاقي بالإضافة إلى دوره كمنتج بواسطة جمعيات عامة ستبذل قصارى الجهد لإيجاد حل عادل لكل حالة على حدة.

لم تكن الشيوعية التحررية راغبة بالاعتراف بالحاجة لأية أساليب عقابية على نحو مختلف عن العلاج الطبي وإعادة التربية. إذا ما أصرَّ فرد، كنتيجة لبعض الحالات المرضية، بالانسجام الذي يجب أن يسود ما بين أقرانه فسوف يُعالج من حالته اللامتوازنة. في نفس الوقت يتم حث إحساساته الخلقية والاجتماعية. إذا ما ذهبت الأهواء الأيروسية لما وراء القيود المفروضة لاحترام حرية الآخرين فإن مؤتمر سيراقوزا أوصى بـ (تبديل الهواء) معتقداً بصلاحيته للأمراض الجنسية مثلما هو للأمراض البدنية، وقد ارتابت الفدرالية النقابية حقاً في أن سلوكاً متطرفاً كهذا سيستمر بالحصول في بيئة متحررة جنسياً.

عندما تبنى مؤتمر (سي. أن. تي) برنامج سيراقوزا في أيار 1936 لم يتوقع أحد حقّاً أنه سيحل أوان تطبيقه بعد شهرين فقط. اختلف تشريك الأرض والصناعة في التطبيق الذي أعقب النصر الثوري في 19 تموز عن هذا البرنامج الشاعري بصورة ملحوظة. بينما وضعت كلمة «الكومونة» في كل سطر فيه فإن الاسم الذي استعمل فعلاً لوحدات الإنتاج الاشتراكي كان الجماعية. لم يكن هذا تغييراً في الألفاظ ليس غير: لقد بحث خالقو التسيير الذاتي الإسباني عن مصادر أخرى لإلهامهم.

قبل شهرين من مؤتمر سيراقوزا نشر دياجو أباد دي سانتيلان كتاباً: «التنظيم الاقتصادي للثورة» رسمت هذه الخلاصة في بناء اقتصادي طموحاً مغايراً إلى حد ما عن برنامج سيراقوزا.

خلافاً لعدد من معاصريه لم يكن سانتيلان تابعاً متصلباً ومتشدداً للاسلطويين الكبار للقرن التاسع عشر. لقد تأسف من أن الأدبيات اللاسلطوية للخمس وعشرين أو الثلاثين سنة السابقة قد أعطت عناية ضئيلة للمشاكل الملموسة لاقتصاد جديد، وأن ذلك لم يؤد إلى فتح منظورات أصلية للمستقبل. في الجانب الآخر أنتجت اللاسلطوية أعمالاً غزيرة بكل لغة تذهب إلى أبعد فأبعد، نحو مفهوم مجرّد كليّاً عن الحرية. قارن سانتيلان هذه المجموعة العسيرة على الهضم من الأعمال بالتقارير المقدمة إلى المؤتمرات الوطنية والعالمية للأُممية الأولى، وبدت له الأخيرة الأكثر تألقاً عند المقارنة، اعتقد أنها عرضت فهماً أفضل جداً للمشاكل الاقتصادية عما ظهر في الحقب اللاحقة.

لم يكن سانتيلان مختلقاً وإنما إنساناً صادقاً في زمانه. كان واعياً أن «التطور الهائل للصناعة الحديثة قد خلق سلسلة كاملة من المشاكل الجديدة يستحيل التنبؤ بها من وقت سابق» ليس هناك من تساؤل عن العودة إلى الوراء. . . إلى المركبة الرومانية ذات العجلات، أو إلى الأشكال البدائية للإنتاج الحرفي. إن انعزالية الاقتصاد طريقة ضيقة في التفكير، والوطن الصغير عزيز على قلوب الإسبان الريفيين الذين يحنّون إلى عصر ذهبي «والكومونة الحرة» الصغيرة والفروسطية لكروبتكن ـ كل هذه يجب أن تحال إلى متحف الأشياء القديمة. إنها لآثار قديمة لمفاهيم شيوعية راح أوانها. لا «كومونات حرة» يمكن أن توجد من وجهة النظر الاقتصادية: إن مثالنا هو الكومونة التي ترتبط، تتحد، تندمج في الاقتصاد الشامل للبلاد والبلدان الأخرى التي هي في حالة ثورة «إن إحلال المالك ذي الألف رأس محل المالك المنفرد ليس بالجماعية وليس بالتسيير الذاتي. إن الأرض، المصانع، المناجم، وسائط النقل هي نتاج عمل الكل ويجب أن تكون في خدمة الكل. ليس الاقتصاد في هذه الأيام محلياً ولا حتى وطنياً وإنما هو على نطاق العالم. إن الملامح

المميزة للحياة الحديثة هي التحام كل القوة المنتجة والموزّعة «اقتصاد اشتراكي موجَّه ومخطط ضرورة آمرة ومرتبطة باتجاه تطور عالم الاقتصاد الحديث».

لقد تنبأ سانتيلان بوظيفة التنظيم والتخطيط كما ستنفذ بواسطة مجلس اقتصادي فدرالي، والذي لن يكون سلطة سياسية، وإنما ببساطة جهازاً للتنظيم، منظماً اقتصادياً وإدارياً. تأتي مؤشراته من أسفل، من مجالس المصانع متحدة مع مجالس نقابات العمال لمختلف فروع الصناعة، وفي المجالس الاقتصادية المحلية. وبالتالي فإن المجلس الفدرالي يتسلّم نهاية سلسلتي السلطة: واحدة قائمة على المحلية والأخرى على المهنة وتزويده بالإحصائيات من تنظيمات القاعدة بحيث يدرك الموقف الاقتصادي الحقيقي في أية لحظة مطلوبة، بهذه الطريقة يمكن أن يكتشف معظم نواحي العجز ويحدد الأقسام التي هي بحاجة إلى صناعات أو محاصيل جديدة بإلحاح أكثر «ولن يعود رجال الشرطة ضروريين عندما تنطرح السلطة العليا بين الأرقام والإحصائيات» في نظام كهذا لا نفع لقسرية الدولة، إنها عميقة وحتى مستحيلة. ينظر المجلس الفدرالي في تكثير أنواع جديدة ونمو الاستقلال بين المقاطعات وتشكيل التضامن الوطني. إنه حافز البحث في أساليب جديدة للعمل وعمليات تصنيع جديدة وتقنيات زراعية جديدة، إنه موزع العمل من منطقة إلى أخرى ومن فرع اقتصاد إلى آخر.

ليس من شك أن سانتيلان تعلم قدراً كبيراً من الثورة الروسية، من جانب أنها علّمته الحذر من خطر انبعاث الدولة والأجهزة البيروقراطية إلا أنها من جانب آخر علّمته أن ثورة منتصرة لا تستطيع تجنب العبور من خلال أشكال الاقتصاد الوسطى[1] التي يعيش فيها لبرهة ما يدعوه ماركس ولينين «القانون البرجوازي» على سبيل المثال: لن يكون هناك تساؤلٌ عن إلغاء الأعمال

(1) لا مجال لتداخله مع أشكال السياسة الوسطية التي يرفضها اللاسلطويون خلافاً للماركسيين.

المصرفية وسقوط النظام النقدي مقلوعاً في الحال. يجب تحويل هذه المؤسسات واستخدامها كوسائل مؤقتة في التبادل لحفظ الحياة الاجتماعية دارجة ولتهيئة السبيل لأشكال اقتصادية جديدة.

كان لسانتيلان أن يلعب دوراً مهماً في الثورة الإسبانية: صار على التوالي عضواً في اللجنة المركزية للمليشيا المعادية للفاشية (نهاية تموز 1936) عضواً في المجلس الاقتصادي لقطالونيا (11 آب) ووزير الاقتصاد لحكومة قطالونيا (منتصف كانون الأول).

4 ـ ثورة «سياسية»:

هكذا تهيأت الثورة الإسبانية بصورة جيدة نسبياً في أذهان المفكرين التحرريين وفي وعي الشعب معاً، ولهذا ليس غريباً أن اعتبر اليمين الإسباني الانتصار الانتخابي للجبهة الشعبية في شباط 1936 كبداية للثورة.

في الحقيقة سرعان ما حطمت الجماهير الإطار الضيق لنجاحها في صناديق الانتخابات. تجاهلت قواعد اللعبة البرلمانية وحتى لم تتريث لحين تشكيل حكومة لكي تطلق سراح السجناء. توقف الفلاحون عن دفع بدلات الإيجار إلى ملاكي الأراضي، واستولى عمال الزراعة المياومون على الأرض وبدأوا بحراثتها، وتحررت القرى من مجالسها البلدية، وأسرعت في إدارة نفسها بنفسها، وأضرب رجال السكك الحديدية لدعم مطلب تأميم السكك الحديدية، ودعا عمال بناء مدريد إلى رقابة العمال، الخطوة الأولى نحو التشريك.

كان رد فعل آمري الجيش بقيادة الجنرال فرانكو تجاه علامات الثورة هو العصيان. إلا أنهم نجحوا فقط في تصعيد عملية ثورة كانت في الحقيقة قد بدأت توّاً. اتخذ الشعب موقف الهجوم في مدريد، برشلونة، ڤالانسيا خاصة، وعلى الأغلب في كل مدينة كبيرة عدا سيفيل، وحاصر الثكنات، وأقام

المتاريس في الشارع، واحتل المواقع الاستراتيجية. اندفع العمال من كل جانب استجابة لنداء نقاباتهم. انقضّوا على معاقل قوات فرانكو دون مبالاة بحياتهم: بأيد خالية وصدور مكشوفة. نجحوا في الاستيلاء على أسلحة من العدو وإغراء جنود للالتحاق بصفوفهم.

نتيجة لهذه الفورة الشعبية أوقف العصيان العسكري خلال الأربعة والعشرين ساعة الأولى، ثم بدأت الثورة الاجتماعية بعفوية تامة. تقدمت بصورة غير متوازنة بالطبع في مختلف المناطق والمدن ولكن باندفاع أشد في قطالونيا وخاصة برشلونة. عندما أفاقت السلطات القائمة من دهشتها وجدت أنها لم تعد قائمة تماماً. بدت الدولة، الشرطة، الجيش، الإدارة جميعاً وقد فقدت مبررات وجودها. ضُرب الحرس الوطني بشدة أو تمت تصفيته وكان العمال المنتصرون يحفظون النظام. كانت المهمة الأكثر إلحاحاً هي تنظيم التجهيزات الغذائية: لجان وزعت المواد الغذائية من المتاريس منقولة إلى مخازن التجهيزات العسكرية وافتتحت فيما بعد مطاعم جماعية ونُظمت الإدارة المحلية بواسطة لجان الأحياء ونظرت لجان الحرب في تسخير المليشيا العمالية إلى الجبهة. أصبح مركز نقابة العمال قاعة البلدية الحقيقية. لم يعد هذا «دفاعاً عن الجمهورية» ضد الفاشية، إنه كان الثورة ـ ثورة لم يكن لها، خلافاً للثورة الروسية، أن تخلق كل أجهزتها السلطوية من نقطة الانطلاق، أصبح انتخاب السوڤياتات غير ضروري بوجود التنظيم النقابي اللاسلطوي الكلي السيطرة مع لجانه المختلفة في القاعدة ـ. في قطالونيا كانت (سي.أن.تي) وأقليتها (إف.أي.آي) أكثر قوة من السلطات التي صارت مجرد شبح.

في برشلونة خاصة: لم يكن هناك ما يمنع لجان العمال نظرياً من الاستيلاء على السلطة التي كانوا يمارسونها فعلياً الآن. لكنهم لم يعملوا هكذا. لعقود من الزمن كانت اللاسلطوية الإسبانية تحذر الشعب من خدع «السياسية» مؤكدة على أولوية «الاقتصاد» نشدت باستمرار حرف الشعب عن

ثورة ديمقراطية برجوازية لكي تقوده إلى الثورة الاجتماعية عبر العمل المباشر، وعلى حافة الثورة ناقش اللاسلطويون شيئاً كهذا: دعوا الساسة يفعلون ما يشاؤون ونحن «اللاسياسيين» سنضع أيدينا على الاقتصاد. في 3 أيلول 1936 نشرت «نشرة استعلامات» (سي. أن. تي) و(أف. أي. آي) مقالة بعنوان «لا جدوى الحكومات» عارضة أن المصادرة الاقتصادية التي كانت تأخذ مكانها ستؤدي بالأمر الواقع إلى «تصفية الدولة البرجوازية التي ستموت من الاختناق».

5 ـ لاسلطويون في الحكومة:

ارتد هذا الاستخفاف بالحكومات على كل حال عاجلاً إلى الوراء وصار اللاسلطويون الإسبان حكوميين فجأة. بعد ثورة 19 تموز في برشلونة مباشرة. تمت مقابلة بين الناشط اللاسلطوي غارسيا أوليفر ورئيس حكومة قطالونيا، الليبرالي البرجوازي كومبانيس. كان جاهزاً للاستقالة إلا أنه ظل في الحكم. رفضت (سي. أن. تي) و(أف. أي. آي) تطبيق «دكتاتورية» لاسلطوية وأعلنت كلتاهما عن رغبتهما في التعاون مع مجاميع اليسار الأخرى. بحلول منتصف أيلول كانت (سي. أن. تي) تدعو رئيس وزراء الحكومة المركزية لاركو كاباليرو إلى إقامة «مجلس دفاع» من خمسة عشر عضواً حيث ترضى هي بخمسة مقاعد فيه. كان هذا في الواقع قبولاً لفكرة المساهمة في مجلس الوزراء تحت اسم آخر.

انتهى اللاسلطويون إلى قبول حقائب وزراية في حكومتين: الأولى في قطالونيا ولاحقاً في مدريد. كان اللاسلطوي الإيطالي كاميليو بيرنيري في برشلونة وفي 14 نيسان 1937 كتب رسالة مفتوحة إلى رفيقته الوزيرة فيدريكا مونتسيني مؤنباً اللاسلطويين على كونهم في الحكومة كرهائن فقط وواجهات «للساسة الذين يغازلون العدو الطبقي»[1] صحيح أن الدولة التي وافق

---

(1) عقدت رابطة العمال الأُمميين التي انضمت إليها سي أن تي مؤتمراً خاصاً في باريس 11 ـ 13 =

اللاسلطويون على الاتحاد معها بقيت دولة برجوازية ليس لموظفيها وملاكاتها السياسية سوى القليل من الولاء للجمهورية غالباً. فماذا كان السبب في هذا التغيير في الموقف؟

لقد قامت الثورة الإسبانية كنتيجة لهجوم بروليتاري مضادّ على انقلاب ثورة ـ مضادّة. منذ البداية ارتدت الثورة مسوح الدفاع عن النفس، صفة عسكرية بسبب الضرورة في مقاومة كتائب الكولونيل فرانكو بواسطة المليشيا المعادية للفاشية في مواجهة خطر مشترك. اعتقد اللاسلطويون أن لا خيار لهم سوى الالتحاق مع كل قوات نقابات العمال الأخرى، وحتى الأحزاب السياسية التي كانت مستعدة للوقوف ضد عصيان فرانكو. عندما زادت القوى الفاشية من مساندتها لفرانكو انحدر النضال ضد الفاشية إلى حرب حقيقية. . . حرب شاملة من الطراز التقليدي. استطاع التحرريون المساهمة فيها بالتخلي عن مبادئهم السياسية والعسكرية معاً أكثر فأكثر وحسب. استنتجوا زيفاً إمكان ضمان انتصار الثورة بكسب الحرب أولاً وحده، وكما كان لسانتيلان أن يعترف بأنهم «ضحوا بكل شيء» من أجل الحرب. ناقش بيرنيري عبثاً ضد أولوية الحرب بحد ذاتها وأكّد إمكان ضمان هزيمة فرانكو بواسطة حرب ثورية فحسب. كان كبح جماح الثورة في الحقيقة بإضعاف الذراع القوي للجمهورية: المساهمة الفعالة للجماهير. حتى ولو كان العنصر الأكثر جدية في القضية: إن إسبانيا الجمهورية قد حوصرت من قبل الديمقراطيات الغربية واحتاجت إزاء الخطر المميت من القوات الفاشية المتقدمة إلى العون العسكري الروسي لكي تعيش. أُعطي هذا العون بشرطين مضاعفين:

= حزيران 1937 جرى فيه تأنيب مركز نقابات العمال السندكالية ـ اللاسلطوية على مشاركته في الحكومة وعلى التنازلات التي قام بها بالنتيجة. ودعماً لهذا صمم سباستيان فور، على نشر سلسلة مقالات في أعداد 8 ـ 15 ـ 22 تموز من «التحرري» بعنوان «الانحدار المميت» كانت هذه نقداً مريراً لقرار اللاسلطويين الإسبان بالمساهمة في الحكومة أثارت سي أن تي حنق سكرتير رابطة العمال الأُمميين بيير بيسنارد مما دفعه للاستقالة.

1 ـ يجب أن يستفيد منه الحزب الشيوعي بأكثر ما يمكن واللاسلطويون بأقل ما يمكن.

2 ـ أراد ستالين بأي ثمن إعاقة انتصار ثورة اجتماعية في إسبانيا ليس فقط لأنها ستكون تحررية وإنما أيضاً بسبب مصادرتها لاستثمارات رأس المال العائد لبريطانيا التي وعدت أن تكون حليفة للاتحاد السوڤياتي في «التحالف الديمقراطي» ضد هتلر. ذهب الشيوعيون الإسبان بعيداً إلى حد إنكار نشوب ثورة: حكومة شرعية تحاول إسقاط تمرد عسكري لا غير. في أيار 1937 كان هناك صراع دموي في برشلونة وجرد العمال من أسلحتهم بواسطة قوات حفظ النظام تحت قيادة ستالينية. باسم النشاط الموحد ضد الفاشية منع اللاسلطويون العمال من الانتقام. إن الإصرار المحزن الذي رموا معه بأنفسهم في خطأ الجبهة الشعبية حتى الإخفاق النهائي للجمهورية لا يمكن بحثه في هذا الكتاب الصغير.

6 ـ التسيير الذاتي في الزراعة:

مع ذلك أظهر اللاسلطويون الإسبان أنفسهم في الحقل الذي علّقوا عليه الأهمية الكبرى ـ الحقل الاقتصادي أكثر صلابة بكثير وساوموا إلى درجة أدنى بكثير. كان التسيير الذاتي الزراعي والصناعي مندفعاً ذاتياً بصورة واسعة جداً ولكن عندما ازدادت الدولة قوة والحرب شمولية أكثر فأكثر نما تناقض حاد ومتزايد بين جمهورية برجوازية تحارب وتجربة في الشيوعية أو بالأحرى في الجماعية التحررية. في النهاية كان على التسيير الذاتي أن يتراجع ويضحى على مذبح «ضد ـ الفاشية» تبعاً لبيراتس، فإن دراسة منهجية لهذه التجربة في التسيير الذاتي لم تعدّ لحد الآن، ستكون مهمة عسيرة ما دام التسيير الذاتي قدم أشكالاً متنوعة عديدة في مختلف البقاع وفي مختلف الأزمنة. إن هذا الموضوع يستحق كل الاهتمام الزائد لأنه يُعرف القليل نسبياً عنه. حتى داخل صفوف الجمهوريين، إنه إما أُهمل أو أُعطي له قدر أقل من استحقاقه، لقد

أخفته الحرب الأهلية، وتغطيه الظلال حتى اليوم في الذاكرة الإنسانية. على سبيل المثال ليست هناك إشارة إليه في فيلم «الموت في مدريد» وربما هو لحدّ الآن التراث الأكثر إبداعاً للاسلطوية الإسبانية.

كانت ثورة 19 تموز 1936 فعالية دفاعية خاطفة للشعب لمقاومة عصيان فرانكو. هجر الصناعيون وكبار ملاكي الأراضي ممتلكاتهم حالاً ولجأوا إلى خارج البلاد. استولى العمال والفلاحون على هذه الممتلكات المهجورة، وعزم عمال الزراعة المياومون على الاستمرار في حرث التربة من قبلهم. ارتبطوا معاً في «جماعيات» عفوية تماماً. في قطالونيا دُعي إلى مؤتمر إقليمي للفلاحين مجتمعين من قبل (سي.أن.تي) في 5 أيلول ووافق على جماعية الأرض تحت إدارة ورقابة نقابة العمال وتشريك العقارات الكبيرة وأملاك الفاشيين، بينما لملاكي الأراضي الصغار الاختيار الحرّ ما بين الملكية الفردية والملكية الجماعية. جاء المرسوم القانوني فيما بعد في 7 تشرين الأول 1936 فصادرت الحكومة الجمهورية المركزية بدون تعويض أملاك «أشخاص تعرضوا للشبهة في العصيان الفاشي» كان هذا الإجراء ناقصاً من وجهة نظر قانونية ما دام قد قنن فقط قسماً صغيراً جداً مما اضطلع الشعب توّاً بتنفيذه بصورة عفوية. لقد نفذ الفلاحون المصادرة بدون تمييز بين هؤلاء الذين ساهموا في العصيان العسكري وهؤلاء الذين لم يساهموا.

في البلدان غير المتطورة حيث مصادر التقنية الضرورية للزراعة الكبيرة غائبة فإن الفلاح الصغير يكون أكثر انجذاباً إلى الملكية الخاصة التي لم يتمتع بها لحدّ الآن عما إلى الزراعة الاشتراكية. على كل حال، في إسبانيا عوضت التربية التحررية وتقاليد جماعية عن التخلف التقني وقاومت الميول الفردية للفلاحين وحولتهم نحو الاشتراكية مباشرة. كانت الأخيرة اختيار الفلاحين الأكثر فاقة بينما تمسك هؤلاء الذين هم أحسن حالاً بقليل، كما في قطالونيا، بالفردية، اختارت غالبية عظمى (تسعون بالمائة) من عمال الأراضي الالتحاق

بالجماعيات منذ البداية جداً. خلق هذا القرار تحالفاً وثيقاً بين الفلاحين وعمال المدن لكون الأخيرين مناصري تشريك وسائل الإنتاج بحكم الطبقية الفعلية لمهنهم، ويبدو حتى أن الوعي الاجتماعي كان أعلى في الريف عما هو في المدن.

أقامت الجماعيات الزراعية نفسها مع إدارة مزدوجة اقتصادية وجغرافية كانت الوظيفتان محددتين، بل في أغلب الحالات تمثلها أو تسيطر عليها. نقابات العمال انتخبت جمعية عامة للفلاحين العاملين في كل قرية لجنة تنظيمية تكون مسؤولة عن الإدارة الاقتصادية. فيما عدا السكرتير استمر كل الأعضاء في أعمالهم اليدوية. كان العمل ملزماً لكل الرجال الأصحاء ما بين الثامنة عشرة والستين. قسم الفلاحون إلى مجاميع من عشرة أو أكثر. قاد كل منها مندوب وخصص لكلٍّ مساحة للحراثة أو مهمة للإنجاز متناسبة مع عمر أعضائها وطبيعة العمل ذات العلاقة. تستقبل اللجنة التنظيمة المندوبين من المجاميع كل مساء. مع الاعتبار للإدارة المحلية دعت الكومونة غالباً السكان مجتمعين إلى اجتماع لتلقي تقارير عن الأنشطة المنفذة. وضع كل شيء في الحوزة المشتركة باستثناء الملابس، الأثاث، المدَّخرات الشخصية، حيوانات محلية صغيرة، قطعة أرض حديثة ودواجن أُبقيت للاستعمال العائلي. تجمَّع الحرفيون، مصففو الشعر، صانعو الأحذية الخ في جماعيات، وقسمت الأغنام العائدة للوحدة الاجتماعية إلى قطعان من عدة مئات. وضعت تحت إمرة الرعاة، ووزعت بصورة منهجية في المراعي الجبلية.

مع أخذ توزيع المنتجات بعين الاعتبار جُرِّبت أنظمة متنوعة، بعض يقوم على الجماعية وأُخرى على الشيوعية الشاملة تقريباً، ولا زال هناك أخرى ناتجة عن توفيق بين الاثنتين. الأكثر شيوعاً هو أن قام الدفع على أساس حاجات العائلة. استلم كل رئيس عائلة أجراً يومياً ببيزات مؤشر عليها بصورة خاصة، ويمكن تبديلها بسلع استهلاكية وحسب من المخازن العامة التي

أقيمت غالباً في الكنيسة أو أبنيتها. كل رصيد لا يستهلك يودع في حساب دائن بالبيزات لصالح الشخص. كان من الممكن سحب مقدار محدد لمصروفات الجيب من هذا الرصيد. كان الإيجار، الكهرباء، الرعاية الصحية، الأدوية، إعانة الشيوخ الخ مجانياً جميعاً. كان التعليم مجانياً أيضاً ويؤدى غالباً في مدارس أنشئت في الأديرة السابقة. وكان ملزماً لجميع الأطفال دون الرابعة عشرة ممن كانوا ممنوعين من أداء العمل اليدوي.

استمرت العضوية في الجماعية على كونها طوعية كما كان مطلوباً في الاهتمام الأساسي للاسلطوية بالحرية. لم يمارس أي ضغط يتحمله المزارعون الصغار. اختيار البقاء خارج الوحدة الاجتماعية يعني عدم إمكانهم توقع استلام خدماتها ومنافعها ما داموا يدّعون اكتفاءهم ذاتياً. على كل حال، كان بإمكانهم اختيار المساهمة كما يرغبون في عمل مشترك وجلب منتوجاتهم إلى المخازن العامة. يقبلون في الاجتماعات العامة مع التمتع ببعض المنافع الجماعية، ممنوعون فقط من تولي أراضي أكثر مما يستطيعون حرثه، ويخضعون لقيد واحد فحسب: أن لا يخلّ حضورهم أو أملاكهم بالنظام الاشتراكي. في بعض الأماكن أعيد ضم المساحات المؤممة في وحدات أوسع بالتبديل الاختياري لقطع الأراضي مع الفلاحين الفرديين. في أغلب القرى قلّ عدد الفرديين سواء الفلاحين أو الحرفيين كلما انقضى الوقت، شعروا بالعزلة وفضّلوا الالتحاق بالجماعيات.

إنه يكشف أن الوحدات التي طبقت المبدأ الجماعي للأجر اليومي كانت أكثر تماسكاً بالمقارنة من القلة التي جربت تأسيس الشيوعية الشاملة بسرعة جدّاً ودون حسبان للأنانية التي لا زالت متجذرة في الطبيعة الإنسانية وخاصة بين النساء. في بعض القرى حيث حُظر استعمال النقود وأعان السكان أنفسهم من الحوزة المشتركة منتجين ومستهلكين ضمن الحدود الضيقة للجماعيات جعلتهم يشعرون مضار هذا الاكتفاء الذاتي المشلول، وقد عادت النزعة الفردية

سريعاً إلى المقدمة، بالتسبب في تحطم الوحدة الاجتماعية بواسطة انسحاب عدة مزارعين صغار سابقاً ممن انضموا ولكن دون أن تكون لهم طريقة شيوعية حقيقية في التفكير.

اتحدت الكومونات في فدراليات كانتونات، وكانت فوقها الفدراليات الإقليمية، عوملت كل الأراضي العائدة لفدرالية كانتونية نظرياً كوحدة مستقلة وبدون حدود وسيطة[1] دُفع بالتضامن بين القرى إلى حده الأقصى، وجعل التساوي في الاعتمادات المالية من إعطاء المساعدة إلى الجماعيات الأكثر فقراً ممكناً. صارت المعدات، المواد الخام والعمل الفائض ميسورة جميعاً للوحدات الاجتماعية التي هي بحاجة إليها.

اختلفت مديات التشريك الريفي في الأقاليم المختلفة. كانت قطالونيا، كما قيل توّاً. أرض المزارع الصغيرة والمتوسطة الحجم وللفلاحة فيها تقاليد فردية قوية. وهكذا لم يكن هناك أكثر من بضع جماعيات مرشدة. من جانب آخر تم تشريك ثلاثة أرباع الأرض في أراغون. حُفّزت المبادرة الخلاقة لعمال الزراعة في هذا الإقليم بواسطة وحدة ميليشيا تحررية ـ رتل دوروتي ماراً في طريقه إلى الجبهة الشمالية لمحاربة قوات فرانكو وبواسطة المنشأة اللاحقة لسلطة ثورية أُوجدت في القاعدة والتي كانت وحيدة من نوعها في إسبانيا الجمهورية. أقيم حوالي 450 جماعية مع نصف مليون عضو تقريباً في منطقة ليفانت (خمسة أقاليم والعاصمة ڤالانسيا) الأغنى في أسبانيا، وأنشىء حوالي 900 جماعية مغطية 43 بالمائة من المساحة الجغرافية و50 بالمائة من إنتاج الحمضيات و70 بالمائة من تجارة الحمضيات. في قشطالة أُوجدت نحو 300 جماعية مع حوالي 1,000.000 عضو. تقدم التشريك أيضاً في استريما دورا وجزء من الأندلس بينما قُمعت بضع محاولات مبكرة سريعاً في استورياس.

(1) «نظرياً» لأنه كانت هناك بعض الدعاوى بين القرى في هذا الموضوع.

مما يجب ذكره أنه لم تكن اشتراكية جذور العشب من عمل النقابية ـ اللاسلطوية وحدها كما ظن أناس عديدون. تبعاً لجاستون ليفال. كان مؤيدو التسيير الذاتي غالباً «تحرريين بدون العلم بذلك» وفي استريمادورا والأندلس أخذ الديمقراطيون الاجتماعيون، الكاثوليك وحتى الشيوعيون والفلاحون في استورياس المبادرة إلى الجماعية. على كل حال، في المناطق الجنوبية غير المسيطر عليها من قبل اللاسلطويين حيث تولت البلديات عقارات واسعة بأسلوب سلطوي لم يشعر العمال المياومون لسوء الحظ بكون هذا تحولاً ثورياً: لم تتبدل أجورهم وظروفهم ولم يكن هناك تسيير ذاتي.

كان التسيير الذاتي الزراعي نجاحاً لا جدال فيه إلا حيث تعرّض فيه للتخريب من قبل مناوئيه أو أوقف بسبب الحرب. لم يكن من الصعب تحطيم الرقم القياسي للملكية الخاصة الواسعة المدى لأنه كان باعثاً على الأسى: نحو 10.000 مالك أرض إقطاعي كان بحوزتهم نصف أراضي شبه جزيرة إسبانيا. وكان ترك جزء واسع من أراضيهم مثقلاً بالنير والنير ملائماً لهم ومُفضّلاً على السماح لنمو طبقة المزارعين المستقلين أو إعطاء عمالهم المياومين أجوراً هابطة لأن تحقيق أي من هذين سيقلل من سطوتهم الإقطاعية القروسطية وبالتالي أعاق وجودهم النمو الكامل للثروة الطبيعية للأرض الإسبانية.

وضعت الأرض بعد الثورة في وحدات معقولة بتواصل تحرث على نطاق واسع تبعاً للخطة العامة وتوجيهات المهندسين الزراعيين. حققت دراسات الفنيين الزراعيين 30 ـ 50% زيادة في الغلة عما قبل. زادت المساحات المحروثة، واستخدمت الطاقة البشرية والحيوانية والمكيانيكية بطريقة أكثر عقلانية واكتملت أساليب العمل. تنوعت المحاصيل وتوسع الإرواء. بوشر بإعادة إنشاء الغابات وابتداء بمشاتل الأشجار. أُنشئت محلات تربية الخنازير، بنيت المدارس الفنية الريفية وأقيمت حقول محسّنة، طُوِّرت تربية قطعان منتقاة، وضعت صناعات زراعية ملحقة في التشغيل. أظهرت الزراعة

الاشتراكية نفسها متفوقة على مالكي الأراضي الواسعة الغائبين الذين تركوا جزءاً من الأرض نيراً ونير من جانب، ومن جانب آخر، على المزارعين الصغار الذين يحرثون بتقنية بدائية مع بذور ضعيفة وبدون تسميد.

وجدت أول محاولة في التخطيط الزراعي قائمة على أساس إحصائيات الإنتاج والاستهلاك المعدة من قبل الجماعيات. جُمعت معاً بواسطة لجان كانتونية دقيقة، ثم بواسطة لجان إقليمية راقبت كميات ونوعيات الإنتاج ضمن مناطقها. ونُظمت التجارة خارج الإقليم بواسطة لجنة إقليمية جمعت السلع المزمع بيعها وتبديلها لشراء السلع التي يحتاج إليها الإقليم ككلّ. أبرزت النقابية ـ اللاسلطوية الريفية في اليفانت قدرتها التنظيمية وقابليتها في التنسيق بما فيه أفضل النفع. احتاج تصدير الحمضيات تقنية تجارية منهجية حديثة تصرفت فيها بالمعية برغم بضعة خلافات قوية مع المنتجين الأثرياء.

سار التطور الثقافي يداً بيد الازدهار الماديّ بوشر بحملة تعليم البالغين القراءة والكتابة، وأقامت الفدراليات المنطقية برامج محاضرات، أفلام وعروض مسرحية في كل القرى. لم تكن هذه النجاحات تعود إلى قوة التنظيم النقابي وحسب، وإنما أيضاً إلى درجة مهمة إلى ذكاء ومبادرة الشعب. مع أن غالبيته كانت أمية فإن الفلاحين أظهروا درجة من الوعي الاشتراكي وحساً عملياً جيداً وروحاً تضامنية وتضحية أثارت إعجاب المراقبين الأجانب. زار فينير بروكوي من حزب العمال المستقل البريطاني فيما بعد، لورد بروكوي حالياً جماعية سيجورب وأفاد «أن روحية الفلاحين، حماسهم والطريقة التي يشاركون بها في الجهد الجماعي والفخر الذي يضعونه فيه كلها أمور تستحقّ الإعجاب».

7 ـ التسيير الذاتي في الصناعة:

جُرّب التسيير الذاتي في الصناعة أيضاً وخاصة في قطالونيا، المنطقة الأكثر تصنيعاً في إسبانيا. تولى العمال الذين هرب أرباب أعمالهم بعفوية إبقاء المعامل تعمل. أُديرت مصانع برشلونة التي رفرف عليها عَلم (سي.أن.تي)

الأحمر والأسود لأكثر من أربعة شهور بواسطة لجان العمال الثوريين وبدون مساعدة أو تدخل الدولة وأحياناً حتى بدون عون إداري مجرّب. كان للبروليتاريا بعض الحظ الحسن في مساعدتها من قبل الفنيين. في روسيا في سنة 1917 ـ 1918 وفي إيطاليا سنة 1920 إبّان تلك التجارب القصيرة في احتلال المصانع رفض المهندسون مساعدة تجربة التشريك الجديدة. في إسبانيا تعاون العديد منهم عن كثب مع العمال منذ البداية جداً.

انعقد مؤتمر لنقابات العمال يمثل 600.000 عامل في برشلونة في تشرين الأول 1936 بهدف تطوير تشريك الصناعة وشُرِّعت مبادرة العمال بمرسوم حكومة قطالونيا مؤرخاً 24 تشرين الأول 1936 صادق هذا على الواقع المنجز، ولكن قدّم عنصراً للرقابة الحكومية إلى جانب التسيير الذاتي خلق قطاعين أحدهما اشتراكي والآخر خاص. كانت كل المصانع التي فيها أكثر من مائة عامل تصبح اشتراكية (وتلك التي فيها من خمسين إلى مائة يمكن أن تكون بناء على طلب ثلاثة أرباع العمال) وكذلك كانت تلك التي إما أُدين مالكوها «بالتخريب» من قبل محاكم الشعب أو أوقفوا الإنتاج وتلك التي تبرر أهميتها عدم ضمِّها للقطاع الخاص (في الواقع أصبحت عدة مشاريع اشتراكية لأنها كانت مثقلة بالديون).

كان المصنع المدار ذاتياً يوجَّه بواسطة لجنة إدارية من خمسة إلى خمسة عشر عضواً يمثلون مختلف المهن والخدمات. كانوا يعينون من قبل العمال في اجتماع عام ويخدمون لسنتين ويتبدل نصفهم كل سنة تُعين اللجنة مديراً تخوله كل أو جزءاً من صلاحيتها. في المصانع الكبيرة جداً كان اختيار مدير يتطلب مصادقة المنظمة المشرفة، فضلاً عن تعيين مراقب حكومي لكل لجنة إدارة. في النتيجة إنه لم يكن تسييراً ذاتياً كاملاً بل نوعاً من الإدارة المشتركة في علاقة وثيقة جداً مع حكومة قطالونيا.

يمكن حل لجنة الإدارة إما بواسطة الاجتماع العام للعمال أو بواسطة

المجلس العام للفرع المختص من الصناعة (المؤلف من أربعة ممثلين للجان الإدارية وثمانية من نقابات العمال وأربعة فنيين معينين من قبل المنظمة المشرفة) خطط هذا المجلس العام العمل وحدد حصص الأرباح وكانت قراراته إلزامية، وفي تلك المشاريع التي بقيت في أيدٍ خاصة كان للجنة عمال منتخبة مراقبة عملية الإنتاج وظروف العمل «بتعاون وثيق مع رب العمل» احتفظ بنظام الأجور دون مسّ في المصانع الاشتراكية. استمر كل عامل على تقاضي أجر ثابت. لم توزع الأرباح على مستوى المصنع ورفعت الأجور قليلاً جداً بعد التشريك وفي الحقيقة حتى أقل مما في القطاع الذي بقي خاصاً.

كان مرسوم 24 تشرين الأول 1936 توفيقاً بين الطموح إلى التسيير الذاتي والنزوع إلى وصاية الحكومة اليسارية، بالإضافة إلى توفيق بين الرأسمالية والاشتراكية. وضعت مسودته من قبل وزير تحرري وصادقت (سي.أن.تي) عليه لأن القادة اللاسلطويين كانوا في الحكومة فكيف يمكنهم معارضة تدخل الحكومة في التسيير الذاتي في حين أن لهم أنفسهم أياد موضوعة على عتلات السلطة؟ إذا ما سمح للذئب بالدخول في حظيرة الأغنام ذات مرة فإنه يقضي عليها دائماً بالتظاهر بكونه صاحبها.

برغم السلطات المهمة التي منحت للمجالس العامة لفروع الصناعة فقد ظهر في التطبيق ميل التسيير الذاتي للعمال إلى إبراز نوع من الأنانية الضيقة، أنواع من «النزعة التعاونية البرجوازية» كما دعا بيراتس، فكل وحدة إنتاج تهتم بنفسها فقط وبمصالحها هي. كان هناك جماعيات غنية وجماعيات فقيرة. يقدر البعض على دفع أجور عالية نسبياً بينما أخريات لا تستطيع حتى تدبير الحفاظ على مستوى الأجور السائدة قبل الثورة. كان لبعضها الكثير من المواد الأولية وأخريات القليل جداً الخ. سرعان ما عولج عدم التوازن هذا بشكل عادل بإيجاد صندوق مركزي للتمويل المتوازن جعل من الممكن توزيع الموارد بعدالة. وفي كانون الأول 1936 عقد اجتماع نقابي في ڤالانسيا تقرر فيه التنسيق

بين الأقسام المختلفة للإنتاج في خطة عامة متناسقة حيث ستجعل من الممكن تجنب المنافسة المؤذية وتبديد الجهود.

في هذه النقطة تولت النقابات إعادة التنظيم النموذجية لكلّ المهن، غالقة مئات المشاريع الصغيرة وتركيز الإنتاج في تلك التي لها معدات أفضل، على سبيل المثال: خفضت مسابك المعادن في قطالونيا من أكثر من 70 إلى 24 ومدابغ الجلود من 71 إلى 40 وأعمال الزجاج من حوالي 100 إلى حوالي 30. مهما يكن، لم يستطع التركيز الصناعي تحت رقابة النقابات من التطور سريعاً وكاملاً كما تمنى المخططون النقابيون اللاسلطويون لماذا كان هذا؟ لأن الستالينيين والإصلاحيين عارضوا الاستيلاء على ممتلكات الطبقة الوسطى وأظهروا تقديراً مشكوكاً فيه للقطاع الخاص.

لم يطبق مرسوم التشريك القطالوني في المراكز الصناعية الأخرى لإسبانيا الجمهورية ولم تكن الجماعية مألوفة كثيراً كما في قطالونيا، على كل حال أوقفت المشاريع الخاصة غالباً على لجان رقابة العمال كما كان الحال في استروياس.

كان التسيير الذاتي الصناعي ناجحاً إجمالاً كما كان التسيير الذاتي الزراعي. من جانب كان المراقبون المباشرون ممتلئين بالإطراء خاصة بعد حسبان العمل الممتاز للخدمات العامة الحضرية المدارة ذاتياً. أُديرت بعض المصانع، إن لم يكن كلها، بطراز مشهود. ساهمت الصناعة الاشتراكية بشكل رئيسي في الحرب ضد الفاشية. أقيمت مصانع الأسلحة القليلة العدد والمبنية في إسبانيا قبل سنة 1936 خارج قطالونيا وكان أرباب العمل في الحقيقة خائفين من بروليتاريا قطالونيا، وعليه كان من الضروري في برشلونة تحويل المصانع بسرعة هائلة لكي تقدر بذلك على خدمة الدفاع عن الجمهورية، وتنافس العمال والفنيون بعضهم مع البعض الآخر في الحماس والمبادرة، وعاجلاً جداً أخذت المواد الحربية المصنوعة بصورة رئيسية في قطالونيا تصل إلى الجبهة.

إلى الجبهة. لم يوضع جهد أقل في صناعة المنتجات الكيميائية الجوهرية للأغراض الحربية. سارت الصناعة الاشتراكية قُدماً بسرعة مساوية في حقل الاحتياجات المدنية أيضاً، ولأول مرة شُرع بالاهتداء إلى الخيوط النسيجية في إسبانيا وتقدمت صناعة خيوط القنب والحلفاء وقش الأرز والسيللوز.

8 ـ تقويض التسيير الذاتي:

في نفس الوقت بقيت الاعتمادات والتجارة الخارجية في أيدي القطاع الخاص بسبب أن الحكومة الجمهورية البرجوازية رغبت بذلك. صحيح أن الدولة راقبت البنوك ولكنها لم تهتم بوضعها قيد التسيير الذاتي. كان العديد من الجماعيات يعوزها الرأسمال السيّال وعليها أن تعيش على الاعتمادات المالية المتيسرة والمستولى عليها في زمن ثورة تموز 1936 وبالنتيجة كان عليها أن تؤمن احتياجاتها اليومية بالصدفة من مقتنيات مثل مجوهرات مصادرة ومواد نفيسة تعود للكنائس أو الأديرة أو لمؤيدي فرانكو الهاربين. اقترحت (سي. إن. تي) إيجاد «بنك كونفدرالي» لتمويل التسيير الذاتي. لكنه كان خيالياً محاولة تنافسه مع الرأسمال المالي الخاص الذي لم يتم تشريكه. كان الحل الوحيد وضع الرأسمال المالي كله في أيدي البروليتاريا المنظمة لكن (سي. أن. تي) كانت حبيسة في الجبهة الشعبية ولم تجرؤ على الذهاب إلى هذا الحد.

على كل حال، كانت العقبة الرئيسية هي العداء المتزايد المكشوف للتسيير الذاتي والمعلن عنه من قبل المجاميع السياسية العامة المختلفة لإسبانيا الجمهورية وقد تبدّل بتفرق شمل «الجبهة المتحدة» بين الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة وهنا جرى «لعب لعبة» العدو الفاشي (ذهب منتقصو قيمته بعيداً إلى حد حجب الأسلحة عن الطليعة التحررية في جبهة أراغون التي أُجبرت على مواجهة رشاشات الفاشيين بالأيدي العارية، ومن ثم جرى توبيخها لعدم فاعليتها)

كان هو الوزير الستاليني للزراعة فايسنتي أوربي الذي أعد مرسوم 7 تشرين الأول 1936 الذي جعل جزءاً من الجماعيات الريفية قانونياً، على عكس الظاهر كان متشرباً بروح عدائية للجماعية ورجا إرباك الفلاحين الذين يعيشون في مجاميع اشتراكية، وأُخضعت شرعية الجماعيات لتعليمات قانونية قاسية جداً ومعقدة. أُلزمت الجماعيات بالتكيف وفقاً لها خلال فسحة وقت ضيقة جداً وتلك التي لم تصبح قانونية، في الموعد المحدد وضعت خارج نطاق القانون آلياً وتعرضت أراضيها للإعادة إلى ملاكيها السابقين.

أعاق أوربي الفلاحين من الانضمام إلى الجماعيات وأثار الاستياء عليها. في كانون الأول 1936 أطلق تصريحاً موجهاً إلى الملاكين الفرديين الصغار معلناً أن أسلحة الحزب الشيوعي والحكومة تحت تصرفهم. أعطاهم أسمدة مستوردة كان قد منعها عن الجماعيات، وعقاباً لاقتصاديات قطالونيا جمع مع زميله الستاليني جوان كوموريرا صغار ومتوسطي ملاكي الأراضي معاً في اتحاد رجعي مضيفين إليهم فيما بعد التجار وحتى بعض ملاكي العقارات الكبيرة متنكرين كملاكين صغار وأبعدا منظمة التجهيزات الغذائية لبرشلونة من اتحادات العمال وسلماها إلى التجارة الخاصة.

وأخيراً عندما سُحق الحرس[1] المتقدم للثورة في برشلونة في أيار 1937 ذهبت الحكومة الائتلافية إلى أبعد بتصفية التسيير الذاتي الزراعي بوسائل عسكرية بحجة أنه بقي «خارج تيار المركزية» وحُلّ «المجلس الدفاعي الإقليمي» لأراغون بمرسوم 10 آب 1937 واتهم مؤسِّسه جواكين أسكاسو «ببيع مجوهرات» والذي كان في الواقع محاولة للحصول على أرصدة للجماعيات. حالاً بعد هذا ذهب القسم الحادي عشر المتنقل للقائد ليستر (ستاليني) مسنوداً بالدبابات للعمل ضد الجماعيات. غُزيت أراغون كبلد معادٍ واعتقل

(1) يشير هذا إلى الوقت الذي دخلت فيه بي. أو. يو. إم (بارتيدو أوبيرو يونيدو ماركسست) والكوادر المتفرغة للاسلطويين معاً في صدام مسلح مع الشرطة وأخفقوا وسُحقوا (ملاحظة المترجمة).

المسؤولون عن المشاريع الاشتراكية واحتلت مبانيها ثم أغلقت. حُلّت لجان الإدارة، أفرغت المخازن المشتركة وحُطِّم الأثاث ومُنعت التجمعات. شجبت الصحافة الشيوعية «جرائم الجماعية الإجبارية» وقُضي على ثلاثين بالمائة من جماعيات أراغون بالتمام.

على كل حال، رغم هذه الوحشية لم تنجح الستالينية عموماً في إجبار فلاحي أراغون على أن يصيروا ملاكين فرديين. أُجبر فلاحون بقوة السلاح على التوقيع على تحاويل الملكية ولكن حالما غادر قسم ليستر كان قد قضي على هذه وأعيد بناء الجماعيات، وكما كتب جي مونس التروتسكي الإسباني «كانت هذه إحدى ملاحم الثورة الإسبانية الأكثر طموحاً، فقد أعاد الفلاحون تأكيد معتقداتهم الاشتراكية رغم الإرهاب الحكومي والمقاطعة الاقتصادية التي أُخضعوا لها».

كان هناك سبب آخر أقل بطولة لاستعادة جماعيات أراغون. أدرك الحزب الشيوعي بعد الحادث أنه قد أضرَّ بقوة الحياة للاقتصاد الريفي وعَرَّض المحاصيل لنقص القوة العاملة وإرباك المقاتلين في جبهة أراغون وأعاد دعم الطبقة الوسطى لمالكي الأراضي على نحو خطير. لهذا حاول الحزب إصلاح الضرر الذي فعله هو وإحياء بعض الجماعيات، ولم تعد الجماعيات الجديدة على كل حال كسب ماديات ونوعيات أراضي أسلافها ثانية قطّ، ولا القوة العاملة الأصلية منذ أن سُجن العديد من المناضلين أو طلبوا ملجأ من الاضطهاد في الأقسام اللاسلطوية من الجبهة.

نفّذ الجمهوريون هجمات مسلحة من نفس النوع ضد التسيير الذاتي الزراعي في ليفانت، في قشطاله وفي مقاطعات هويسكاوتيرويل. على كل حال أنه بقي بوسيلة أو أخرى في عدة مناطق لم تكن قد سقطت بعد في أيدي قوات فرانكو خاصة في ليفانت.

ساهم الموقف الغامض بتعبير معتدل، لحكومة فالانسيا من الاشتراكية

الريفية في إخفاق الجمهورية الإسبانية. لم يكن الفلاحون مدركين بوضوح دوماً إن كان من مصلحتهم القتال من أجل الجمهورية.

برغم نجاحاته خُرِّب التسيير الذاتي الصناعي من قبل البيروقراطية الإدارية والاشتراكيين السلطويين. شنَّت الإذاعة والصحافة حملة تمهيدية فظيعة من تشويه السمعة والافتراء، متساءلة عن إخلاص مجالس إدارة المصانع. رفضت الحكومة الجمهورية المركزية منح أي قرض للتسيير الذاتي القطالوني حتى عندما عرض الوزير التحرري لاقتصاد قطالونيا فباريكاس البليون بيزا من أمانات البنك المدخرة كضمانة في حزيران 1937 استلم الستاليني كوموريرا حقيبة وزارة الاقتصاد وحرم مصانع التسيير الذاتي من المواد الأولية التي جاد بها على القطاع الخاص. كما أوقف تسليم التجهيزات إلى المشاريع الاشتراكية، والتي سبق وطلبتها الإدارة القطالونية لتلك المشاريع.

كان للحكومة المركزية معقل فوق الجماعيات، جعل تشريك النقل من الممكن لها تجهيز بعضها وقطع كل الإرساليات عن الأخريات، فضلاً عن أنها استوردت الزيّ العسكري الجمهوري الموحد بدلاً من الرجوع إلى جماعيات نسيج قطالونيا. في 22 آب 1937 أصدرت مرسوماً علَّق تطبيق مرسوم قطالونيا لتشرين الأول 1936 بتشريك صناعات المعادن والمناجم، وجرى هذا بحجة ضرورات الدفاع الوطني، وقيل إن مرسوم قطالونيا «مناقض لروح الدستور» وأُعيد مشرفو العمل والمدراء الذين كانوا قد أُبعدوا من قبل التسيير الذاتي أو بالأحرى هؤلاء الذين كانوا غير راضين عن قبول المراكز الفنية في المشاريع المدارة ذاتياً ممتلئين بالرغبة في الانتقام.

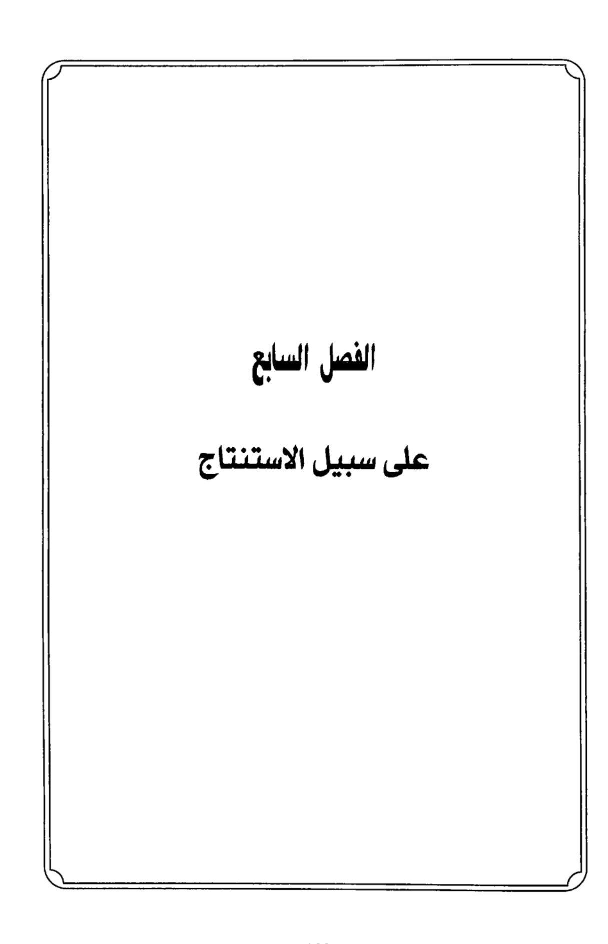
جاءت النهاية مع مرسوم 11 آب 1938 الذي جعل كل صناعات الحرب عسكرية الطابع وتحت رقابة وزارة التجهيزات الحربية، وغزت بيروقراطية مترهلة ورديئة السلوك المصانع، حشد من المفتشين والمدراء الذين يدينون بمراكزهم إلى انتماءاتهم السياسية وحدها وخاصة إلى عضويتهم الحالية في

الحزب الشيوعي الستاليني، وارتبك العمال عندما رأوا أنفسهم محرومين من مراقبة المشاريع التي خلقوها من لا شيء إبّان الأشهر الحرجة الأولى للحرب وعانى الإنتاج بالنتيجة.

بقي التسيير الذاتي الصناعي القطالوني في فروع أخرى حتى سحق الجمهورية الإسبانية. كان متباطئاً مهما يكن بسبب فقدان الصناعة لمنافذها الرئيسية وإن كان هناك شح في المواد الأولية، وقطعت الحكومة القرض الضروري لشرائها.

للتلخيص: أجبرت الجماعيات الإسبانية الوليدة بصورة عاجلة على ارتداء الرداء الخشن لحرب نُفذت بالأساليب العسكرية التقليدية، بالاسم الذي قصَّت به الجمهورية أجنحة طليعتها الخاصة وتساومت مع رجعية في الدار.

إن الدرس الذي تركته الجماعيات خلفها على كل حال هو درس تحفيزي في سنة 1938 نشدت ايما غولدمان إطراءها هكذا «تشعّ جماعية الأرض والصناعة كأعظم إنجاز لأية حقبة ثورية وحتى لو أن فرانكو ربح واللاسلطويين الإسبان أُبيدوا فإن الفكرة التي انطلقوا بها ستستمر بالحياة» في 21 تموز 1937 صرحت فدريكا مونتسيني في برشلونة حيث وضعت البدائل في وضوح «من جانب: مؤيدي السلطة والدولة الشمولية ولاقتصاد موجه من قبل الدولة، لشكل من التنظيم الاجتماعي الذي يطبع كل الرجال بالطابع العسكري ويقلب الدولة إلى رب عمل واحد ضخم، مقاول واحد ضخم. من جانب آخر: تشغيل المناجم، الحقول، المصانع والورش بواسطة الطبقة العاملة نفسها منظمة في فدراليات نقابات العمال» كان هذا مأزق الثورة الإسبانية ولكن في المستقبل القريب ربما سيكون مأزق الاشتراكية في طول العالم وعرضه.



الفصل السابع

على سبيل الاستنتاج

حرم فشل الثورة الإسبانية اللاسلطوية من موطىء قدمها الوحيد في العالم. خرجت من هذه المحنة محطمة ومشتتة إلى مدى بعيد، مشوّهة السمعة، أدانها التاريخ بقسوة، ظالماً في اعتبارات معينة. إنها لم تكن في الحقيقة، أو في كل الظروف وحسب مسؤولة عن انتصار قوات فرانكو. ما بقي من تجربة الجماعيات الريفية والصناعية المقاومة في ظروف عداء مأساوية كان إجمالاً لصالحها. مهما يكن لم تُقيَّم هذه التجربة جيداً وشُوِّهت سمعتها وأُنكر الاعتراف بها. تحررت الاشتراكية السلطوية أخيراً من المنافسة غير المرغوبة للتحررية ولسنوات ظلت سيدة الحلبة. لفترة بدت اشتراكية الدولة كما لو أنها أثبتت أهليتها بالانتصار العسكري للاتحاد السوڤياتي على النازية في 1945 وبانتصاراته التي لا تنكر حتى ولو المفروضة في الحقل التقني.

مهما يكن، سرعان ما بدأت الأعذار المطلقة للنظام بتوليد نفيها، لقد ابتكروا فكرة أن مركزية الدولة المشلولة سترتخي، ذلك أنه يجب أن يكون لوحدات الإنتاج استقلال ذاتي أكثر، وذلك أن العمال سيعملون أكثر وأحسن إذا ما كان لهم رأي في إدارة المشاريع، وتم توليد ما يسميه الطب «بالوجود الذاتي» في أحد الأقطار المستعبدة من قبل ستالين. حررت يوغوسلاڤيا تيتو نفسها من النير الثقيل الذي كان قد جعلها نوعاً من المستعمرات. من ثم

باشرت في إعادة تقييم المعتقدات التي يمكن أن تبدو الآن اقتصاداً ـ مضاداً بكل وضوح، إنها رجعت إلى مدرسة تحت إشراف أساتذة الماضي، مكتشفة وقارئة بتأنٍ برودون. نزعت إلى التوقعات. استكشفت المساحات التحررية من التفكير والمعروفة بضآلة جداً في أعمال ماركس ولينين ومن بين أشياء أخرى تعمقت في مفهوم أُفول الدولة الذي لم يكن، وهو صحيح، قد أُزيل تماماً من المعجم السياسي إلا أنه صار بالتأكيد ليس أكثر من صيغة شعائرية خالية من الجوهر تماماً. بالعودة إلى الحقبة القصيرة التي وحّدت البلشفية نفسها إبّانها مع الديمقراطية البروليتارية من أسفل.. مع السوڤياتات. التقطت يوغسلافيا كلمة نطق بها قادة ثورة أكتوبر ونسيت عاجلاً فيما بعد: التسيير الذاتي. تحول الانتباه أيضاً إلى مجالس المصانع الجنينية التي قامت في نفس الفترة من خلال العدوى الثورية في ألمانيا وإيطاليا وبعد فترة قصيرة في هنغاريا، وكما دُوِّن في المجلة الفرنسية «مناظرات» من قبل الإيطالي روبرتو جيودو سي ثار السؤال عما إذا كان لا يمكن «لفكرة المجالس التي قُمعت من قبل الستالينية لأسباب واضحة أن تستأنف ثانية بشروط عصرية؟».

عندما تحررت الجزائر من الاستعمار وصارت مستقلة بحث قادتها الجدد تقنين الاحتلال العفوي لممتلكات الأوروبيين المهجورة من قبل الفلاحين والعمال، إنهم انتزعوا الإلهام من السابقة اليوغسلافية تشريعها لهذه القضية كنموذج إذا لم تكن أجنحته مقصوصة فإن التسيير الذاتي نمط ذو نزعات ديمقراطية بلا شكّ، وحتى تحررية. وفي حالة اتباع مثال الجماعيات الإسبانية لسنوات 1936 ـ 1937 فإن التسيير الذاتي ينشد وضع الاقتصاد تحت إدارة المنتجين أنفسهم، ولهذه الغاية يقام تمثيل عمالي ثلاثي في كل مشروع بوسائل الانتخاب: الجمعية العامة العليا، مجلس العمال، جهاز استشاري أصغر، وأخيراً لجنة الإدارة التي هي الجهاز التنفيذي، ويؤمّن التشريع ضمانات أكيدة ضد تهديد البيروقراطية: لا يمكن إعادة انتخاب الممثلين غالباً، ويجب أن

ينخرطوا في الإنتاج مباشرة الخ يمكن في يوغسلافيا استشارة العمال عن طريق الاستفتاء كبديل عن الاجتماعات العامة، بينما في مشاريع كبيرة جداً تعقد الاجتماعات العامة في أقسام العمل.

في يوغسلافيا والجزائر معاً نُسبت نظرياً على الأقل أو كوعد للمستقبل أهمية عظمى لكومونة والأكثر لحقيقة أن عمال التسيير الذاتي سيمثلون هناك. نظرياً ثانية يجب أن تتجه إدارة الأمور العامة نحو اللامركزية وأن تنفذ على المستوى المحلي أكثر فأكثر.

إن المقاصد الجيدة بعيدة عن التنفيذ في التطبيق. في هذه الأقطار يخرج التسيير الذاتي إلى الوجود في إطار دولة دكتاتورية، عسكرية بوليسية يتشكل هيكلها العظمي من حزب واحد. في القمة هناك سلطوية وسلطة أبوية التي هي ما وراء الرقابة وفوق النقد، وبالتالي فإن القواعد السلطوية للإدارة السياسية والمبادىء التحررية لإدارة الاقتصاد غير قابلة للمواءمة.

فضلاً عن ميل درجة معينة من البيروقراطية إلى إظهار نفسها حتى داخل المشاريع برغم الإجراءات الاحترازية للمشرِّعين، فلم تنضج غالبية العمال بعد بما فيه الكفاية للمشاركة بفاعلية في التسيير الذاتي، من ثم يفتقرون للتعليم والمعرفة التقنية ولم يتحرروا من عقلية كسب الأجور القديمة ويضعون عن رغبة تامة كل سلطاتهم في أيدي مندوبيهم. يُمكِّن هذا أقلية صغيرة في أن يكونوا المدراء الحقيقين للمشروع ويخصصوا لأنفسهم كل أنواع الامتيازات ويعملوا بالضبط كما يشتهون، كما ويبقون أنفسهم بصورة دائمية في المراكز الإدارية، يحكمون بدون رقابة من القاعدة، فاقدين الاتصال بالواقع، عازلين أنفسهم عن عمال الكوادر المتفرغة الذين غالباً ما يعاملونهم بعجرفة واحتقار. كل هذا يُربك العمال ويقلبهم ضد التسيير الذاتي. أخيراً: غالباً ما تطبِّق رقابة الدولة بغير حكمة وبتعسف إلى هذا الحد، ذلك أن «المدراء الذاتيين» لا يديرون في الحقيقة على الإطلاق. تعين الدولة مدراء لأجهزة التسيير الذاتي

بدون اهتمام كبير عما إذا كانت الأخيرة توافق أم لا، ولو أنه تبعاً للقانون تجب استشارتها. غالباً ما يتدخل هؤلاء البيروقراطيون بكثرة في الإدارة ويتصرفون أحياناً بنفس الطريقة التعسفية مثل أرباب العمل السابقين. يُعين المدراء في المشاريع اليوغسلافية الواسعة جداً إجمالاً بواسطة الدولة، وتعطى هذه المراكز من قبل المارشال تيتو لحرسه القديم.

أكثر من ذلك يعتمد التسيير الذاتي اليوغسلافي على الدولة كلياً في التمويل. إنه يعيش على قروض تدفع إليه من قبل الدولة، وهو حرّ في التصرف بجزء يسير فقط من أرباحه، وتدفع البقية إلى الخزينة العامة على هيئة ضريبة. يستعمل الإيراد الناجم من قطاع التسيير الذاتي من قبل الدولة ليس فقط في تطوير القطاعات المتخلفة من الاقتصاد، الذي هو أكثر من عادل، وإنما أيضاً في الدفع إلى الأجهزة الحكومية البيروقراطية الثقيلة للجيش، لقوات الشرطة ولمصاريف اعتبارية هي باهظة تماماً في بعض الأحيان، عندما يدفع أعضاء المشاريع المدارة ذاتياً بصورة غير متناسبة فإن هذا يخمد الحماس للتسيير الذاتي ويتعارض مع مبادئه.

فضلاً عن محدودية حرية النشاط لكل مشروع بشدة وعلى سعة ما دامت تخضع للخطط الاقتصادية للسلطة المركزية التي تُرسم بصورة تحكمية وبدون استشارة الكوادر المتفرغة. في الجزائر فإن المشاريع المدارة ذاتياً ملزمة أيضاً بأن تتخلى للدولة بالقيمة التجارية لجزء مهم من منتوجاتها. بالإضافة إلى أنها موضوعة تحت إشراف «أجهزة وصاية» افترض أنها تزود مساعدات فنية وحسابية خالية من الفائدة، إلا أنها تميل في التطبيق إلى الحلول محل التسيير الذاتي وتولّي مهامه.

على العموم إن بيروقراطية الدولة الشمولية غير متعاطفة مع مطالب التسيير الذاتي في الاستقلال الذاتي. كما تنبأ برودون أنها تجد من الصعب التسامح مع أية سلطة خارجية بالنسبة لها. إنها تكره التشريك وتتشوق إلى التأميم،

ذلك هو القول: الإدارة المباشرة بواسطة موظفي الدولة. غايتها تجاوز التسيير الذاتي وتقليص سلطاته، وفي الحقيقة امتصاصه.

والحزب الواحد ليس أقل ريبة في التسيير الذاتي وبطريقة مماثلة يجد أن من الصعب تحمّل منافس. إذا ما احتضن التسيير الذاتي فإنه يفعل هكذا ليخنقه بفاعلية أكثر. للحزب خلايا في أغلب المشاريع وتحاول بقوة المساهمة في الإدارة واستنساخ الأجهزة المنتخبة من قبل العمال أو تقليصها إلى دور أدوات طيِّعة بواسطة تزييف الانتخابات وإعلان قوائم مرشحين سلفاً. يحاول الحزب حثّ مجالس العمال على تجيير قرارات اتخذت مقدماً وقبل الأوان والتلاعب وتوجيه المؤتمرات الوطنية للعمال.

كان رد فعل بعض المشاريع المدارة ذاتياً نحو النزعات السلطوية والمركزية بأن تصبح انعزالية، تتصرف كما لو كانت رابطة مالكين صغار وتحاول العمل لفائدة العمال المشاركين فيها وحدهم، وتتجه نحو تقليص قواها العاملة، وبالتالي كما لو تقسم الكعكة إلى أقسام أكبر. كما وتبحث عن إنتاج القليل من كل شيء بدلاً من التخصص. تخصص وقتاً وطاقة للالتفاف على خطط وقواعد صممت لخدمة مصالح الوحدة الاجتماعية ككل. في يوغسلافيا أجيزت المنافسة الحرة بين المشاريع كمحفز وحماية للمستهلك معاً. ولكن في التطبيق فإن النزوع إلى الاستقلال الذاتي أدى إلى مردود غير متماثل بفظاعة وإلى لاعقلانية اقتصادية.

وهكذا يجسّد التسيير الذاتي نفسه حركة شبيهة بالبندول التي تجعله يتأرجح باستمرار ما بين نهايتين: استقلال ذاتي مفرط أو مركزية مفرطة، سلطة أو لاسلطة، رقابة من أسفل أو رقابة من فوق خلال السنوات التي صححت فيها يوغسلافيا خاصة المركزية بواسطة الاستقلال الذاتي، ثم الاستقلال الذاتي بواسطة المركزية معيدة بثبات تصميم مؤسساتها بدون نجاح لم تنل حتى الآن «الوسط السعيد» بنجاح.

يمكن تجنب أغلب نواحي ضعف التسيير الذاتي أو تصحيحها إذا ما كانت هناك حركة نقابية عمالية أصيلة مستقلة عن السلطة وعن الحزب الواحد، منبعثة من العمال أنفسهم وتنظمهم في نفس الوقت وتنشّط المميزات للسندكالية ـ اللاسلطوية الإسبانية. على كل حال إن النقابية العمالية في يوغسلاڤيا والجزائر هي إما ثانوية أو زائدة أو خاضعة للدولة، للحزب الواحد، لذلك فإنها لا تقدر على أداء مهمة الموفّق ما بين الاستقلال الذاتي والمركزية على نحو وافٍ والتي عليها إنجازها والتي تستطيع تنفيذها بشكل أفضل بكثير من الأجهزة السياسية الشمولية. في الحقيقة إن نقابية عمالية انبثقت بأصالة من بين العمال الذين فيها انعكاسهم الخاص ستكون الجهاز الأكثر فاعلية لتناغم القوى الطاردة والجاذبة من أجل «خلق توازن» كما يعبّر برودون، بين تناقضات التسيير الذاتي.

يجب ألا تظهر الصورة، على كل حال سوداء بالكامل. للتسيير الذاتي خصوم أقوياء عنيدون بالتأكيد، لم يقطعوا الأمل في جعله ينهار، لكنه يظهر نفسه حيوياً تماماً في الحقيقة في الأقطار التي تنفذ فيها التجارب. إنه فتح منظوراً «جديداً» للعمال وحفظ لهم بعض المتعة في عملهم. إنه فتح أذهانهم على مبادىء الاشتراكية الأصيلة والمنطوية على الاختفاء التدريجي للأجور وعدم اغتراب المنتج الذي سيصبح كائناً حرّاً ومقرّراً لمصيره. زاد التسيير الذاتي بهذه الطريقة من الإنتاجية وسجّل نتائج إيجابية مهمة حتى من خلال محن وأخطاء الفترة الأولية.

منذ زمن بعيد جداً تابعت دوائر صغيرة من اللاسلطويين إلى حدٍّ ما تطور التسيير الذاتي ليوغسلاڤيا والجزائر مع مزيج من التعاطف وعدم التصديق. إنهم يشعرون بنقله لبعض شذرات مُثلهم إلى الواقع. إلا أن التجربة لا تنمو بموازاة الخطوط المثالية التي تنبأت بها الشيوعية التحررية، على العكس إنها جُربت في إطار سلطوي هو بغيض لدى اللاسلطوية. ليس هناك من شك في أن هذا الإطار يجعل التسيير الذاتي سهل الانكسار. هناك خطر دوماً من أن

يُلتهم من قبل سرطان النزعة السلطوية. على كل حال، يبدو أن نظرة غير متحيزة وعن كثب إلى التسيير الذاتي تكشف عن مؤشرات مشجعة نوعاً ما.

إن التسيير الذاتي في يوغسلافيا عامل يدعم دمقرطة النظام، خلق أسساً صحية أكثر لكسب أعضاء جدد في دوائر الطبقة العاملة، ويبدأ الحزب بالعمل كملهم أولي مما هو موجِّه ويصير كوادره ناطقين أفضل عن الجماهير وأكثر تحسساً لمشاكلها وطموحاتها. كما يعلّق ألبير ميستير، عالم اجتماع سويسري شاب أسند لنفسه مهمة دراسة هذه الظاهرة في الموقع: يحتوي التسيير الذاتي على «فيروس ديمقراطي» سيغزو في مسيرته الطويلة الحزب الواحد نفسه. إنه يعتبره كـ «مقوٍّ» إنه يلحم صفوف الحزب الدنيا مع الجماهير العاملة. إن هذا التطور واضح إلى حد أن يجعل منظريّ يوغسلافيا يستخدمون لغة لا تختلف عن لغة التحررية. على سبيل المثال: يصرح أحدهم، ستين كافجيك «لا يمكن أن تكون القوة الضاربة للاشتراكية في يوغسلافيا في المستقبل حزباً سياسياً والدولة عاملة من القمة فنازلاً، بل الشعب، المواطنون مع حقوق دستورية تجعلهم قادرين على العمل من القاعدة فصاعداً» ويستمر بشجاعة بأن التسيير الذاتي يلين بتزايد «الانضباط الصارم والخضوع الذي يميز كل الأحزاب السياسية».

ليس الاتجاه واضحاً إلى هذا الحد في الجزائر لأن التجربة ذات أصول أكثر حداثة، ولا زالت في خطر من كونه مدعوّاً للمساءلة. ربما وجد مفتاح في حقيقة أن في نهاية سنة 1964 أدان حسين زهوان مسؤول التوجيه لجبهة التحرير الوطني علناً نزوع «أجهزة الإرشاد» إلى وضع نفسها فوق أعضاء مجاميع التسيير الذاتي وتبنّي موقف سلطوي تجاههم. استمر قائلاً: «عندما يحصل هذا لا تعود الاشتراكية موجودة، ويبقى هناك تغيير فقط في شكل استغلال العمال» وانتهى هذا المسؤول الرسمي بالتساؤل «أيجب أن يكون المنتجون سادة حقيقين لإنتاجهم، ولا يعودوا يناورون من أجل غايات غريبة

يجب الاعتراف أنه منذ أن أُزيح حسين زهوان من منصبه بواسطة انقلاب عسكري أصبح الروح القائدة لمعارضة اشتراكية سرّيّة، إنه موجود في الوقت الحاضر[1] في إقامة جبرية في بقعة ملتهبة من الصحراء.

للتلخيص: يواجه التسيير الذاتي كل أنواع الصعوبات والتناقضات، ولو أنه يبدو في التطبيق لحد الآن ذا فضل في جعل الجماهير قادرة على الاجتياز عبر تدريب في الديمقراطية المباشرة والمنفذة من أسفل إلى أعلى، وفضل تطوير، تشجيع وتحفيز مبادراتها الحرة تشرّبها بإحساس بالمسؤولية بدلاً من تخليد العادات القديمة للسلبية، الإذعان وعقدة الشعور بالدونية المتخلفة فيها من عهود الاضطهاد الماضية، كما هو الحال في ظل شيوعية الدولة. إن فترة التدريب هذه مجهدة أحياناً، تتقدم ببطء أو تُحمّل المجتمع أعباءً إضافية وربما من الممكن أن تنفذ على حساب بعض من «اللانظام» وحسب ما يعتقد العديد من المراقبين. على كل حال إن هذه الصعوبات، التأخيرات، الأعباء الإضافية، والآلام المتزايدة أقل إيذاء من النظام الزائف، المجد الزائف، «الكفاية» الزائفة لشيوعية الدولة التي تقلّص الإنسان إلى لا شيء، تقتل مبادرة الشعب. تشلّ الإنتاج، وبرغم التقدم المادي الحاصل بثمن باهظ فإنها تشوّة سمعة الفكرة الحقيقية للاشتراكية.

أعاد الاتحاد السوڤياتي نفسه تقييم أساليبه في الإدارة الاقتصادية وسوف يستمر في القيام بذلك ما لم تُلغ النزعة الحالية إلى التحرر بالنكوص إلى النزعة ـ السلطوية. قبل سقوطه في 15 تشرين الأول 1964 بدأ خروتشوف مدركاً مهما كان خائفاً ومتأخراً للحاجة إلى اللامركزية الصناعية. في كانون الأول 1964 نشرت البراڤدا مقالاً طويلاً بعنوان «دولة كل الشعب» نشدت تحديد التغييرات في البناء التي تميز شكل دولة «يشير إلى كونها لكل الشعب» عن ذلك الذي

(1) كما في تموز 1969.

لـ «دكتاتورية البروليتاريا» إنه يعني تقدماً نحو الدمقرطة، مساهمة الجماهير في توجيه المجتمع عبر التسيير الذاتي، إعادة الحيوية للسوڤياتات ولنقابات العمال الخ.

نشرت اليومية الفرنسية لوموند ليوم 16 شباط 1965 مقال لمشيل تاتو بعنوان «مشكلة رئيسية: » تحرير الاقتصاد «عارضاً الشرور الأكثر خطورة» والمؤثرة في الماكنة البيروقراطية السوڤياتية بكاملها والاقتصاد خاصة «يجعل المستوى التقني العالي الذي أحرزه هذا الاقتصاد من سيطرة البيروقراطية على الإدارة أمراً غير مقبول على الإطلاق كما هي الأمور في الوقت الحاضر، لا يستطيع مدراء المشاريع من اتخاذ قرار في أي موضوع بدون الرجوع إلى دائرة واحدة على الأقل وغالباً جداً إلى نصف دزينة «لا أحد يحاول في التقدم التقني والعلمي والاقتصادي الملحوظ الذي تحقق في ثلاثين سنة من التخطيط الستاليني. النتيجة على كل حال هي بالضبط أن هذا الاقتصاد هو الآن في مرتبة الاقتصاديات النامية، وأن المنشآت القديمة التي جعلته قادراً لبلوغ هذا المستوى هي الآن إجمالاً ودوماً بتحذير زائد، غير ملائمة» «ستكون الحاجة أكثر بكثير من مجرد إصلاحات جزئية.. تغييراً مشهوداً في التفكير والأسلوب، نوعاً من استالينية جديدة يكون مطلوباً لوضع نهاية للقصور الذاتي الهائل الذي ينفذ إلى الماكنة في كل مستوى» وكما أشار أرنست ماندل، على كل حال، في مقالة في المجلة الفرنسية «الأزمنة الحديثة» لا يمكن أن تتوقف النزعة اللامركزية عند إعطاء الاستقلال الذاتي لمدراء المشاريع، إنها يجب أن تؤدي إلى تسيير ذاتي حقيقي للعمال.

انتهى المرحوم جورجيس جورفيتش، عالم اجتماع يساري إلى نتيجة مماثلة. فهو يعتبر أن النزعات اللامركزية والتسيير الذاتي للعمال قد بدأت توّاً وحسب في الاتحاد السوڤياتي وسيُظهر نجاحاً «إن برودون كان أكثر صواباً مما يمكن أن يظن المرء».

في كوبا كان على الاشتراكي الدولتي المرحوم تشي جيفارا أن يتخلى عن اتجاه التصنيع الذي أداره بدون توفيق بسبب المركزية الفائقة. وفي «كوبا: اشتراكية وتطور» استهجن رينيه دومونت، اختصاصي فرنسي في اقتصاديات كاسترو» مركزيتها الفائقة «ونزعتها البيروقراطية» أكّد بصورة خاصة الأخطاء «السلطوية» لمديرية وزارية تحاول إدارة المعامل بنفسها وتنتهي إلى نتائج مضادة تماماً «بمحاولة إحداث منظمة متمركزة بشدة ينتهي المرء في التطبيق. . . إلى ترك كل شيء منفذاً، لأن المرء لا يستطيع إدامة الرقابة على ما هو جوهري» هو يوجه نفس الانتقاد لاحتكار الدولة للتوزيع: الشلل الذي ينتجه يمكن تجنبه «إذا ما حافظت كل وحدة إنتاج على مهمة تجهيز نفسها مباشرةً» أسرَّ زميل بولوني في مركز اطلاع جيد جداً لرينيه دومونت «تبدأ كوبا بإعادة الدورة اللامجدية للأخطاء الاقتصادية للأقطار الاشتراكية ثانية» ينتهي الكاتب مناشداً النظام الكوبي بالعودة إلى وحدات الإنتاج المستقلة ذاتياً وفي الزراعة إلى فدراليات تعاونيات الإنتاج الحقلي الصغيرة. هو لا يخشى من إعطاء الحل اسماً: التسيير الذاتي الذي سيتوافق بصورة كاملة مع التخطيط. لسوء الحظ إن صوت رينيه دومونت لم يُسمع في هاڤانا لحد الآن.

تخرج الفكرة التحررية الآن من الظل حيث أبعدها إليه منتقصو قيمتها. في جزء كبير من العالم أصبح الإنسان اليوم خنزير تجارب لشيوعية الدولة، وهو الآن فقط يفلت مترنحاً من التجارب يتحول فجأة مع فضول حي وغالباً مع فائدة إلى المسودات الخشنة لمجتمع جديد مدار ذاتياً والتي تقدم بها رواد اللاسلطوية في القرن الأخير. إنه لا يبتلعها ككل بالطبع، وإنما يستقي دروساً منها، ويستوحي محاولة إكمال مهمة قدمت في النصف الثاني من هذا القرن: لتحطيم المقاييس الاقتصادية والسياسية معاً لما دُعي ببساطة زائدة «الستالينية» وهذا بدون التخلي عن المبادىء الجوهرية للاشتراكية: على العكس مكتشفين بذلك أو معيدين اكتشاف أشكال اشتراكية حقيقية أصيلة، بكلمة أخرى اشتراكية متوافقة مع الحرية.

فكّر برودون بحكمة في غمرة ثورة 1848 في أنها كانت تدعو أنصاره بإلحاح إلى أن يقطعوا كل الطريق حالاً إلى «اللاسلطة» ولفقدان برنامج الحد الأعلى هذا فقط خطط لبرنامج تحرري بالحد الأدنى: التقليص التدريجي في سلطة الدولة متوازياً مع نمو سلطة الشعب من الأسفل عبر ما أسماه بالنوادي والتي سيدعوها رجل القرن العشرين بالمجالس. إنها تبدو الهدف الواعي تقريباً للعديد من الاشتراكيين المعاصرين في إنجاز برنامج كهذا.

رغم أن إمكانية بقاء فتحت بالتالي أمام اللاسلطوية فإنها لن تنجح في إعادة تأهيل نفسها كاملاً ما لم تكن قادرة في النظرية والتطبيق معاً على تخطئة التفاسير الزائفة التي خضعت لها طويلاً. كان جواكين سورين في سنة 1924 كما رأينا نافد الصبر للانتهاء منها في إسبانيا وعرض أن ليس بالمستطاع قط حفاظها على نفسها في غير بضعة «أقطار متخلفة» حيث «ستتمسك» الجماهير بها لأنها بدون «تعليم اشتراكي» كلياً وأنها «تُركت لغرائزها الطبيعية» وانتهى إلى أن «أي لاسلطوي ينجح في تقوية نفسه بالتعلم وبالروية بوضوح سيتوقف آلياً من أن يكون لاسلطوياً».

خلط مؤرخ اللاسلطوية الفرنسي جان ميترون بين «اللاسلطة» واللاتنظيم تماماً. تخيل قبل بضع سنوات أن اللاسلطوية قد ماتت مع القرن التاسع عشر لأن عصرنا هو عصر «الخطط، التنظيم والانضباط» رأى الكاتب البريطاني جورج وود كوك حديثاً جداً أن من المناسب اتهام اللاسلطويين بكونهم مثاليين يسبحون عكس التيار السائد في التاريخ. يقتاتون من رؤيا شعرية للمستقبل بينما يتشبثون بالملامح الأكثر جاذبية لماضٍ يحتضر. يصرّ اختصاصي إنجليزي آخر في الموضوع، جيمس جول، على أن اللاسلطويين من الطراز القديم لأن أفكارهم تتعارض مع نمو الصناعة الكبيرة والإنتاج والاستهلاك الضخمين ويعتمدون على رؤيا رومانسية متقهقرة لمجتمع مثالي من الحرفيين والفلاحين

وعلى رفض شامل لحقائق القرن العشرين وللتنظيم الاقتصادي[1].

لقد حاولت في الصفحات السابقة كشف أن هذه ليست هي الصورة الحقيقية للاسلطوية. تعبّر أعمال باكونين جيداً عن طبيعة اللاسلطوية البنّاءة التي تعتمد على التنظيم، على الانضباط الذاتي، التكامل، المركزية الفدرالية غير القسرية. إنها تستقر على الصناعة الكبيرة الحديثة، التقنية الأكثر حداثة، البروليتاريا المعاصرة والأُممية على نطاق العالم. بهذا الاعتبار فإنها من زماننا وتعود إلى القرن العشرين، جائز كثيراً أنها شيوعية الدولة وليست اللاسلطوية التي هي خارج المرحلة بالنسبة لاحتياجات العالم المعاصر.

اعترف جواكين مورين في سنة 1924 علامَ إن كانت هناك على مدى تاريخ اللاسلطوية «علامات انحدار» «تبعها إحياء مفاجىء» ربما يكشف المستقبل أن في هذا الاعتراف على كره وحسب كان الماركسي الإسباني نبياً جيداً.

(1) كتب جيمس جول للمؤلف مؤخراً أن عليه، بعد قراءة هذا الكتاب، تنقيح آرائه إلى حد معين.

ملحق: أيار 1968

إنها بضع سنوات منذ أن اعتقدت لأول مرة من أنني لاحظت بداية تمرد تحرري من شباب فرنسا، وكنت من بين هؤلاء الذين راقبوا باهتمام، وعليَّ أن أعترف وبتعاطف غرائب العمال الشباب في الصدام مع المجتمع، في خلافات مع الشرطة ومع كل البالغين: «القمصلة السوداء» الشهيرة، العصابات المنظمة لمناطق الطبقة العاملة.

بعيداً عن هؤلاء الناس الشباب المعادين للمجتمع لاحظت أنه ليس لشبابنا عموماً ولاء لأي شخص، شكوكيتهم الواضحة لا هي مجردة ولا لمجرد الهواية، لا تزال أقل عدمية، بل هي رفض مدرك للقيم الزائفة لكل الأكبر منهم سنّاً، كونهم برجوازيين متيَّمين بالهرمية والسلطة أو ستالينيين، جزويت جدد، طائعين عن عمى للطاعة العمياء.

في سنة 1958 صرحت في نقاش حول الشباب من راديو فرنسا «لا تزال الاشتراكية حية في قلوب الشبان، لكن إذا ما كان لها أن تجذبهم فإنها يجب أن تنفصل عن الإرهاب المأساوي للستالينية، إنها يجب أن تظهر في هيئة تحررية» نشرت في السنة التالية مجموعة مقالات بعنوان «الشباب الاشتراكي التحرري[1]» قدمت لها بالإهداء التالي إلى الشبيبة:

---

(1) باريس 1969.

«أهدي هذه المقالات إليكم، شباب اليوم

أعلم أنكم تديرون ظهوركم للايديولوجيات والمذاهب Isms التي أصبحت جوفاء بواسطة إخفاقات الأكبر منكم سناً. أعلم أنكم تشكّون عميقاً ـ للأسف مع مبرر قوي ـ في كل شيء يتصل «بالسياسة». أعلم أن الشيوخ الكبار الذين فكروا في مشكلة المجتمع في القرن التاسع عشر يبدون مضجرين كبار لكم. أعلم أنكم تشكّون بحق «بالاشتراكية» التي كانت غالباً قد ضُلّلت غالباً إلى هذا الحد، أُفسدت بالتالي بوقاحة من قبل مؤيديها. في رد صدر على استفتاء لمجلة نوفيل فوج أعطيتهم الجواب: إن مستقبلاً اشتراكياً غير مرغوب فيه بسبب الخضوع المطلق للرد إلى فكرة سياسية، إلى الدولة.

أنتم تقولون لنا إن ما يضعكم بعيداً عن الاشتراكية ليس هو منظور إنهاء استغلال الإنسان بواسطة الإنسان بل هم البيروقراطيون والتطهيرات.

بكلمات أخرى: إنكم سترغبون بالاشتراكية إذا ما كانت أصيلة. لغالبيتكم شعور قوي جداً ضد الظلم الاجتماعي وهناك العديد بينكم ممن يدركون أن «الرأسمالية مدانة» فضلاً عن أنكم مولعون عاطفياً بالحرية، ويكتب أحد الناطقين باسمكم أن «الشباب الفرنسي لاسلطوي أكثر فأكثر» أنتم اشتراكيون تحرريون بدون معرفة ذلك. على نقيض الطبيعة العتيقة المفلسة، السلطوية الشمولية للاشتراكية اليعقوبية فإن الاشتراكية التحررية تحمل علامة الشباب، ليس بسبب أنها سر المستقبل والبديل العقلاني والإنساني الممكن الوحيد عن نظام اقتصادي مدان من قبل التاريخ وحسب، وإنما أيضاً بسبب ارتباطها بأعمق طموحات شباب اليوم، ولو أن ذلك غالباً ما يشوّش عليه. وبدون موافقتكم ومساهمتكم سيكون من العبث محاولة إعادة بناء العالم.

كتب أحد هؤلاء الشبان «أظن أنني سأرى سقوط هذه المدينة في فترة حياتي» إنها أمنيتي المتواضعة أن أعيش مدة تكفي لأشهد وأساهم في هذا المكسب الضخم معكم، أنتم الشباب. آمل أن الدعوى التي قدمت في هذا

الكتاب ضد الاشتراكية الزائفة ربما تقترح عليكم بضعة من المواد التي بها ستبنون مجتمعاً أكثر عدالة وتحرراً مع حماس جديد تختفي فيه الشكوكية».

لقد أكدت ثورة أيار 1968 في فرنسا هذه النبوءة تماماً، وكانت كنساً عظيماً لبيوت العنكبوت. نفذت بواسطة الشبان، ليس الطلاب فقط وإنما أيضاً مع شباب الطبقة العاملة عبر تضامنهم مع أقرانهم في العمر والاغتراب المشترك. في الجامعة بالإضافة إلى المصنع والنقابة العمالية. تم تحدّي دكتاتورية البالغين، الأساتذة في الجامعات، أرباب العمل في المصانع، الرؤساء في نقابات العمال. والأكثر أنها هزت بعمق. اندلع هذا الانفجار غير المتوقع مثل قصف الرعد، بصورة معدية ومدمرة، وكان اشتراكياً تحررياً في الخصائص بصورة واسعة جداً.

إنها قامت على نقد ليس فقط للمجتمع البرجوازي وإنما أيضاً لشيوعية ما بعد ستالين التي كانت تصير أكثر فأكثر قسوة في الأوساط الجامعية. إنها تحفزت بالاستنكار المعبَّر عنه في «الأوضاع البائسة للحياة الطلابية»[1] لمجموعة صغيرة من «الموقفيين» واستلهمت التمرّد الطلابي في أقطار مختلفة وخاصة ألمانيا.

إنها سلّحت نفسها بالعمل المباشر، اللاشرعية الهادفة، احتلال أماكن العمل: إنها لم تخف من مواجهة عنف قوات القمع بالعنف الثوري. إنها وضعت كل شيء موضع السؤال... كل الأفكار المقبولة، كل البناءات القائمة، أنكرت الحوار المحترف بنفس قدر إنكار سلطوية أرباب العمل، رفضت طقس الشخصانية وأصرّت على الجماعية وتجاهل الأسماء. في بضعة أسابيع اجتازت فترة تدريب مضيئة على الديمقراطية المباشرة وحوار آلاف الأصوات واتصال الكل بالكل.

(1) عنوان كراسة نشرت في فرنسا في 1967 من قبل طلاب جامعة ستراسبورغ.

إنها شربت بنهم من ينبوع الحرية وأعطي لكل فرد في جميع لقاءاتها ومنابرها من كل الأنواع الحق في التعبير عن نفسه كاملاً. تحولت الساحة العامة إلى مدرج بسبب توقف المرور. وأقيمت المناقشات على الأرصفة، ونوقشت استراتيجية حرب شوارع المستقبل علناً، كاملة وعلى مداها. استطاع كل واحد من اعتناق الثورة في باحات وممرات ومدرجات السوربون. هناك يمكن لكل نزعة ثورية بدون استثناء أن تعرض وتبيع أدبياتها.

استفاد التحرريون من حالة الحرية هذه لنبذ عزلتهم السابقة. حاربوا جنباً إلى جنب مع الماركسيين الثوريين من الاتجاه السلطوي، وعلى الأغلب بدون حقد من الجانبين متناسين مؤقتاً زمروية الماضي، رفرفت الراية السوداء إلى جانب الراية الحمراء بدون تنافس أو صدام، على الأقل إبّان المرحلة الأشد حدّة للصراع عندما كان كل شيء خاضعاً للوحدة الأخوية ضد العدو المشترك.

رفضت كل السلطات أو حتى سخر منها ولم يقلل من قيمة أسطورة الرجل العجوز المحروس بالعناية الإلٰهية في الإليزيه كثيراً بنقاش جدّي مثلما أطلقوا الكاريكاتير والسخرية إلى علو شاهق. أنكروا وجود دكان الثرثرة البرلمانية بسلاح اللامبالاة المميت: حدث أن اجتازت إحدى مسيرات الطلبة الطويلة عبر العاصمة واجهة قصر روبون حتى بدون أن تتنازل بالانتباه إلى وجوده.

تردد صدى كلمة سحرية واحدة عبر الأسابيع المجيدة لأيار 1968 في كل من المصنع والجامعة. وكانت مضمون المناقشات التي لا تعد، الإيضاحات: الإشارات إلى السوابق التاريخية والاختبارات التفصيلية والمتحمسة للتجارب المعاصرة ذات العلاقة: إنها كانت التسيير الذاتي. أثار نموذج الجماعيات الإسبانية لسنة 1936 اهتمامات جادة بصورة خاصة. في الأمسيات جاء العمال إلى السوربون للتعلم عن هذا الحل الجديد لمشكلة المجتمع. عندما عادوا إلى الورش استمرت المباحثات حول هذا الموضوع، حول المكائن الصامتة. لم تضع ثورة أيار 1968 التسيير الذاتي موضع التطبيق بالطبع، وإنما توقفت على

مقربة منه ـ حتى يمكن للمرء أن يقول: على الحافة تماماً. إلا أن فكرة التسيير الذاتي تصبح مستقرة في أذهان الناس وسوف تنبثق ثانية عاجلاً أو آجلاً.

وأخيراً: كان لهذه الثورة التحررية بعمق في روحها لهذا الحد حظّ حسن في العثور على ناطق باسمها، لاسلطوي يهودي ألماني ـ فرنسي شاب، في سن الثالثة والعشرين، دانييل كوهن بندت الذي عمل مع مجموعة من الأصدقاء كفتيلة تفجير... وعندما أُبعد من فرنسا، كرمز حيّ للثورة. ليس «داني» منظِّراً لاسلطوياً، وفي حقل الأفكار ربما جعله أخوه كابي، مدرس في ثانوية سنت نازير، يتفوق في النضوج والتعلم، لكن كان لداني مواهب أكثر تأصلاً من التعلم من الكتب، له حماس تحرري من أعلى درجة. لقد كشف عن نفسه بكونه مهيّجاً بالولادة، متحدثاً بطاقة غير اعتيادية، مباشراً، عملياً، صلباً، محرِّضاً، مؤثراً في الناس بدون غوغائية أو تصنع. أكثر من ذلك يرفض كأي تحرري أن يمثل دور القائد ويصرّ على البقاء مناضلاً بين العديدين. كان الروح المحركة للتمرد الطلابي الأول في فرنسا، في جامعة نانتير، وبالتالي، بدون تصميم سابق، شارك في تفجير المواجهة الهائلة التي هزت البلاد بأجمعها، وسوف لن تغفر له البرجوازية ذلك، ومع ذلك أقل منها الستالينيون الذين اعتبرهم «كأوغاد» سيكون الاثنان مخطئين في الظن بأنهما قد تخلصا منه: لا يهم ما إذا كان غائباً أو حاضراً[1] فإنه سيكون دوماً في أدمغتهم.

كلمة واحدة أخيرة: صار هذا الكتاب الذي هو الآن في طريقه للنشر بالإنجليزية في الولايات المتحدة من الكتب الرائجة في موطنه الأصلي إبّان أسابيع التجديد تلك، وترجم أو في طريقه للترجمة إلى عشر لغات، ولا يدعي المؤلف فضلاً في ذلك، ولكن أليس هو واحدة من علامات انبعاث اللاسلطوية في فرنسا والعالم عبر ثورة بدأت وحسب؟.

---

(1) لكون كوهن ـ بندت مواطناً ألمانياً، رغم ولادته في فرنسا، فقد أبعد من البلاد من قبل النظام الديغولي (أيار 1968) ولم يسمح له منذ ذلك الحين بالعودة إلى فرنسا.

ببليوغرافيا

[أضيف ترقيم المراجع وما دُوّن منها بالأحرف العربية ومن العبارات داخل معكوفين من قبل المترجم]

مقتطفات من نصوص مختارة

1 - Guerin Daniel - Ni dien Ni Naitre: Histore et Anthologie de Lanarchisme 2 vols. lausanne 1969.,

2 - Horowitz, Irving L- The Anarchists [ط ديل] New York 1969.

3 - kirmaman, Leonard l and Perry Lewis - Patterns of Anarchy [ط دبلدي أنكوربوكس] New York 1966.

4 ـ قارىء اللاسلطوية ـ تحرير جورج وودكوك ط فونتانا الرابعة. انجلترا 1983.

عامة

5 - Arvon. Henry - L. Anarchisme. Paris 1951 [مترجم إلى العربية].

6 - Berkaman, Alexander - The A.B.C. of Anarchist Communism, London 1942 [طبع لأول مرة بعنوان: ما هي اللاسلطوية الشيوعية؟ ط. فانجارد. نيويورك 1929 وبالعنوان المذكور في المتن. مطبعة فريدم. لندن 1960.]

7 - Golddman, Emma - Anirchism and other Essays. New York 1911 [1969 ط. دوفر. نيويورك].

8 - Hummon, Augustin - Psychologie de L' Anarchiste Socialiste 1895.

9 - Le Socialisme et le congres de Londres 1897.

10 - Joll, James - The Anarchists. Boston 1964 [طبعة مثون الثانية. لندن 1979].

11 - Maitron, Jean - Histoire du Mouvement Anarchiste en France (1894 - 1914) Paris 1955.

12 - Maximoff, G.P. - Constructive Anarchism, Chigaco 1952.

13 - Parsons, A.R and others - Anarchism, its Philosophy and Scientific Bases, Chigaco 1887.

14 - Read, Herhert - Anarchy and order, London 1954.

15 - The Philosophy of Anarchism, London 1940.

16 - Sergeant, Alain and Hamel, Clande - Histoire de L'Anarchie, Paris 1949.

17 - Wood Cock, George - Anarchism New York 1962 [ط. بنجوين 1983].

18 - Zocook, Ettore L'Anarchia, Turin 1907.

19 ـ اللاسلطوية: تحليل نظري ـ ألان ويتر. مطبعة جامعة كمبردج 1980.

20 ـ التأثيرات البرجوازية في اللاسلطوية ـ لويجي فابري. منشورات ويفراكت. كمبردج 1984.

21 ـ غاية اللاسلطوية ـ لويجي غالياني. منشورات ريفراكت. كمبردج 1984.

22 ـ الحركة اللاسلطوية: ملاحظات عن الحضارة، الطبقة والسلطة ترجمة جون. ب. كلارك ط. الوردة السوداء مونتريال 1984.

23 ـ الماركسية واللاسلطوية 1850 ـ 1890 سي. دي. ايج. كول ط. ماكميلان. لندن 1969 وهو الجزء الثالث من «تاريخ الفكر الاشتراكي» المترجم إلى العربية بصورة غير كاملة.

24 ـ اللاسلطوية ـ بول ايلتز ياجر. مطبعة فريدم. لندن 1962.

25 ـ الراية السوداء في امتحان اللاسلطوية المختصر ـ تحرير البرت مليتزر ط. ساينفيو جوس. إنجلترا 1974.

26 ـ إعادة اكتشاف اللاسلطة: بما يفكر اللاسلطويون في هذه الأيام تحرير هوارد جي. ايهرلنج وآخرين ط. روتلدج وكيجان بول. لندن 1979.

27 ـ إشاعات هادئة: مجموعة مقالات في الأنثوية اللاسلطوية ـ لين فارو وآخرون ط. النجمة السوداء. لندن 1983.

28 ـ الأنثوية كلاسلطوية ـ لين فارو. كراسة الدب الأسود عدد 2 لندن بدون تاريخ.

29 ـ المرأة والثورة تحرير ليديا سيرجنت ط. الوردة السوداء. مونتريال 1984.

شترنر

30 - Arvon, Henri - Aux Sources de L'Existentialisme: Max Stirner, Paris 1954.

31 - Stirner, Max - The Ego and its own, New York 1907 [ترجمة ستيفن باينجتون مطبعة ربيل لندن 1982].

32 - Kleinere Schriften, Berlin 1898.

33 ـ الأنوي العدمي ماكس شترنر ـ آر. دبليو. ك. باترسون مطبعة جامعة أكسفورد. لندن 1971.

34 ـ أنوية ماكس شترنر ـ جون ب. كلارك. مطبعة فريدم. لندن 1976.

برودون

35 - Brogam, D.W - Proudhon, London 1936.

36 - Edwards, Stewart [واليزابيث فريزر] Selected Writings of P.J. Proudhon [ط. دبلدي] New York 1969.

37 - Gurvitch, Georges - Proudhon, Paris 1965. [مترجم إلى العربية بقلم: إبراهيم العريس].

38 - Proudhon, P.J. - Carnets de P.J. Proudhon. Paris 1960.

39 - Mannel du Sreculateur a la Bourse, Paris 1852, 3 rd. enlarged edition 1857.

40 - Oeuvres Comrletes 26 vols. Paris 1867 - 1870 New edition. Paris 1938.

41 - Theorie de la propriete 1865.

42 - WoodCock, Goerge - Pierre -Joseph Proudhon [ط. ماكميلان] London 1956.

43 ـ برودون ـ دي. دبليو. بروكان ط. هامش هاملتون. لندن 1934.

44 ـ التفكير السياسي لبيير جوزيف برودون ـ ألان ريتر. مطبعة جامعة برنستن 1969.

45 ـ بيير ـ جوزيف برودون ـ ادوارد هيامز ط. جون موراي. لندن 1979.

باكونين

46 - Bakounine, Michel - Archive Bakounine 4 Vols. Leiden 1961 - 1965.

47 - Lettre a A. Herzen et a n. Ogareff 1860 - 1870 Edited by Michel Dragomanoff 1896.

48 - La leberte. Paris 1965.

49 - Oeuvres 6 Voles. Paris 1896 - 1914.

50 - God and The State. Boston 1893.

51 - Marxism, Freedom and The State [تحرير كي. جي كينافيك مطبعة فريدم] London 1950.

52 - Maximoff, G.P ed. The Political Philosophy of Bakunin: Scientific Anarchism. Glencoe 111 [مطبعة فري بريس. نيويورك] 1953 [وطبعة 1964.

53 - Nattlau, Max- Michael Bakunin 3 Vol. London 1896 - 1900.

54 - Pyjiut, Eugene - The Doctrine of Anarchism of M.A Bakunin, Milwakee 1955 [1968 وطبعة مطبعة كيت وي. شيكاغو].

55 ـ كتابات مختارة ـ ميخائيل باكونين. ترجمة ستيفن كوكس وأوليف ستيفنس ط. كيب. لندن 1976.

56 ـ ميخائيل باكونين. اي. ايج. كار ط. فينيتج. نيويورك 1961.

57 ـ اعترافات ميخائيل باكونين ترجمة روبرت سي. هاريس. مطبعة جامعة كورنيل 1977.

58 ـ باكونين عن اللاسلطة ـ تحرير سام بولجيف ط. فينيتج. نيويورك 1971.

59 ـ باكونين أب اللاسلطة ـ أنتوني ماسترز. مطبعة ستاردي ريفيو. نيويورك 1974.

60 ـ التفكير السياسي والاجتماعي لميخائيل باكونين ـ ريتشارد سالتمان. مطبعة كرين وود. لندن 1984.

الأممية الأولى

61 - de paepe, cesar- De L'Organisation des Services Publics dans la Societe Future, Brussels 1874.

52 - Memoire du Dustrict de Courtelary. Geneva 1880.

63 - Freymond, Jacques - la Premiere Internationale 2 Vols. Geneva 1962.

64 - Guillaume, james - I dees sur I Organisation Sociale 1876.

65 - L'Internationale Documents et Souvenirs (1864 - 1878) 4 Vol. Paris 1905 - 1910.

66 - Mohnar, Niklos-Le Dechin de la Premier International. Geneva 1963.

67 - Stekloff, G.M-History of The First International. London 1928 Reprint New York 1968.

68 ـ تاريخ الأممية 1864 ـ 1914 جوليوس برادنثالت. هنري كولنز وكينيث ميشيل ط. نلسون. لندن 1966.

69 ـ كارل ماركس والحركة العمالية البريطانية: سنوات الأممية الأولى ـ هنري كولنز وجايمن برامسكي ط. ماكيملان. لندن 1965.

70 ـ وثائق الأممية الأولى 1864 ـ 1872 ترجمة نينانوبوفيا شيجايا وموللي بيرلمان وليديا بلياكوف. نشريات التقدم 5 مجلدات بالإنجليزية. موسكو 1974.

71 ـ الأمميات الثورية 1864 ـ 1943 تحرير ميلوران إم. دارجكوفتش. مطبعة جامعة ستانفورد. الولايات المتحدة 1966.

72 ـ الأممية الأولى: مذكرات مؤتمر لاهاي 1872 مع الوثائق المتعلقة به ترجمة وتحرير هانز جيرث. مطبعة جامعة ويسكونسن 1958.

73 ـ مؤتمر لاهاي للأممية الأولى 2 ـ 7 أيلول 1872 مذكرات ووثائق ترجمة ريتشارد دكسن واليس ميلز. نشريات التقدم بالإنجليزية. موسكو 1976.

74 ـ كارل ماركس والأممية الأولى ترجمة وتحرير صول كي. راديو ط. ماكجرو ـ هل. نيويورك 1973.

75 ـ الأُممية الأولى وما بعدها ـ كارل ماركس تحرير دافيد فيرنباخ ط. بنجوين 1974.

76 ـ الديمقراطيون الاجتماعيون الألمان والأُممية الأولى 1864 ـ 1872 روجر بي. مورجان مطبعة جامعة كمبردج. لندن 1965.

77 ـ الماركسية والمجتمع الحر ـ ماركوس جراهام. مطبعة سينفيوجوس. انجلترا 1975.

كومونة 1817

78 - Bakounine, Michel - La Commune de Paris et la Notion de l'Etat 1871.

79 - Jelinek, Frank - The Paris Commune [1937 لندن. طبعة فكتور كولانز] New York 1967.

80 ـ كومونة باريس 1871 ستيوارت ادواردز ـ كتب كوادر انجل نيويورك 1973.

81 - Lefebvre, Henri - La Proclamation de la Commune. Paris 1965.

81 - Lissagoray, P.O.- History of The Commune of 1871 - 1886 Reprint New York 1967.

82 - Marx, Karl - The civil War in France, New York 1940.

83 ـ أ كومونة باريس ـ د. فاضل حسين. بغداد 1959.

84 ـ ب من كومونة باريس إلى مجازر عمان ـ العفيف الأخضر بيروت 1971.

كروبتكن

84 - Berneri, Cammillo - Peter Kropotkin: His federalist ideas [مطبعة فريدم London 1942 [1977 وطبعة سميان. إنجلترا].

85 - Kropotkin, Peter - The Conquest of Bread [طبعة جابمان وهول]

London 1906 Reprint [طبعة بنيامين بلوم] New York 1968. [وطبعة الين لين. لندن 1972 وطبعة الفنت للجيب بالإنجليزية. كاتانيا إيطاليا. تموز 1985].

86 - Ethics: Origin and Development. New York 1924 Reprint New York 1968.

87 - Fields, Factories, and Workshops [ط. هوتجنسون] London 1899 Reprint New York 1968. [وطبعة ألن واو نون. لندن 1974 وطبعة هاربر أند هاو. نيويورك 1975].

88 - Kropotkin's Revolutionary Pamrhlets-G Rogger N. Baldwin, ed. [طبعة فانكارد. نيويورك] 1927 Reprint New York 1968 [وطبعة دوفر. 1953. نيويورك 1970 وهي طبعة غير محذوف منها أو معدّلة]

89 - Memoirs of a revolutionist [طبعة هوغتون ميفن: بوسطن وهي طبعة كاملة] 1899 Reprint New York 1968 [وطبعة دبلدي. نيويورك 1962 وهي محذوف منها وطبعة دوفر. نيويورك 1970].

90 - Modern Science and Anorchism. London 1912 [وطبعة بيترسمث. نيويورك 1967 ومطبوع في المصدر رقم 88 ط. دوفر 1970].

91 - Mutual Aid: Afactor in Evolution. London 1904 Reprint New york 1955 [وطبعة هوريزون. بوسطن 1955 وطبعة ألن لين. لندن 1972].

92 - The State: Its Historic Role. London 1898.

93 - WoodCock, George and Avakumovic, I van - The Anarchist prince: Abiograrhy of Peter Kropotkin [ط. بوردمان] London 1950.

94 ـ كروبتكن الأساسي ـ مختارات تحرير كابويا وتمكنز ط. ماكميلان. لندن 1976.

95 ـ كروبتكن ـ مارتن أ. مللر (أستاذ مساعد التاريخ في جامعة دوك) مطبعة جامعة شيكاغو 1976 وفيه ببلوغرافيا واسعة تضم وثائق موجودة في روسيا وانجلترا وفرنسا وهولندا وسويسرا وبلجيكا والسويد والولايات المتحدة.

مالاتيستا

96 - Malatesta, Enrico - Anarchly. London 1942. [ترجمة جديدة: فرنون ريتشاردذ. مطبعة فريدم 1974]

97 - Malatesta: His Life and Ideas [مختارات ـ تحرير فرنون ريتشارد. مطبعة فريدم] London 1965.

98 - Programme et Organisation de L'Association Internationle des Travaillers. Florence 1884 Reprinted in studi Sociali, montevideo May - November 1934.

السندكالية

99 - Besnard, Piere - Lessundicats Ouvriers et la revolution Sociale. Paris 1930.

100 - Monatte, Pierre - Troisscissions syndicals. Paris 1958.

101 - Pataud, E and Pouget, E Syndicalism and Coperative Commonwealth. Oxford 1913.

102 - Pellontier, Fernand «L'Anarchisme et les syndicats Ouvriers» in les Terms. Nouveaux, November 1895.

103 - Histoire de Bourses du Travail. Paris 1902.

104 - Pouget, Emile - adnemoriam 1931.

105 - Le Parti du Travail Reprint 1931.

106 - Le syndicat Nd.

107 - Rocker, Rudolf Anarcho - syndicalism. London 1938.

الثورة الروسية

108 ـ السندكالية الثورية في فرنسا ـ إف. إف. رايدلي. مطبعة جامعة كمبردج. لندن 1970.

109 - Archinoff, Peirre L'Histoire du mouvement Makhnoviste. Paris 1928.

110 - Berkman, Alexander) The anti-climax [ط. سندكاليست] Berlin 1925.

111 - The Bolshevik Myth (dairy 1920 - 1921) [ط. بوني ولايف رايت] New York 1925. [الفصل المعنون: كرونشتادت: العمل الأخير للاسلطوية الروسية من هذا الكتاب منشور في المصدر تسلسل 2 أعلاه].

112 - The Kronstadt Rebellion [ط. سند كاليست] Berlin 1922.
[يؤلف هذا الكتاب الجزء الثالث من المرجع تسلسل 114 أدناه].

113 - La revolution russe et le Parti Communiste. Paris 1921.

114 - The Russian Tragedy [ط. سند كالسيت] Berlin 1922 [وطبعة سينفيوجوس إنجلترا 1976].

115 - Deutscher, Issac Trotsky 3 Vols. New York 1954 - 1959 [مطبوع بعنوان: النبي المسلح تروتسكي 1879 ـ 1921 مطبعة أكسفورد. لندن 1954]

116 - Fabbri, Luigi-Dittatura Rivoluzione. Milan 1921.

117 - Fedeli, Ugo-Dalla Insurrezione dei contadini in ucraina alla revolta di cronstadt, milan 1950.

118 - Goldman, Emma-les Bolcheviks et la revolution Russe. Berlin 1922.

119 - Living My Life [ط. كتوف 2 مج] New York 1931. [حذف من هذه الطبعة المقاطع الخاصة بكرونشتادت وطبعة جاردن سيتي. نيويورك 1934 وطبعة دوفر. نيويورك 1970].

120 - My Disillusionment in Russia [ط. دبلدي] New York 1923 [مطبوع مع المرجع رقم 121 أدناه طبعة 1925].

121 - My Further Disillusionment with Russia. New York 1923. [وطبعة دانييل. لندن 1925 وطبعة أبولو. نيويورك 1970].

122 - Trotsky Protests too much. New York 1938. [نشر لأول مرة في

جلاسكو 1931 ثم في صحيفة فريدم. لندن عدد 19/ 1/ 1977 وطبع في كتاب: ايما الحمراء تتكلم تحرير اليكس كيتس ط. كتيب سكوكن. نيويورك 1984 ويضم طبعة منقحة لمختارات من كتابات ايما غولدمان مع ثلاث مواد جديدة].

123 - Kollontay, Alexandra L'Offosition Ouvriere 1921 Reissued in Socialisme ou Barbaria No. 35-1964.

124 - Kobanin, M-Makhnosh china Leningrad nd.

125 - Lenin, V.I - Left - Wing Communism: An Infantile Disorder. New York 1940 [مترجم إلى العربية].

126 - State and Revolution. New York [1932 مترجم إلى العربية].

127 - Leval, Gaston le Chemin du Socialisme, les Debuts de la crise communiste Bolchevique. Geneva 1958.

128 - «Choses de Russie» in Le Libertaire, November 11-18, 1921.

129 - Makhno, Nestor - La Revolution Russe en Ukraine. Paris 1927.

130 - Maximoff, G.P - The Guillotine at Work: Twenty Years of Terror in Russie Chicago 1940 [طبع المجلد الأول منه بعنوان: المقصلة في العمل: الثورة اللينينية سينفيوجوس. إنجلترا 1975 المضادة مطبعة].

131 - Mett, Ida - la commune de cronstadt 1938 Reprint 1948.

132 - The Kronstadt Commune-Solidarity Parnrhlet No 27, November, 1927 1967 [طبع بعنوان: انتفاضة كرونشتادت ط. سوليدارتي. لندن وفيه ببلوغرافيا بمختلف لغات العالم.

133 - Pankratova, A Les Comites. d'usine de Russie. Moscow 1923.

134 - Rocker, Rudorh-die Bankrotte des Russischen statskommunismus. Berlin 1921.

135 - Sadoul, George - Notes sur la Revolution Bolchevique. Paris 1919.

136 - Serge, Victor L'An Ide la Revolution Russe. Reprint 1965.

137 - Memoirs of a Revolutionary 1901 - 1941 Reprint New York 1967. [وطبعة مطبعة جامعة كمبردج 1963 وقد اختصر فيها المترجم بيتر سدجويك بعض المواد]

138 - Shapiro, Leonard Les Bolcheviks et l'Offosition (1917 - 1922). Paris 1957.

139 - Steranov, I - Du Control Ouvrier a l'Administration Ouvriere Moscow 1918.

140 - Trotsky, Leon-1905 Reissued in 1966 in French.

141 - History of The Russian Revolution. New York 1957.

142 - Voline (Vsevolod Mikhailovitch Eichenbaum) The unknoun Revolution 1917 - 1921 New York 1955. [وطبعة مطبعة فريدم 1955 مترجم من الفرنسية من قبل هولي فانتاين باختصار وأما طبعة الأسود والأحمر. ديترويت 1974 فهي كاملة]

143 - Yartciuk, E-Kronstadt Barceloona 1930.

144 - ST. Anthony's Parers No. 6 London 1959 (Onkronstadt and Makhno).

145 ـ اللاسلطويون الروس ـ بول افريج. مطبعة جامعة برنستن 1967.

146 ـ اللاسلطويون في الثورة الروسية ـ بول افريج ط. ثيمس وهدسون. لندن 1973.

147 ـ كرونشتادت 1921 بول افريج. مطبعة جامعة برنستن 1970.

148 ـ انتفاضة كرونشتادت 1921 لين ثور نيكروفت. كراسة الكتب اليسارية رقم 1 سياتل. الولايات المتحدة 1977.

149 ـ تمرد كرونشتادت ـ أنتون سيلجا. مطبعة فريدم. إنجلترا 1942.

150 ـ مجلة اللاسلطة عدد 2 ترقيم جديد آذار 1971 خاص بكرونشتادت.

150أ- ثورة كرونشطاط - العفيف الأخضر مجلة دراسات عربية - بيروت آذار 1973.

المجالس

151 - Gotter, Hermann - Repons a Lenin 1920 Reprint 1930.

152 - Gramsci, Antoni L'ordine. Nuovo (1919 - 1920) 1954.

153 - Mosini, Pier Carlo - Anarici a communiste nel Movimento licon-sigle Milan 1954.

154 - Gli Anarchici Italiani et la Rivoluizione Russa 1962.

155 - Antonio Gramsci I Ordine Nuovo Visti da un Libertario. Leghorn 1956.

156 - Muhsam, Erich-Auswahl. Zurich 1962.

157 - Pannekoek, Anton-Worker's Councils. Reprint. Melbourne 1950.

158 - Srriano, Paolo L'Occurazione delle Fabbriche sebtembre 1920 Turin 1964.

158أ- الثورة الألمانية 1918 - 1919 العفيف الأخضر بيروت 1973.

الثورة الإسبانية

159 - Bolloten, Burnett The Grand Comouflage The commumist consriracy in the sranish civil War. New York 1968 [وطبعة فردريك أ. بريجر. نيويورك 1961]

160 - Borkeman, Franz The sranich cockrit Reprint Annarbor 1965[طبعة فابر وفابر. لندن 1937 وطبعة مطبعة جامعة ميشغان 1963].

161 - Bernan, Gerald - The spanich Labyrinth. New York 1943. [وطبعة مطبعة جامعة كمبردج 1960 و1972]

162 - Broue, Piere and temime, Emile - La Revolution et la Guerre d'Espagne. paris 1961.

163 - Chomsky, Noam - Objectivity and Liberal Scholarshir» in American Power and the new Mandarins [ط . رانـدوم هـاوس]. New York 1969.

164 - Jellinek, Frank - The civil War in Spain. London 1938.

165 - Leval, Gaston - Ne Franco Ne Stalin. melan 1952.

166 - Social Reconstruction in Spain. London 1935 : [وطـبـع بـعـنـوان الجماعيات في الثورة الإسبانية ترجمة فرنون ريتشاردز مطبعة فريدم. لندن 1975].

167 - Mauriin, Joaquin - L'Anarcho Syndicalisme en Espagne 1924.

168 - Revolution et Contre - Revolution en Espagne 1937.

169 - Montseny, Federica - Militant Anarchism and The reality in Spain Glasgow 1937.

170 - Munis, G-Jalones de Derrota Mexica 1946.

171 - Orwell, George - Hamage to Catalonia 1939 Reprint. Boston 1955. [وطبع في بنجوين 1977 فلاحقاً].

172 - Peirats, Jose - Los Anarquistas en la crisis Politica Espanola. Buenos Aires 1964.

173 - La CNT en la Revolution Espanola 3 Vols. Toulouse 1951m [ترجم فصل صغير منه بعنوان ما هي سي أن تي؟ مطبعة سينفيو جوس. إنجلترا 1975].

174 - Puente, Dr. Isaac - Comunismo Libertario 1932.

175 - Raobassiere, Henri - Espagne Creuset Politique Nd.

176 - Richards, Vernon - Lessons of the Spanish Revolution. London 1953 [وطبعة منقحة مع ملحق جديد. مطبعة فريدم لندن 1984].

177 - Santillan, D.A. de - After The Revolution [ط . الـنـاشـر جـريـنـبـرج] New York 1937.

178 - La Revolutiony la Gverlla en Espagne 1938.

179 - Collectivites Anarchistes en Espane Revolutionaire in Noir et rouge (March 1964) and Collectivites Espagnoles in Noir et Rouge (June 1965).

180 ـ مأساة إسبانيا ـ رودولف روكر ط. فري اريترستيم. نيويورك 1937.

181 ـ الحرب الأهلية الإسبانية ـ هوف توماس ط. هاربر وأندرو. نيويورك 1961 وطبعة بنجوين 1976.

182 ـ الجماعيات اللاسلطوية ـ سام ولجوف. مطبعة سينفيوجوس إنجلترا 1975.

183 ـ اللاسلطويون الإسبان: الأعوام البطولية 1868 ـ 1936 موراي بوكحن ط. هاربر وأندرو. نيويورك 1977.

184 ـ لاسلطويو الأندلس 1868 ـ 1903 تيما كبلان. مطبعة جامعة برنستن 1977.

185 ـ الشيوعية والحرب الأهلية الإسبانية ـ د.ت. كاتل ط. الناشرون رسل ورسل. نيويورك 1975.

186 ـ إسبانيا والقوى الكبرى 1936 ـ 1941 دانتي آي. بوزو ـ مطبعة جامعة كولومبيا. نيويورك 1962.

التسيير الذاتي المعاصر

187 - Kavcic, Staine - L'Autogestion. en Yougoslavie 1961.

188 - Maister, Allert - Socialisme et Autogestion: L'exprerience Yougosalve 1964. [مترجم إلى العربية].

189 - La Temps Modernes june 1965.

190 ـ مصاعب الاشتراكية في الجزائر ـ جيرارد شاليان الترجمة العربية: دار الطليعة ـ بيروت 1964.

حواشي المترجم

1 ـ حاشية عامة

إذا كانت الانطباعات الأولية البسيطة التي تتلقاها الحواس من العالم الخارجي Perceptions كالحرارة والبرودة أو الليونة والصلابة أو السواد والبياض ذات صفة نوعية وعامة لدى الكائنات الحية جميعاً فإن الفكر/ الوعي/ المعنى الذي سرعان ما يضفيه العقل البشري عليها بحكم طبيعته المزدوجة ذا صفة فردية وخاصة، لأن جوهر العقل هو «العلائقية» كالتماثل والتضاد وهي متنوعة ومتعددة بقدر عدد الكائنات البشرية والحالات الذهنية اللامتناهية التي يمر بها كل منها (للاستفادة يراجع: المسائل الرئيسية للفلسفة ـ أي جي. آير ط. بنجوين 1978 الفصل الرابع: مشكلة الإدراك ص 68 ـ 88 من وجهة نظر تجريبية إنجليزية ومقالة التطبيق كمعيار للحقيقة ثيودور أو يزرمان ـ العلوم الاجتماعية مجلة أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي بالإنجليزية عدد 2/ 1989 ص 120 ـ 136 من وجهة النظر السوفياتية المتأخرة جداً وتبعث مفهوم بليخانوف القديم «لا تتصل الحقيقة بالموضوع فقط وإنما بالذات أيضاً»).

وإذا كانت الانطباعات الحسية أقرب ما تكون إلى ردود فعل آلية للجسم البشري تجاه الوجود المادي فإن الفكر صراع ضده وتجريد وتجاوز له وتعالٍ عليه، وبذلك فإن كل فكرة، مهما كانت مجردة، تعبير عن الذات وسلاح من

أسلحتها ضد التشيؤ ولفرض إرادتها على صيرورة الأشياء، وهي ما أن تنعكس عليها حتى تجمد وتتصلب وتتحول إلى أقنومة Postas مثل المقولات والأجناس والأنواع والقوانين، وكلها ذات طابع شمولي وجماعي وشراك للعقل ومجاز (حسب نيتشه، أو ايديولوجية حسب ماركس أو لا شعور حسب فرويد، أو دلالة حسب ليفي شتراوس) يحتاج إلى تأويل وكل تأويل إلى تأويل ولا تبقى الفكرة كما كانت أبداً. بهذا المعنى يكتسب التأويل صفة تقدمية حقاً، ولكن ليس «بتطويره» للفكرة المؤولة كما رأى تشارلس بيرس (بيرس والبراجماتية ـ دبليو ب. جالي ط. بنجوين 1952 ص 46) وإنما بكشفه للواقع الارتكاسي الذي انحدرت إليه الفكرة.

وتظل الذات تبحث عن وعي (إرادة القوة الحقيقية) أكثر شمولاً لكل قوة الأناسن من إرادة. وغريزة وعاطفة وعقل (مخيلة وإدراك وذاكرة) يقدر على عبور الهوة بينها وبين الكينونة، وإذا ما وجد مثل هذا الوعي فإنه سيكون لاسلطوياً، لأن السلطة لا تنبع من الفردي أو الجزئي مطلقاً.

ونحن إذ نقدم مجموعة أخرى من الأفكار في هذه الحواشي فإننا لا ننظر إليها كما هي بل إلى تحولاتها ابتداء وانتهاء.

(2) ص 6

دانييل غورين كاتب فرنسي ماركسي من أسرة يهودية تبنى منظوراً لاسلطوياً، وقد قالت مجلة «اللاسلطة» عن كتابه هذا «كمدخل إلى اللاسلطوية. . . ليس من كتاب آخر يُفضّل عليه» السلسلة الثانية. لندن 1976 «وأفضل كتاب راهن عن اللاسلطوية» النظرية السياسية للاسلطوية ابرل كاتر ط. روتلدج وكيجان بول. لندن 1971 ص 111 ولهذا السبب اخترناه من بين خمسة كتب شاملة فقط تتوفر في اللغة الإنجليزية عن اللاسلطوية نظرية وحركة معاً.

والكتاب لا يخلو من ثغرات ونقاط بحث سلبية أهمها تجاهل المؤلف للأفكار الرائدة لوليم غودوين ونظرته غير المعمقة إلى مجمل أفكار كروبتكن

التي تمثل (بصرف النظر عن النزعة الطبيعية الزائدة فيها وعن موقف صاحبها الشخصي من ح.ع.أ) المرحلة الأكثر تكاملاً بعد تبادلية برودون وجماعية باكونين، وعدم تناوله الأطوار الجديدة للفكر والعمل اللاسلطويين بعد ح.ع.ث. (عدا ما يتعلق بثورة باريس 1968) ونخص منها بالذكر ما يمثله البرت ميلتزر وهو مناضل طبقي وكاتب إنجليزي ولد سنة 1920 وقضى خدمته العسكرية في مصر في أواخر ح.ع.ث. وشكل سوفياتات جنود في القاهرة لترتبط بسوفياتات العمال، ويتضمن كتابه «اللاسلطويون في لندن 1935 ـ 1955 مطبعة سينفيوجوس. إنجلترا 1976 مع ملحق عن العشرين سنة اللاحقة» تفاصيل نضاله ونضال رفاقه.

وهذه الثغرة أدت بالمؤلف إلى التوهم بأن بعض المسائل التي كانت قائمة في أواخر القرن الماضي (مثل التنظيم ودور الطليعة... الخ) لم تحسم في الفكر والعمل اللاسلطويين لحدّ الآن.

وأيضاً تركيزه الزائد على التسيير الذاتي بحيث يبدو وكأنه قوام اللاسلطوية الوحيد، وهذا ما أدى به إلى الاندفاع في بعض الأحيان، كما في حديثه عن تجربة يوغوسلافيا وتجربة العمال الزراعيين في الجزائر بعد الاستقلال مباشرة، ومع أنها «اتخذت منطقاً أقرب إلى المنطق اللاسلطوي منه إلى جبهة التحرير الوطني» كما نشرت صحيفة إنسر كشن. إنجلترا أيار 1985 نقلاً عن صحيفة داكسبريشن ليبرتيريس الفرنسية، إلا أن نظرته إلى التجربتين كانت متفائلة أكثر مما يجب.

وكلامه عن بندت في نهاية الكتاب غير موضوعي ويتناقض حتى مع ما وضعه هو في كتابه، وتأتي مبالغته، لهذا السبب أو لآخر، في إظهار دور بندت الفردي متفقة مع ما عمد إليه الإعلام البرجوازي في تلك الفترة على عادته في تشويه كل حركة ثورية جماهيرية بإظهارها كمجرد حركة منقادة لأفراد. وحتى ذلك الدور، مهما كان حجمه الحقيقي، لم يؤده بندت جيداً، فقد خان ـ كما يقول جورج وود كوك ـ دعاواه اللاسلطوية حينما صرح إبّان

الثورة بما معناه أن الحرية ليست للجميع (حتى لأعداء الحرية) وبحرمان البعض منها.

وبندت ممن حاولوا، مثل غورين، خلق ماركسية ـ لاسلطوية (يراجع الشيوعية العتيقة: بديل الجماح اليساري ـ دانيال وجابريال كوهن بندت ت أرنولد بوفيرانس ط. بنجوين 1969 ص 38 وما بعدها) ثم أصبح من أنصار الخضر في ألمانيا الغربية.

(3) ص 6

نعوم جومسكي كاتب أميركي من أسرة يهودية، وهو معروف للقراء العرب كأحد أقطاب اللسانيات المحدثين وغير معروف كأحد أبرز «المنشقين» داخل النظام الرأسمالي الأميركي، وتعتبر مقدمته لهذا الكتاب المنعطف الهام الآخر له نحو اللاسلطة، وقد سبقها كتاباه «في مبررات الدولة» 1967 «والقوة الأميركية والأباطرة الجدد» 1969 وفيه الفصل المذكور في الببليوغرافيا تسلسل 163 عن الثورة الإسبانية وهو في جوهره تعقيبات على كتاب «الجمهورية الإسبانية والحرب الأهلية 1931 ـ 1939 جبريل جاكسون. مطبعة جامعة برنستن 1960» حيث يتبنى جاكسون أحياناً قناعات ستالينية عن بعض الأحداث، ويفضح الفصل نفاق الدولة الغربية الكبرى بتظاهرها إما بالوقوف على الحياد بين الثوار وفرانكو (انجلترا) أو بالتعاطف مع الديمقراطية في إسبانيا (الولايات المتحدة وفرنسا) وهي ترتعب في نفس الوقت من احتمال ظفر اللاسلطوية فتغازل هتلر وتساند فرانكو في الخفاء. ويكفي أن نقتبس بهذا الصدد تصريح ونستن تشرشل في نيسان 1937 «إن انتصار فرانكو لن يؤذي المصالح البريطانية، والأحرى إن الخطر في انتصار التروتسكيين واللاسلطويين».

عاش جومسكي لفترة في أحد الكيبوتزات وتأثر بتجربتها رغم أنه يقول «إنها تجسّد عيوباً خطيرة وأحياناً جرائم، ويجب أن يكتشف المرء الأوجه الأخرى أيضاً للتجربة مثل أشكال القسر التي تبرز من الحاجة إلى إحراز القبول في مجتمع مقيّد بإحكام وهو ليس موضوعاً بسيطاً فيما أظن» وكتابه «الثلاثي

المحتوم إسرائيل، الولايات المتحدة والفلسطينيون» كتب الوردة السوداء. مونتريال 1984 يضم آراء توفيقية مماثلة.

وهو بين يساريين كثيرين غير دقيق في تفهمه لظاهرة الكيبوتزات المبتدئة سنة 1882 مثله كمثل اللاسلطوي الألماني أوغسطين سوجي (1892 ـ سنة 1984) الذي زار الكيبوتزات بعد ح.ع.ث. ووضع كتاباً بعنوان «إسرائيل الجديدة» زعم فيه أن الكيبوتزات شبيهة بالجماعيات التي أقامها اللاسلطويون في إسبانيا. يعتبر سوجي معتدلاً في نظر اللاسلطويين الآخرين، وما زعمه مرفوض بنظرهم لأن الكيبوتزات ليست تجربة اشتراكية حقيقية بل شكلاً من أشكال مشاعية الحرب، وجزءاً من خط الدفاع العسكري بدليل مواقعها ومعالمها العسكرية المحضة (كالانضباط والطاعة) إضافة إلى أنها تستغل جهود عمال مأجورين من خارجها وحتى الانطباع السائد داخل إسرائيل نفسها أن الكيبوتزات وجود غريب الآن فقد تساءلت مقدمة برنامج «الكيبوتزات المتغيرة» هل انتهت الكيبوتزات في إسرائيل؟ نتيجة التغييرات فيها بعد ظهور جيل الستينات وبدئها بالانسجام مع المجتمع ككل (راديو إسرائيل من القدس بالإنجليزية 4/ 5/ 1993). والأصح ما كتب كريستي وميلتزر «إن الكومونات المقاومة باتجاهات تحررية واعية ضمن إنجازات قطالونيا إبّان الحرب الأهلية الإسبانية قد شوهت على الجانب الآخر من البحر المتوسط حيث أقيمت كيبوتزات من قبل المستوطنين باتجاهات سلطوية من نوع أو آخر «بوابات اللاسلطة ـ ستيوارت كريستي وألبرت ميلترز ط. كاهن وافرل المنقحة. إنجلترا 1979 ص 53.

وقد سمّى جومسكي نفسه «رفيق سفر ثانوي للاسلطوية» ثم «اشتراكي لا سلطوي» وتحدث في مقابلة صحفية صيف 1983 «لا أستطيع القول حقيقة كم أنا اقتربت من التأثر بالأفكار اللاسلطوية وأنا لا أستطيع تذكّر وقتٍ لم أكن فيه متأثراً هكذا» مجلة أوبن رود. فانكوفر عدد 16 ربيع 1984 ص 17.

(4) ص 6

السلطة لا تعني بمفهومنا مجرد دولة قوية كما هو مصطلح عليه في

الأدبيات السياسية التقليدية (يراجع مثلا: قاموس السياسة ـ فلورانس إليوت ط. بنجوين السابعة 1975 مادة سلطوية ص 32) وإنما كل كيان مادي أو معنوي تقيمه قوة اجتماعية لفرض إرادتها على قوى اجتماعية أخرى. وبهذا المعنى فإن كل سلطة هي قوة، ولكن ليست كل قوة هي سلطة، فكما ذكر بالديلي فقد تبقى قوة ما على فرد ما (اللاسلطوية الاجتماعية ـ جيوفاني بالديلي ط. الداين ـ اهيرتون. شيكاغو 1971 ص 75) حتى ولو كانت هذه القوة جماعية. ونمثل لها بقوة آراء الأغلبية على الأقلية والجيل القديم على الجيل الجديد والأطباء بفرضهم لجرعة دوائية معينة على الناس للوقاية من وباء، لأن قوة المجموعة الأولى هنا لا تمثل قوة اجتماعية متجانسة ولا أن فرض إرادتها يكون على مجموعة متجانسة أخرى، وإنما من وعلى مجموعة كيانات فردية متباينة وبدون إكراه ملجئي. ولا يتصور وقوع قوة اجتماعية على فرد ما باعتباره فرداً وليس منتمياً إلى فئة اجتماعية معينة.

ولا تشكل قوة الفرد سلطة سواء أكانت بدنية (ملاكم أو قاطع طريق) أم معنوية (المفكر أو الفنان) إلا إذا اكتسبت طابعاً اجتماعياً، مثل الأب ضمن العائلة البرجوازية في الحالة الأولى أو المفكر عندما تتحول أفكاره إلى ايديولوجية في الحالة الثانية كتحول العلم (وهو محايد اجتماعياً) إلى تكنولوجيا مثل أفكار أرسطو التي تحولت إلى أرسطوطاليسية شبه مقدسة لدى الكنيسة في القرون الوسطى، وحينئذٍ تتحول قوة الاثنين إلى أداة من أدوات السلطة السياسية لعرقلة الصيرورة التاريخية.

واللاسلطة هي الرفض الفردي أو الفئوي لكل سلطة وإحلال حد أدنى من العلاقة العامة الوحيدة الممكنة بين الناس (وهي العلاقة الاقتصادية الحرة) محلها وبأكثر صورها تلقائية ومباشرة، أي بدون أية كيانات وسيطة لإدامة حياة الجماعة وبدون المساس باستقلالية الأفراد. والنسبة إليها اصطلاحية ومجازية لأنه ليس هناك مذهب ما وراء المصطلح الشائع «اللاسلطوية» وإنما هنالك لاسلطويون. يورد سباستيان فور في الأنسكلوبيديا اللاسلطوية «من ينكر

السلطة ويحارب ضدها فهو لاسلطوي» ويستدل من هذا التعريف أن اللاسلطوية تقوم على ركيزتين (الأولى) إنكار مبدأ السلطة على إطلاقه وبأي اسم ومن أي نوع كان.

ومن أهم صور السلطة في العصر الراهن: الملكية الخاصة (وما ينشأ منها من نظام رأسمالي ونظام الأجور وآخر للنقود) والمؤسسة الدينية والدولة والحكومات (وأجهزتها كالشرطة والجيش والمحاكم والسجون) والعائلة البرجوازية والمدرسة والأخلاقيات والقوانين لأنها جميعاً تقوم على الملكية الخاصة، وقد قال جون لوك (1632 ـ 1704) قديماً إن الهدف الأكبر والرئيسي لتوحد الرجال في رابطة ووضع أنفسهم تحت نفوذ حكومة هو الحفاظ على ملكيتهم (مقالة تتعلق بالأصل الحقيقي ومدى وغاية الحكومة المدنية ـ جون لوك منشورة في: الفلاسفة السياسيون تحرير ساكس كومنس وروبرت أن. ليسكوت. مكتبة الجيب. الولايات المتحدة. 1954 ص128) والمناضل اللاسلطوي المكسيكي ماجون حديثاً «السلطة هي جندرمة الرأسمال، وهذه الجندرمة لا يدفع لها من قبل الرأسمال وإنما من قبل الفقراء».

ويصل عداء اللاسلطويين إلى المفاهيم المجردة كالمجتمع والسياسة والمركزية في أي شيء وحتى إلى اللغة والمنطق لأنها شمولية يضطر الفرد في ظلها إلى الخضوع لكل أعظم منه أي أنها ضرب من الطغيان، لذا ليس غريباً أن تصطبغ آراء بعض المتعمقين المعاصرين في دراسة التراكيب اللغوية مثل المابعد ـ البنيوية وجوليا كريستيفا باللاسلطوية ومعاداة المؤسسات الثابتة كما لاحظ مؤلف النظرية الأدبية ـ تيري إيجلتون ط. بازل للاكويل. أكسفورد 1989 ص150 و190. ويصح هنا القول إن اللاسلطوية فلسفة نفي... نفي مطلق.

الركيزة الثانية هي محاربة السلطة بالعمل العفوي المباشر لأن اللاسلطوية تعطي الأولوية دوماً للحياة والفعل على النظرية والجمود، وعدم إقامة تنظيمات تفصل ما بين الشعب وأهدافه وتحوّل نفسها إلى سلطة جديدة بما تخلق من

قادة... خبراء... كوادر متفرغة ولجان الخ ويتجنب اللاسلطويون إلى اليوم إنشاء أحزاب معتمدين على مجاميع وقتية صغيرة وسائبة Loose ذاتية الحركة ومستقلة عن غيرها وقائمة على الإرادة الفردية الحرة في الانتماء واتخاذ القرارات والانسحاب، أو تنظيمات نقابية بنفس الخصائص لتنظيم المصالح الاقتصادية المحلية والإقليمية.

وعلى هذا لا يعتبر من اللاسلطويين أفراد أو فئات ينكرون شكلاً من أشكال السلطة ويعملون ضده، ولكن ليس ضد جوهر السلطة مثل جماعات ضد التسلح النووي وحماية البيئة ومقاومة التمييز العنصري والأنثوية وحركات الطلاب من أجل حرية وتحسين ظروف التدريس (تمرد طلاب جامعة بيركلي 1964 وكولومبيا 1968) والشباب كالهيبز والبانكس والمانجستريين. فهذه الفئات والحركات تنكر جزءاً من الأبعاد الكامل للإنسان عن جوهره الحقيقي وتُبقي عموماً على سلطة رأس المال في نفس الوقت وتستبدل أيديولوجيته بأوهام أخرى مثل التصوف الشرقي (اليوغا والبوذية) أو الكنيسة الجديدة.

كما ولا يعتبر منهم فئات تنكر السلطة كلاً أو جزءاً ولكنها لا تعمل ضدها وتكتفي بإظهار معالم الاستياء والتمرد غير المؤثر فيها، وغالباً ما تنعزل عن الكيانات الاجتماعية مثل المتشردين والبوهيميين وذوي الميول الجنسية غير المقبولة اجتماعياً والخارجين على القانون ودعاة العودة إلى الطبيعة.

إلا أن أكبر فئة من هذه الفئات عدداً وتأثيراً هم الفنانون الذين تفرض عليهم طبيعة الفن بكونها ضد ـ الواقع أن يكونوا ضد ـ السلطة حامية الواقع الاستغلالي والمستعبد والقبيح. الفنان الحقيقي خائن حسبما قال وليم غودوين، وقد أصبحت هذه المقولة جوهر موجة الحداثة في الأدب والفن بعد قرن. وهذا أحد روادها: بروست يرى بطله الفنان «وفجأة يضعنا الروائي في تلك الحالة، كما في الحالات الذهنية النقية، حيث يتضاعف كل انفعال عشر مرات فيما يأتي كتابه ليغمرنا كقوة الأحلام، ولكن أحلاماً أكثر إشراقاً وتأثيراً،

أكثر استغراقاً من تلك التي تأتينا في المنام، ومن ثم يضع فينا خلال وهلة ساعة كل المتع والأحزان التي في العالم والتي علينا أن نقضي سنوات في حياتنا الحقيقية لكي ننال بعضاً منها وبأقل كثافة» طريق سوان 1913 ـ القسم الأول من بحث عن زمن ضائع ـ مرسيل بروست ترجمة سي. كي. سكوت مونكريف ط. المكتبة الحديثة. نيويورك 1928 ص 106 أي أن «الفن تزييف للحياة» مرسيل بروست ـ جيورجيس كاتو. ترجمة روث هال. مطبعة ميرلن لندن 1967 ص25.

ورائد ثانٍ: جويس، لا يؤمن بطله الفنان ستيفان ديدالوس بالمعتقدات الأخلاقية والاجتماعية والوطنية والدينية ويتبنى شعار اللاسلطويين القديم: يجب أن أقتل الكاهن والملك (يولسيس ـ جيمس جويس ط. فينيتيج. نيويورك 1961 ص 666 و589 بدلالة ص 470 و775) ويخاطب نفسه في رواية أخرى «ديدالوس أنت كائن ضد المجتمع، منغلق على ذاتك» صورة الفنان كشاب ـ جيمس جويس ط. بنجوين 1965 ص 177.

ورائد ثالث: إزرا باوند، يجعل شعاره «بناء حلم فوق العالم» ويدعو للوثنية (حياة إزرا باوند ـ نويل ستوك ط. بنجوين 1974 ص 106 و311) «والفلسفة الحديثة هي لا أكثر ولا أقل من الوثنية» المرض من الموت مطبوع مع الخوف والقشعريرة ـ سورين كركجرد ت. والترلوري. مطبعة جامعة برنستن 1974 ص 224.

ورائد رابع: فيرجينيا وولف والمعضلة القديمة في رواياتها «الحقيقة والمجتمع لا يسيران معاً... فالعقل المنعزل وحده يقدر على أن يلمح الحقيقة النهائية» دراسة للروايات الرئيسية لفيرجينيا ولف ـ د. عقيلة متولي رمضان (بالإنجليزية) ط. القاهرة بدون تاريخ ص 22 فتبحث بطلتها الفنانة/ الرسامة أيضاً ليللي بريسكو عن التجلي الأعظم «من المحتمل أنه لم يكن قد أتى قط كان هناك بدلاً منه معجزات والتماعات وأعواد ثقاب يومية صغيرة اشتعلت بصورة غير متوقعة في الظلام» إلى الفنار ـ فرجينيا وولف ط. مكتبة

ايفري مانز. لندن 1964 ص 186 والكلمات نفسها تقريباً معادة في السيدة دالوي (ط. جرانادا. إنجلترا 1980 ص 30) «يجب أن تحرر نفسك من غرور الوطنية بالدرجة الأولى وكذلك الغرور الديني غرور الكلية، غرور المدرسة، غرور العائلة، غرور الجنس وتلك الولاءات غير الحقيقية التي تبرز من بينها» ثلاثة جنيهات ـ فيرجينيا وولف. مطبعة هوجارث. لندن 1943 ص 146.

وهنري بطل وداع للسلاح ليس لا دينياً ولا يؤمن بالمفاهيم الإطلاقية (وداع للسلاح ـ أرنست هيمنغواي ط. بانثر 1977 فصل 18 ص 85) وحسب بل إنه يحقق أيضاً الخلود عن طريق الشجاعة والرواقية وليس عن طريق الخدمة الغيرية لله والوطن والمحبوب والجنس البشري (ديانة الموت في وداع للسلاح ـ جيمس إن. لايت منشور في دراسات ميرل في وداع للسلاح توضيب جون ـ جراهام شركة نشر تشارلس أي. مورل. كولومبس. أوهايو 1971 ص 45) ومن الثابت أن هيمنغواي من المعادين للدولة ويرى أن كل أشكال الحكومات لعنة (أرنست هيمنغواي: قصة حياة ـ كارلوس بيكر ط. بنجوين 1972 ص 344 و422) ومن المتعلقين بجورج أورويل ودوس باسوس (أخي أرنست هيمنغواي ـ ليسستر هيمنغواي ط. كتب كرست نيويورك 1963 ص251).

والقافلة طويلة ولننتهي إلى تنسي وليامز «الفن نوع من اللاسلطة بالمقارنة مع المجتمع المنظم، ويجب أن يسير ضد الأنظمة التي يتأسس عليها بجلاء: إنه لاسلطة هادفة» حيث أعيش: مجموعة مقالات ـ تنسي وليامز ط. داير كشن بوك الثانية. نيويورك 1978 ص8.

لا شك أن المفهوم المعروض آنفاً يفسح المجال رحباً للتنوع الشديد في الاتجاهات الفرعية خاصة وأن ليس للاسلطوية عقيدة ونظرية شاملة أو نبي وحواريون أو كتاب مقدس وكنيسة أو حزب وقيادة أو قادة وناطقون رسميون (وجدت تطبيقات قبل غودوين برودون والتحق باكونين باللاسلطويين وعمره خمسون سنة) بل مفكرون وناشطون ليس لتوجيه الآخرين وإنما لإيقاظ فكرهم. وإذا ما عثر القارىء على بعض من تلك المسميات في هذا الكتاب

فهو من قبيل تحكم العادة كما في شيوع استخدامنا المسميات ما ورائية دون الإيمان بها.

ولكن مجال هذا التنوع هو الوسائل وليس الغايات مما يحول دون إلحاق صفات بالمبدأ تتناقض بصراحة معه. ومن أكثر هذه الصفات شيوعاً: لاسلطوية ـ رأسمالية أو ليبرالية (تقليل تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية والسياسية إلى أدنى حد) ولاسلطوية ـ بوذية «أو مسيحية (دورثي داي في الولايات المتحدة، ويزعم أن المسيح هو أول لاسلطوي) ولاسلطوية ـ سلمية (تولستوي، غاندي ومارتن لوثر كنج) فهذه التسميات المضافة ربما تعني إنكار السلطة السياسية، ولكن مع الإبقاء على سلطة رأس المال، وما استثنى منها تُحل سلطة معنوية/ أخلاقية محلها.

وأما التنوع المقبول فهو ما يظهر في التطبيق كما كان الحال مع السلطويين الإسبان الذين وجدوا في كومونات القرى الإسبانية القديمة نموذجاً جيداً للشيوعية التحررية لذا أطلق على اتجاههم اسم الجماعية ـ اللاسلطوية وانتقى اللاسلطويون في بلد آخر ذي غالبية فلاحية أيضاً بلغاريا مشاعية القرى أيضاً (يسمونها هناك زادو كراسبات) كنموذج فأطلق على اتجاههم اسم الشيوعية ـ اللاسلطوية. واختار العمال الصناعيون في فرنسا وإيطاليا التنظيم الاقتصادي المحض كأفضل وسيلة لتحقيق الغاية فأُطلق على اتجاههم اسم السندكالية ـ اللاسلطوية وهكذا.

إن أية مفردة من هذه المفردات المضافة لو انفصلت لما أدت معنى اللاسلطوية ولا حققت غايتها بذاتها. فالسندكالية قد لا تكون ثورية بالضرورة وقد تكون الشيوعية دولتية) أهداف ومبادىء اللاسلطوية ـ ألبرت ميلتزر ط. سميان. (إنجلترا 1970 ص 23).

(5) ص 14

أنطون بانيكوك (1873 ـ 1960) مناضل هولندي ماركسي بدأ اشتراكياً

ديمقراطياً ثم شيوعياً منتمياً إلى الحزب الشيوعي الهولندي حتى استقالته منه سنة 1921 وقد امتدح لينين بعض كتاباته ومنها كتابه «الخلافات التكتيكية في الحركة العمالية» 1909 وأصبح من دعاة شيوعية المجالس التي خصّ بها كتاباً.

وفي الوقت الذي ينتقد فيه نقابات العمال لأنها لا تذهب إلى أبعد من حدود الرأسمالية، وحتى في الدول التي غالبية عمالها اشتراكيون فإنها تكوّن الجناح اليميني للاشتراكية، وتمقت الشيوعية، ويكون كوادرها منعزلين عن العمال ولهم مصالحهم في البقاء وبقاء نقاباتهم، وإلا تعرضوا للفصل أو تخفيض الأجور، بينما أموال النقابات تحت تصرفهم وهم يميلون إلى المساومة والسلام الاجتماعي ما بين العمال والرأسماليين (مقالة: حول نقابات العمال ـ أنطون بانيكوك. صحيفة أنسركشن اللاسلطوية. لندن أيار 1985) في الوقت نفسه انتقد كتابه بشدة ومن نفس المنطلق بقلم كولن جونسن باعتبار أن مجالس العمال كالمنظمات النقابية تنبثق من الخط الحكومي وهي جزء من النظام الذي تقاومه أيضاً (صحيفة فريدم. لندن. حزيران 1984 وهو رأي تبنته هيئة تحرير الصحيفة اللاسلطوية الرئيسية هذه في تلك الفترة).

(6) ص 22

كان جوليس جوسيد من قبل ذلك لاسلطوياً متحمساً وحضر مع باكونين مؤتمر سونفلير 1871.

(7) ص 21

رسالة برودون إلى ماركس مؤرخة 17/ 5/ 1846 ونصها في «كتابات مختارة لبي. جي. برودون» تحرير ستيوارد ادواردز وأليزابيث فرير ط. دبلدي. نيويورك 1969 ص150 ـ 154 وقارىء اللاسلطوية تحرير جورج وود كوك ط. فونتانا الرابعة. إنجلترا 1983 ص 138 ـ 140 وهي جواب على رسالة أرسلها إليه ماركس (منشورة في المصدر الأول أيضاً) يدعوه فيها إلى المشاركة في مركز للمراسلات مع الشيوعيين والاشتراكيين الألمان والفرنسيين والإنجليز وغيرهم ينظم البحث في مسائل علمية ويشرف على المنشورات العامة لهؤلاء

ويقوم بالدعاوة الاشتراكية على اعتبار «أنهم لن يجدوا مراسلاً أفضل منك، وكما تعلم فإن الإنجليز والألمان يحملون لك تقديراً يفوق لحدّ الآن ما يحمله زملاؤك من أبناء وطنك».

ووصف ماركس هنا لسمعة برودون صحيح، حيث كان ذا مكانة مرموقة في أوساط العمال في هذا الوقت المبكر من تاريخ الحركة الاشتراكية في العالم وأفكاره وكتاباته معروفة على نطاق واسع ومترجمة إلى الإنجليزية والألمانية والروسية وتأثر بها ليو تولستوي وبودلير ووليم موريس. وقد شكا أنجلز إلى ماركس في رسالة سنة 1848 من طغيان البرودونية على الرابطة الشيوعية (غير الماركسية) في باريس، بينما كان ماركس لا يزال صحفياً راديكالياً مغموراً، وقد أسال الكثير من المداد في المديح والثناء على أفكار برودون في جريدة نيو رايش زويتنغ وكتبه الثلاثة: المخطوطات الاقتصادية والفلسفية 1844 والعائلة المقدسة (مع أنجلز) 1845 والايديولوجية الألمانية (مع أنجلز) 1845 وبلغ به الحماس إلى حد وصف كتاب برودون الثاني: ما هي الملكية؟ 1840 بأنه «أول بيان علمي للبروليتاريا الفرنسية كتب من قبل شخص كان هو نفسه بروليتارياً» مقتبس من «كارل ماركس واللاسلطويون ـ بول توماس ط. روتلدج وكيجان بول. لندن 1980 ص 197 منقولاً من مجموعة كتابات ماركس وأنجلز «وأول اختبار علمي قوي وحاسم للملكية» العائلة المقدسة ـ ماركس وأنجلز. دار النشر باللغات الأجنبية. موسكو 1960 بالإنجليزية ص 65.

وبعد كل هذا المديح والإطراء انقلب ماركس على برودون ووضع كتاباً كاملاً (بؤس الفلسفة 1847) لانتقاد أفكاره ليس في ذاتها بل لمجرد أنها أفكار برجوازي صغير كما يقول. ومن المعلوم أن برودون ووايتلنج من بين كل آباء الاشتراكية في منتصف القرن التاسع عشر (بضمنهم ماركس) كانا وحدهما من صلب الطبقة العاملة ولهما معرفة مباشرة (وليس من الكتب والتقارير) بأحوالها، وذلك هو ماركس يثبت ذلك بنفسه في عبارته المقتطعة توّاً. هذا إذا تجاوزنا ما في هذا الانتقاد من وهن إذ إنه لا يقوم على تفنيد الفكرة المنتقدة

بذاتها بل بالاكتفاء بإرجاعها إلى شخص معين من طبقة معينة وكأن هذا يكفي لتفنيدها. وهذا جوهر انتقادات ماركس لأفكار بقية اللاسلطويين (كما سنوضح في حاشية لاحقة) معبّراً بذلك من حيث لا يدري عن عجزه من التغلب على ما في تلك الأفكار من عناصر قوية وحيوية وانطلاق إلى أبعد مما في أفكاره هو من سلطوية أبوية.

وقد علّق برودون على كتاب بؤس الفلسفة «إن المغزى الحقيقي لكتاب ماركس هو أنه يتأسف من أنني فكرت مثله في كل شيء وكنت السابق في النطق به» وماركس أكثر اطلاعاً مدرسياً بلا شك في مجالات الفلسفة والاقتصاد من برودون ذي التثقيف الذاتي البحت، وإن لم يكن قد ابتدع نظرية فلسفية أو اقتصادية إنما كتب نقداً للاقتصاد السياسي. وقد سبقه الكثيرون في التوصل إلى أفكاره الرئيسية مثل فيورباخ وهيجل في المادية والمادية الجدلية وفيكو وبكل في المادية التاريخية وغيزو وتييرودي توكفيل في التقسيم الطبقي للمجتمع وريكاردو وآدم سمث ووليم تومبسون في القيمة وفائض القيمة.

ورأى الدكتور أنطون منيجر أستاذ القانون في جامعة فينا في كتابه «الحق في الثمار الكلية للعمل في حضور تاريخي» إن المكتشفين الحقيقيين لفائض القيمة هم غودوين، هلّ وعلى الأخص وليم تومبسون (رسالة لورا لافارغ إلى أنجلز 30/ 10/ 1886 في مراسلات فردريك أنجلز وبول ولورا لافارغ مجلد 1 من 1868 ـ 1886 دار النشر باللغات الأجنبية موسكو 1959 بالإنجليزية ص 393) وماركس لم يقرأ غودوين لذا فإن تأثره المحتمل من هذه الناحية ومن ناحية فكرته اللاسلطوية «الشبحية» الضعيفة (كما يقول وود كوك) عن ذبول الدولة جاء عن طريق وليم تومبسون المتأثر بدوره (مع روبرت أون) بغودوين وهو الذي اقتبس ماركس الكثير في «رأس المال» 1867 من كتابه توزيع الثروة 1827.

ويعتبر بيير ليروكس (وهو اشتراكي مسيحي من خصوم برودون وواضع شعار من كل حسب طاقته إلى كل حسب علمه) أول من رأى انقسام المجتمع الحديث إلى طبقتين تتبادلان العداء هما البرجوازية والبروليتاريا.

بل وكشف الكتّاب اللاسلطويون الثلاثة ف. جيركيز شيفلي وبيير داموس ولامبر يولا في كتاب نشروه بالألمانية في أوائل هذا القرن بعنوان «أصل البيان الشيوعي» عن اقتباس ماركس وأنجلز لعملهما الرئيسي 1848 من كتاب «البيان الديمقراطي» 1843 للكاتب الفرنسي فكتور كونسدرانت (من أتباع فورييه وصديق برودون) كما سبق واتهم روبرتوس لماركس باقتباس كتابه رأس المال 1867 من كتاب الأول الصادر سنة 1842.

وفي المقابل جاء برودون بأفكار عفوية كثيرة ذات عمق وأصالة تعثر عليها في خضم كدس هائل من المؤلفات بلغت 38 كتاباً و14 مجلد مراسلات و5 مجلدات ملاحظات تحتوي على مفارقات كثيرة. وعلى أي حال يكفيه فخراً تمجيده للعمل «الخاصية الأولى والصفة الجوهرية المميزة للإنسان» وأن ثمرته يجب أن تكون له ولأسرته وليس للمالك أو لرب العمل، وأن البروليتاريا «الطبقة الأكثر عدداً والأشد فقراً» ستحقق واجبها تجاه نفسها ورسالتها نحو العالم بكدحها وشقائها، وليس بحتمية قوانين التاريخ كما رأى ماركس حيث يصبح الصراع الطبقي والحالة هذه عاملاً ثانوياً إزاء التناقض ما بين قوى وعلاقات الإنتاج. ودعوته للوحدات الاجتماعية الصغيرة جداً 1851 وقد كتب ماركس عن كومونة باريس 1871 «كانت ستكون الشكل الرئيسي حتى لأصغر قرية. . . وإن أفراد الكومونة كانوا سينتخبون المندوبين الوطنيين لعموم باريس» الحرب الأهلية في فرنسا ـ كارل ماركس. دار النشر باللغات الأجنبية. موسكو باللغة الإنجليزية ص 271 مما دعا برنشتاين 1899 إلى القول بأن فكرة ماركس عن الكومونات الصغيرة والجمعية الوطنية التي تضم مندوبين عنها مشابهة لفكرة الفدرالية وحلولها محل الدولة عند برودون. وثابت إنه كان للبرودونيين «حضور قوي في الكومونة» باعتراف أنجلز في مقالته «مسألة السكن» 1873 (منشور في: اللاسلطوية والسندكالية اللاسلطوية ـ ماركس، أنجلز، لينين ترجمة بريان بين وآخرين إلى الإنجليزية. نشريات التقدم. موسكو 1974 ط. 2 ص 91) وقد تضمن برنامج عمل الكومونة الذي وضعه البرودوني بيار دنيس

ونشر بعنوان «بيان إلى الشعب الفرنسي» 20/ 4/ 1871 «الوحدة السياسية كالتي تتمناها باريس هي الرابطة الطوعية لكل المبادرات الفردية واللقاء الحر والعفوي لكل الطاقات الفردية من أجل الغاية المشتركة، رفاهية. . . حرية وسلامة الجميع» وخطب البرودوني الشيخ تشارلس بيسلاي رئيس المجلس المركزي للكومونة في جلسته الافتتاحية «كانت جمهورية 1793 جندياً من أجل القتال للدفاع عنها في الداخل والخارج احتاجت إلى تركيز كل قوى البلاد في أيديها. إن جمهورية 1871 عامل يحتاج إلى الحرية قبل كل شيء لكي تثمر بالسلام والعمل هناك يكمن مستقبلنا، إضافة إلى ذلك فإن الجمهورية ستجعل من فرنسا المعينة للضعفاء، الحامية للكادحين، الأمل للمضطهدين في العالم كله، الأساس للجمهورية العالمية» وقال نصير برودون الرسام الشهير جوستاف كوربيه عضو المجلس المركزي لكومونة أيضاً ورئيس فدرالية الفنانين «لقد قاتلت ضد كل أشكال السلطة الحكومية والحق الإلٰهي، مطالباً الإنسان أن يحكم نفسه بنفسه تبعاً لحاجاته هو ومصلحته المباشرة وتبعاً لمفاهيمه هو. . . ستصبح الكومونة الحالية المجلس المركزي للتجمعات».

بينما كانت أعمال ماركس غير معروفة لدى كل رجال الكومونة تقريباً» كومونة باريس 1871 فرانك جيلنيك ط. فكتور كولانز. لندن 1937 ص 387 رغم أنه كان قد نشر البيان الشيوعي منذ 23 عاماً وإنما كان معروفاً بالاسم فقط لدى ممثلي الأُممية الأولى في الكومونة وله صداقات شخصية ومراسلات مع ثلاثة منهم وثلاثتهم لا سلطويون وهم: ليوفر انكل، هنغاري من أسرة يهودية، عضو المجلس المركزي ومندوب (وزير مع التجاوز) العمل والتبادل وهو القائل «يجب ألا ننسى أن ثورة 18 آذار صنعت من قبل الطبقة العاملة على وجه التحديد وإذا لم نعمل نحن، الذين نحمل مبادىء المساواة الاجتماعية شيئاً لهذه الطبقة فإنني لا أرى سبباً لوجود الكومونة» ومن ثم قال لينين «كانت الكومونة المرحلة الأولى للثورة البروليتاريا، مثلما كانت الثورة الروسية هي الثانية» وتشارلس لونجو، عضو المجلس المركزي أيضاً ومندوبه

إلى الجريدة الرسمية ومترجم الحرب الأهلية في فرنسا لماركس إلى الفرنسية، وبول لافارغ. وقد تزوج الأخيران ابنتي ماركس جيني ولورا وكتب عنهما إلى أنجلز 1882 «لونجو هو آخر البرودونيين ولافارغ آخر الباكونينيين، تقمص الشيطان كليهما معاً».

لقد جاء هذا الانقلاب في موقف ماركس لسبب محدد هو رفض برودون العمل في منظمة مركزية وتحت زعامته تعطي الأولوية للعمل السياسي على النضال الاقتصادي. وقد تكرر هذا الموقف من ماركس وللسبب ذاته مع ثوريين آخرين امتنعوا عن الإذعان لنزعته المركزية ووصياته الفكرية على الآخرين (كارل جرون ووايتلنخ).

ولمزيد من الإيضاح نسجل موقفه المتقلب من باكونين خاصة، فعندما أراد استغلاله في ضرب حركة ماتزيني في إيطاليا كتب عنه إلى أنجلز 4/ 11/ 1864 «يجب أن أقول إنني أحبه أكثر من أي وقت مضى... إنه من الناس القليلين الذين... وجدتهم يتجهون ليس إلى الماضي بل المستقبل» ولما كان ما كان من مقاومة وهجوم باكونين الضاري على مركزية ماركس أن أخذ الأخير بإطلاق أقذع التهم ضده ومنها ما كتبه إلى أنجلز 4/ 1/ 1867» إن الروس هم الذين نظموا مؤتمر السلام... ولهذا الغرض أرسلوا عميلهم المبتذل باكونين» وكانت عقدة ما أسماه بول توماس «روسفوبيا» طاغية على ماركس في موقفه من باكونين وغيره من الثوريين الروس.

بينما ظل موقف باكونين من ماركس بمثل ما عبّر عنه في رسالته إليه 22/ 12/ 1869 «أنت تسأل عما إذا كنت لا أزال صديقاً لك، نعم أكثر من قبل عزيزي ماركس... إنني تابعك وأنا فخور بكوني كذلك» وفي رسالته إلى الكسندر هرزن تشرين الأول 1869 «إنه أحد المؤسسين الأوائل وغالباً المؤسس الرئيسي للأُممية وهذا بنظري خدمة كبرى سأظل معترفاً بها دوماً ومهما فعل ضدي... لن أغفر لنفسي قط فيما لو شوهت بدافع الثأر الشخصي أو قللت

من قيمة مكانته البالغة التي لا ريب فيها، وإذا ما حصل، ومن المحتمل أنه سيحصل، وإن دخلت في صدام معه فلن يكون ذلك من أجل الإساءة لشخصه بل من أجل قضية مبدئية: الشيوعية الدولتية».

(8) ص 26

يصح قول المؤلف إن اللاسلطة قديمة قدم العالم ما دامت تجسيداً للميل الفطري للإنسان نحو التحرر المطلق من كل القيود الوضعية عبّر عنها شخصيات وحركات شعبية عديدة على مر العصور ولكن متداخلة مع نزعات أخرى، ولم تظهر كمفهوم متكامل مستقل إلا عند قيام الثورة الفرنسية الكبرى 1789.

يرى كروبتكن أن كانت هناك نزعتان في المجتمع البشري في كل العصور بينهما حرب مستمرة: نزعة الجماهير إلى عادات وتنظيمات ضرورية لجعل الحياة الاجتماعية ممكنة وضمان السلام بين الناس وحل أي خلاف يقوم بينهم ومساعدة الواحد منهم للآخر... في عصبة الرجل البدائي ومجتمع الصيادين والقرية ونقابة الصناع الخ كل ذلك ليس بتشريع بل بالقوى الخلاقة للشعب. ونزعة السحرة والكهان والأنبياء ورؤساء التنظيمات العسكرية إلى إقامة أو تقوية سلطتهم على الناس.

من أوائل المفكرين الذين جمعوا بين التحررية السياسية والتحررية الاقتصادية لاوتزي في الصين حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ومؤلف كتاب تاو.تي.جنك المتضمن نقد الثروة غير الضرورية والقوانين والحكومات والنزعة العسكرية وأن الحياة تكون سعيدة إذا ما انسجمت مع الطبيعة وبصورة تلقائية أي بدون قوانين وحكومات. وقد أصبح أحد مصادر الديانة الطاوية المنتشرة في الشرق الأقصى لحد الآن، رغم عدم احتوائه على أية نصوص مقدسة أو قواعد سلوك أو شعائر (يراجع اللاسلطوية البودية. جي. سنايد. مجلة اللاسلطة. لندن 8/ 1964) وأرسطيس (430 ق.م) في الفلسفة الإغريقية بعدم رغبته في أن يكون من المحكومين ولا من الحاكمين. والكلبيون وعلى رأسهم أنتسثينس وديوجين بدعوتهم للعودة إلى الطبيعة (ستظل هذه من سمات

الفكر اللاسلطوي إلى العصر الحديث) وأن لا يكون هناك حكومة ولا ملكية خاصة ولا زواج ولا مؤسسة دينية. وإذا كان غالبية الفلاسفة الإغريق الكبار ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو قد أبقوا على نظام العبيد فإن الكلبيين من القلة التي أدانت هذا النظام. وقد انتقلت معتقداتهم إلى الرواقيين وأولهم زينون (267 ق.م) حيث يخلو المجتمع المتحرر بنظره من كل حكومة ومحاكم وشرطة ومعابد ونقود وتؤخذ الهبات مجاناً بدلاً من تبادل السلع (يراجع: اللاسلطوية في الفلسفة الإغريقية ـ د. فيرارو مجلة اللاسلطة. لندن 11/ 1964 وتاريخ الفلسفة الغربية ـ برتراند رسل ط. جورج ألن واونون. لندن 1948 ص 254).

ووجدت شخصيات وفئات رافضة بصورة سلبية لمبادىء مجتمعات عصرها وذلك بانسحابها منها أو بالخروج العلني على عادتها وتقاليدها كالنساك والزهاد والمتصوفة. وأقيمت مجتمعات مشاعية بدائية صغيرة في كل الأمكنة والعصور مثل مجتمعات أجيدو في المكسيك وجيرميا بوجوميل في بلغاريا ونشرت كتب اليوتوبيا وأولها لتوماس مور 1516 متضمنة أشكالاً من المشاعيات تتباين في مراتبها وخصائصها. وخلال ثورة الفلاحين في ألمانيا أقيمت مشاعية كبيرة في مونستر وكان مفكرها توماس مونزر وفي 1649 قامت حركة الحفارين في إنجلترا فترة حكم كروموبل وبدأوا بحرث الأرض الشائعة وزراعتها ولم يكن لديهم بيع وشراء وإنما يتزودون من الحوزة المشتركة للأغذية. واعتمدت التجربة التي لم تدم أكثر من سنتين على «قوة النموذج» وعدم استخدام العنف ضد مناوئيها في المنطقة من رجال الدين والملاكين.

ويعتبر جيرارد ونستانلي مفكر الحركة وله عدة مؤلفات دعا فيها إلى حكم العقل (السمة الفكرية الثانية المهمة للاسلطوية حتى العصر الراهن).

من دعاة التحررية أيضاً موريللي صاحب كتاب «نظام الطبيعة» 1755 وأعجب برودون بكتابه الآخر «نفي الحكومة» الذي أرجع فيه كل فظائع المجتمع إلى الملكية الخاصة وهو ما ورد تقريباً في أصل التفاوت لروسو أيضاً.

مما يلاحظ على مجمل هذه الأفكار والحركات أنها كانت:

1 ـ أوتوقراطية وليست شعبية في جوهرها وإن اكتسبت أعواناً كثيرين.

2 ـ سرية وهرمية.

3 ـ غير خالية من ملامح دينية ومع أنها ضد المؤسسة الكنسية فهي تدعو إلى جنة عدن أو عودة ثانية للمسيح مثلاً.

4 ـ جماعية ظلامية لم تفهم من الفرد سوى أن يكون له نوره الداخلي دونما حاجة إلى كنيسة أو كهنة وهو غير منفصل عن الآخرين، إذ لم تظهر النزعة الفردية الحقيقية إلا في عصر النهضة ـ التنوير.

5 ـ حافظت على مبدأ القسر والإكراه والعمل الإجباري كما في تحبيذ مونزر لنظام اسبرطة.

من خلال الثورة الفرنسية الكبرى «مصدر وأصل كل المفاهيم الشيوعية واللاسلطوية والاشتراكية العمالية ـ كروبتكن» استخدمت لفظة اللاسلطوية لأول مرة وبمعناها الازدرائي، وظهر دعاة لإلغاء الملكية الخاصة والدولة معاً بصورة متكاملة لأول مرة مثل جاكو روكس القائل «يجب منع كل أشكال الحكومات» وكان قد قاد هيجانات Riots باريس من أجل الطعام 1793 وانتقد حكم روبسبير واليعاقبة لعدم تأمينه الخبز للمعدمين وعدم قضائه على الاستجداء في الجمهورية. وجان فيرلت 1792 «الحكومة والثورة متضاربتان لدى كل كائن عاقل إلا إذا رغب الناس في وضع مندوبيهم في حالة دائمة من العصيان ضد أنفسهم وهو عبث».

(9) ص 26

يبدأ المقطع الأول من كتابه «ما هي الملكية؟» 1840 هكذا «إن كان قد طلب مني الإجابة على سؤال: ما هي العبودية؟ وعليّ أن أجيب بكلمة واحدة: جريمة فإن معنى كلامي قد فهم حالاً ولن تعود هناك حاجة لمزيد من النقاش لإظهار أن القوة التي تستلب الإنسان، تفكيره، إرادته، شخصيته هي

قوة حياة أو موت وإن استعباد الإنسان هو قتله. لماذا إذن السؤال الآخر: ما هي الملكية؟ هل لي ألا أجيب إجابة مماثلة: سرقة «ما هي الملكية: بحث في مبادىء وحقوق الحكومة ـ جي. . بي. برودون ترجمة بنيامين توكر. مطبعة فريدم. لندن 1960. ص5.

(10) ص 28

قضية مهمة ثانية تكشف عن زيف العدالة الطبقية الأميركية هي قضية المهاجرين الإيطاليين نيكولا ساكو وبارتلميو فانزيتي اللذين اتهما بالسطو وقتل حارسين سنة 1920 وبعد محاكمات طويلة اتصفت بالضعف والهزال، ومن ذلك أن القاضي شعر ليلة عيد الشكر بنقصان عدد المحلفين المقرر فأرسل المأمور (الشريف) لجمع عدد منهم فهرع هذا إلى النادي الماسوني القريب وجاء بسبعة وبذلك بلغ العدد الإجمالي اثني عشر، وطالب أثناءها متظاهرون كثيرون وشخصيات سياسية وثقافية بارزة عديدة في أميركا وأوروبا، ومنهم موسوليني وجيمس ماكستون زعيم حزب العمال البريطاني وبرنارد شو وأينشتاين وتوماس مان وجون جالسورثي بتبرئتهما غير أنهما أعدما في سنة 1927 وفي سنة 1977 أصدرت إدارة ولاية ماسوشيتس قراراً بتبرئتهما [المصدر الموثق جيداً من أضابير القضية وشهودها: الراية السوداء ـ برين جاكسون. ط. روتلدج وكيجان بول. الولايات المتحدة 1981 ص 19 و61 و70 و134 و173].

والحقيقة أن الحكم عليهما كان بسبب آرائهما السياسية (اللاسلطوية) لا غير، وقد علق برتراند رسل على ذلك في حينه: إن حرمان أشخاص من حق الحياة لأنهم يحملون آراء مغايرة لآراء الآخرين وجهة نظر خطرة جداً وهي تنقل من الثيولوجيا إلى السياسة نوعاً من الاضطهاد جرى الظن على أنه قد زال في الأقطار المتمدنة.

وكان اضطهاد أجهزة القمع الطبقي الأميركية للقوى اليسارية وبالأخص اللاسلطوية شديداً في تلك الآونة وبعدها: فمثلاً في سنة 1922 لوحدها مات المناضل اللاسلطوي سالسيدو في موقف للشرطة بصورة غامضة ورُمي رفيقه

جو ـ هيل بالنار وأردي قتيلاً حال اعتقاله في سجن مدينة سولت ليك، ووجد المناضل اللاسلطوي المكسيكي ريكاردو فلوريس ماجون ميتاً في سجن ليفينورث بمقاطعة كينساس الأميركية حيث كان يقضي حكماً بالسجن لعشرين سنة بتهمة التحريض على الثورة، وآثار كدمات على عنقه. كل ذلك كجزء من هستيريا معاداة الشيوعية التي تخيم على أمريكا (يراجع للتفصيل: الخوف الأكبر: الحملة التطهّرية المعادية للشيوعية في عهد ترومان وايزنهاور ـ دافيد كون ط. سيكر وواربورج. لندن 1978 سياسة اللاعقل: تطرف الجناح اليميني في أميركا. 1790 ـ 1970 سي. أم. ليست واي. راب ط. هينمان. لندن 1971) وبهذه الروحية احتلت الولايات المتحدة المرتبة الثانية بين دول العالم في عدد السجناء السياسيين بعد جنوبي إفريقيا كما أذاعت وكالة تاس في 10/ 12/ 1984.

هزت قضية ساكو ـ فانزيتي المشاعر بعمق وظلت عالقة بالأذهان لحد الآن لأنها «القضية التي لا تموت» كما هو عنوان كتاب كاثلين آن بورتر عنها (ط. جوناثان كيب. لندن 1979) فمثلاً لاحظ وليم إلس مجموعة من المهاجرين الأوربيين القاطنين في شاطىء ميامي لا زالوا، وبعد مضي أكثر من نصف قرن يتحدثون بغضب عن إعدامهما (فلوريدا: وقت للحساب ـ وليم أس. إلس المجلة الجغرافية الوطنية الأميركية 8/ 1982) كما وخلد جون دوس باسوس القضية في روايته يو. أس أي ـ ثلاثية.

(11) ص 39

ساد الاتجاه التحرري المؤتمرات العامة للأُممية الأولى في جنيف 1866 ولوزان 1867 وبروكسل 1868 وبازل 1869 ثم اشتدت محاربة الماركسيين للاسلطويين بمختلف الطرق ووضعوا العراقيل أمام اشتراكهم في المؤتمرات حتى تقرر إبعادهم منها في مؤتمر لاهاي 1872 بغالبية ضئيلة واستمر الحال كذلك ففي مؤتمر جنيف 1873 وبروكسل 1874 مما كان سبباً مباشراً في موت الأُممية.

ولم يكن انتصار ماركس وأتباعه على الاتجاه التحرري انتصار المبادىء الاشتراكية أو قوة الحجج أو كثرة عدد الأنصار، وإنما انتصار الحلول السياسية

الوسط والتحالفات السرية داخل الأممية (حتى مع الخصوم مثل مغامري بلانكي) والمناورات فقد تقرر عقد المؤتمر الخامس في لاهاي لمنع وصول أنصار باكونين الممنوعين لأسباب سياسية من عبور المانيا وفرنسا، ونقل مقر المجلس المركزي من لندن إلى نيويورك، وعرض تقرير موهوم (استندت عليه الجمعية العامة في اتخاذ قرارها بإبعاد جماعة باكونين) عن عدم التزام باكونين بعقده مع ماركس على ترجمة «رأس المال» إلى الروسية وبالإضافة إلى انكشاف عدم صحة التقرير فيما بعد فإن الاستناد إلى أخلاقية برجوازية (كما يقول وود كوك) في منظمة مضادة جهاراً للملكية بكافة أشكالها غير مقبول.

وقد بلغ الأمر بماركس إلى حد اتهام باكونين بأمور تبعث على الابتسام مثل أن لغته ليست روسية (في تقريره مع أنجلز إلى مؤتمر لاهاي) وأنه يتجسس للنظام القيصري الروسي.

وفي المقابل كانت نظرة اللاسلطويين مثالية إلى الأممية فهي تمثل بنظرهم مستقبل الإنسانية وتجسّد مبدأ تحرير العمال بواسطة العمال أنفسهم وبمعزل عن كل سلطة قائدة حتى ولو تم تعيينها من قبلهم، ومتشددة في الالتزام بالمبادىء كما تجلّى في تمسكهم بتحريم العمل السياسي على العمال وإلغاء حق الإرث حالاً.

أدى هذا الموقف المبدئي والمتشدد إلى ابتعاد غالبية الجمعية العامة للأُممية عنهم وانحيازها إلى جانب ماركس، وهي غالبية لا يحسد عليها لأنها مؤلفة في الواقع من خليط عجيب من الميول «لدينا كل الأنواع من الناس في الجمعية: شيوعيون، برودونيون، اتحاديون، نقابيو عمال، تعاونيون، باكونينيون الخ ولدينا رجال ذوو آراء مختلفة تماماً حتى في المجلس المركزي» من رسالة إنجلز إلى كارلو كافيرو 3/ 7/ 1871 (منشورة في اللاسلطوية والسندكالية ـ اللاسلطوية ن.م. ص 50) ونحن نضع الخط بينهم تحت أسماء اليمينيين وحتى الرجعيين من وطنيي إيطاليا أتباع ماتزيني وغيره من الماسونيين وسواهم، ولكن لماذا استغرب انجلز من هذا الخليط المشوش وقد رفض

ماركس نفسه والمجلس المركزي الذي يترأس اقتراح المناضل يوجين فرلن سنة 1865، وهو أحد مناصري أفكار برودون وباكونين وقتل في الأسبوع الأخير لكومونة باريس، بحصر عضوية الأُممية بالأجراء المعرَّضين لمخاطر البطالة وحسب؟

ولا يمكن لغورين وغيره (مثل بول توماس) تفسير تحول العديد من غير التحرريين إلى الجانب المضاد لماركس بغير عدم مبدئية مواقفه ومن هؤلاء الاشتراكي البلجيكي سيزار دي بيب وممثلو النقابات البريطانية الذين رحبوا بمنشور أممية سونفلير اللاسلطوية ضد سلطوية المجلس المركزي برئاسة ماركس، وأتباع ماركس نفسه وهم كل من جون هاليس وايكاروس وهرمان يونج رئيس المجلس المركزي قبل ماركس.

(21) ص 43

إن كلام المؤلف من أن المرء لا يستطيع أن يتصور تحررياً ليس هو بفردي صحيح تماماً ومنطقي. إن الإنسان وهو خلاصة ستة ملايين سنة من تفاعلات الطبيعة ذو إمكانيات ذاتية متكاملة يقدر بها على العيش بسعادة ودون حاجة إلى أية سلطة خارجية، وهو غاية بذاته وليس لموجود آخر الحق في أن يجعل منه أداة لأي غرض آخر وليس من حكم عليه سوى نفسه، وقد قال ديدرو: «لم تمنح الطبيعة حقاً لأحد في حكم الآخرين».

وربما كان أول قيد وضع على الإنسان عند خروجه من الغابة ولقائه مع أول كائن آخر من بني جنسه، فالقيود بنت الحياة الاجتماعية، وكل جمعي هو مصلحي، ولكل مصلحة قواعدها. وقد رأى أرسطو واسبينوزا وآدم سمث أن الإنسان المنفرد غير قادر لوحده على تأمين حاجاته المادية، وإذا كان لهذا الرأي قوته في حينه فإنه يكتسب المزيد منها اليوم، وإذا كان من الممكن ظهور روبنسون كروزو هنا وهناك قبل قرون فمن المستحيل بقاؤه وحيداً اليوم في عصر المطر الحامضي والإشعاع النووي المنفلت وثقب الأوزون.

إلا أن هذا الوضع استغل لغير صالح الإنسان وصار متكأ نظريات كثيرة تبرر بألف صيغة وصيغة وضع القيود في رقبته بحجة ضعف تكوينه وفساد طبيعته وأن الأديان والحكومات والقوانين والأخلاق ضرورية لكبح جماح شروره. وبالإضافة إلى أن هذه النظريات تصادر على المطلوب بحكمها على الإنسان بمعايير الخير والشر التي لم يخلقها سوى الإنسان نفسه بحكم ظروفه الاجتماعية فإن جوهر تلك النظريات كلها واحد هو عدم الثقة بالإنسان وعدم الإيمان بقدراته على تسيير أموره بنفسه وهو نقطة سوداء صغيرة سرعان ما تأخذ بالاتساع شيئاً فشيئاً حتى يغمر الظلام كل شيء، وقد رأى بيتر فايس أن الفاشية ليست سوى نزعة احتقار الإنسان.

تتدرج تلك النظريات في الكشف عن ذلك الجوهر ما بين العلانية التامة والخفاء، ففي إحدى النهايتين تقف النظرية الغيبية التي تدين الإنسان بأنه آثم منذ الخليقة وإلى الأبد، وتقف في النهاية الأخرى نظرية العقد الاجتماعي التي ظهرت منذ عهد الإغريق وارتدت عشرات الأردية على مر العصور كالبيعة والتفويض والتوكيل والتمثيل إلى أن صاغها روسو بصيغتها الحديثة التي قال عنها برودون: «إن العقد الاجتماعي لروسو دجل» فهو يستند إلى فرضية خيالية عن تنازل الناس عن حقوقهم الطبيعية في حكم أنفسهم بأنفسهم للغير.

طرح اللاسلطويون إزاء كل ذلك تصوراً جديداً لحد أدنى من العلائق العفوية بين الناس وفي مجال الاقتصاد وحسب وعلى أساس القرار الفردي الوقتي الحر والمباشر خالياً من كل عناصر الإكراه والتعالي والثواب والعقاب وكما نادى أوسكار وايلد في كتابه «روح الإنسان في ظل الاشتراكية» 1890 بعدم إجبار الناس على أن يكونوا طيبين «فالقانون ليس هو الحرية، أكثر القوانين تقدمية تؤشر الحدود التي يجب ألا تتجاوزها الحرية فحسب. إن التعبير عن التغيير الاجتماعي بعبارات القانون يعني الإخفاق للصراع الطبقي وليس الانتصار، إنه يسهل قيام طبقة حاكمة جديدة أو يجعل القديمة أكثر قدرة على قمع المقاومة» بوابات اللاسلطة ن.م. ص 28.

وهذه العلائقية العفوية تخلو من أية امتثالية وتحقق عالماً أصيلاً خالياً من كل استلاب يضمنه استلاب السلطة لأن الأشياء الحسنة لا تحتاج إليها وإنما الأشياء السيئة، وهو ما حلم به الفلاسفة والشعراء: إقامة أخلاق على الصداقة ـ كما أراد أرسطو وليس على الواجب كما يريد الكثيرون من المحدثين (إما ـ أو ـ سورين كير كجرد ت. والتر لوري. مطبعة جامعة برنستن 1974 مج2 ص 327).

ويمكن أن نجد تطبيقات للتصور اللاسلطوي هذا في المجتمعات الإنسانية القائمة حتى اليوم مثل علاقات الأطفال فيما بينهم بما تتميز به من عفوية ووقتية وآنية ورغبة ذاتية واستقلالية وتجرد، ويقول البعض إن الأطفال إحدى الجماعات الراهنة التي هي لا سلطوية بطبعها، وعلاقة الأم بوليدها المتميزة بالعطاء المجاني وبعض الظواهر المتبقية من مجتمعات قديمة غاب فيها سلطان الدولة وأخلاقية القمع (يراجع: قبائل بدون حكام: دراسات في الأنظمة السيمترية الإفريقية تحرير دافيد بيتر وجون ميدلتون. لندن: 1958).

ومن هنا اهتم اللاسلطويون بالتثقيف الذاتي البحت للفرد ودون أي إكراه أو قوالبية وخارج النظام المدرسي ما دام الطالب هو كما عبر عنه الموقفيون الأمميون في كتاباتهم أيام انتفاضة طلاب جامعة ستراسبورغ 1966 «منتوجاً للمجتمع الحديث مثل جودار وكوكاكولا بالضبط... لذا... فإن اغترابه التام يجب أن يحارب من خلال الصراع ضد المجتمع ككل وحسب «فالمدرسة أداة ترسيخ أخلاقيات النظام في أذهان الناشئة وتوجيههم حسب متطلبات هيمنته ولا عجب إذن من أن تتبنى الحكومات مجانية التعليم ليس من أجل تعليم حر وإنما من أجل تعليم الانقياد [يراجع: التعليم بدون مدارس تحرير بيتر بو كمان وم. براهام مطبعة سوفينر. لندن 1972 ومبادىء التعليم التحرري ـ جون هـ. سبرنغ ط. فري لايف ايدشنز نيويورك 1975].

لذا لم يحاول أي واحد من اللاسلطويين استخدام تأثير مخدّر على حركة أو مجموعة ولم ينشدوا أتباعاً أو نظروا إلى أسلافهم نظرة التقديس الشائعة عند سواهم وإنما تناولوهم بالنقد أحياناً كثيرة.

ولغرض المقارنة بين مفهومين بهذا الصدد ننقل عبارة لينين «إن طبقة واحدة في التاريخ لم تتوصل إلى السيطرة قبل أن تقدم زعماء سياسيين لها، ممثلين طليعيين قادرين على تنظيم الحركة وقيادتها» المهمات الملحّة لحركتنا 1900 ـ لينين منشور في المختارات ـ دار التقدم. موسكو بدون تاريخ بالعربية مج1 ج1 ص 150 وعبارة برودون 1849 «الثورات لا تعرف قادة. . .».

وفي مثل هذا «المجتمع» العفوي يصبح حتى شعار من لا يعمل لا يأكل «المبدأ الأساسي، الرئيسي، الأول للاشتراكية» عن المجاعة ـ لينين 1918 منشور في التحالف بين العمال والفلاحين ـ لينين. دار الطبع والنشر باللغات الأجنبية. موسكو. بدون تاريخ بالعربية ص 238 وهو شعار نطق به القديس بولص أيضاً، يصبح هذا الشعار ملغياً (اللاسلطوية الاجتماعية ن.م.ص 116) لأنه يتضمن القسر والإكراه اللذين لن يكون لهما أي وجود في المستقبل.

كان الأسلوب البديل لدى اللاسلطويين في العمل والدعاوة هو أسلوب «نشر الحقيقة وقوة النموذج» ابتداءً من غودوين في كتابه استيضاح يتعلق بالعدالة السياسية وتأثيرها على الأخلاق والسعادة 1798 (تحرير إسحاق كرانك ط. بنجوين 1976) أو «عزو كل شيء من خلال قوة المبدأ» كما قال برودون الذي لم يقرأ غودوين. وقد انعكس ذلك على تبني غالبيتهم لمبدأ عدم الهجوم المباشر على قلاع السلطة واتباع أسلوب الحفر في أسسها بتغيير اتجاهات الشعب من الجذور ويأتي وود كوك بمثالين على ذلك هما حركة بروفوس في هولندا في أواسط ستينات هذا القرن حيث عملت في مستوى الإدارات المحلية. وحركة سارودايا في الهند ويتقدمها فينوفا بيهاف وجايا براكاش نارايان وهي متأثرة ببعض أفكار غاندي (الذي كان يعدُّ نفسه واحداً من اللاسلطويين) في المقاومة السلبية منتشرة في 5/1 قرى الهند (يراجع اللاسلطوية الهندية. جي. أوستر جارد مجلة اللاسلطة. لندن 7/1964 وفي نفس العدد مقالة بيهاف).

والواقع أن اللاسلطويين لم يكتفوا بنقد مظاهر السلطة في المجتمع وحدها

وإنما نظروا إلى البناء الاجتماعي بحدّ ذاته وبغض النظر عن نوعية العلائق الاقتصادية السائدة فيه كوجود موضوعي مستقل ومتعالٍ على وجود الأفراد، وقد سبق وأشار جون ستيوارت ميل إلى أن المجتمع بذاته طغيان (كتابه الحرية مطبوع في الفلاسفة السياسيون. . . ن.م ص 138) وهو ما يستخلص اليوم من مفهوم المجتمع لدى دور كايم وعلماء الاجتماع الفرنسيين اللاحقين له مثل لويس دومون.

لذا كان من المنطقي أن تصطبغ أفكارهم جميعاً بالنزعة الفردية البحتة، عدا كروبتكن إلى حد ما حيث اعتبر المجتمع (وليس الدولة) مثل أرسطو وأوجست كومت ظاهرة طبيعية. فقد أضاف غودوين إلى ما سيقول شترنر «إن ما أستطيع الخضوع له هو شعور القلب وقرار إدراكي، ما يمليه عليّ ضميري أنا» وبرودون «لا أكون موضوعاً لأي قانون سوى قانوني، ذلك أن أحكم أنا لنفسي» ومالاتيستا «الكائن الحقيقي هو الإنسان الفرد، المجتمع أو الجماعية، الدولة أو الحكومة التي تدعي تمثيلها، إن لم يكونا تجريداً أجوف فيجب أن يكونا مؤلفين من أفراد» اللاسلطة ـ مالاتيستات فرنون ريتشاردز. مطبعة فريدم 1974 ص 36 وإيما غولدمان «اللاسلطوية هي الفلسفة الوحيدة التي تهيىء للإنسان الوعي بذاته وتوضح أن الله والدولة والمجتمع غير ذات وجود، ذلك لأن وعودهم جوفاء وعقيمة ما دامت لا تتحقق إلا من خلال خضوع الإنسان. . . الفرد هو قلب المجتمع، حافظاً حياة المجتمع، المجتمع هو الرئة التي توزع عناصر حفظ جوهر الحياة ذاك، الذي هو الفرد، نقياً وقوياً» اللاسلطوية ومقالات أخرى ط. دوفر. نيويورك 1969 ص 52 ويلخص جورج وود كوك الموضوع «إن الإنسانية واحدة وخضعت لنفس الظروف، وكل الرجال متساوون ولكن كل الرجال مختلفون، وفي أعمق أعماقه كل رجل هو في الحقيقة جزيرة. كان اللاسلطويون واعين بصورة خاصة لهذه الثنائية في الرجل العام والرجل الخاص والكثير من تفكيرهم كرس للتحري عن موازنة بين مطالب التضامن الإنساني العام ومطالب الفرد».

وقد أدرك أنجلز هذه النزعة الفردية عند اللاسلطويين جيداً إذ كتب إلى م. هيلد بران 22/ 10/ 1889 «لم يكن مجرد اشتقاق برودون اللفظي الذي لا ينفع ولا يضر لعبارة اللاسلطوية ـ غياب السلطة السياسية يقود إلى النظريات اللاسلطوية الحاضرة لو لم يضف إليها باكونين مقداراً جيداً من التمرد الشترنري وبالنتيجة فإن اللاسلطويين جميعاً يصبحون منفردين وحيدين بحيث إن اثنين منهم لا يستطيعان الاتفاق أحدهما مع الآخر» وكذلك ستالين «اللاسلطوية هي الفرد الذي يكون تحرره، تبعاً لمعتقدها، الشرط المبدئي لتحرر الجماهير وللتكوين الجمعي، وتبعاً لمعتقد اللاسلطوية فإن تحرير الجماهير مستحيل حتى يتحرر الفرد تبعاً لشعارها: كل شيء من أجل الفرد. الحجر الأساسي للماركسية، مهما يكن، هو الجماهير، وتحررها تبعاً لمعتقدها هو الشرط المبدئي لتحرر الفرد» لاسلطوية أما ماركسية ـ جي. ستالين نشرة مطبعة ريد ستار. لندن 1978 المصوّرة عن طبعة دار النشر باللغات الأجنبية. موسكو 1950 ص 10.

(13) ص 52

نُسب عدد غير قليل من اللاسلطويين الأوائل إلى الماسونية ومن أكثرهم شهرة برودون وباكونين ومالاتيستا وفرنسيسكو فيرير وأرماندو بورنجي وغيرهم، إلا أنه لا تتوفر معلومات مؤكدة عن انتمائهم فيما عدا باكونين ومالاتيستا اللذين اعترفا بانتمائهما لفترة قصيرة (في إيطاليا الأول من 1864 ـ 1865 والثاني عندما كان يافعاً من 1875 ـ 1876) وهاجماها بشدة فيما بعد. ومن المعلوم أن برودون وباكونين معاديان للديانة اليهودية ولهما أقوال مقذعة بحقها. وهذا ما دعا جورج وود كوك حتى 1983 إلى اقتراح إعداد دراسة عن العلائق ما بين ماسونية القارة الأوروبية وبواكير الحركة اللاسلطوية.

وفي الواقع إن مجلة الأسود والأحمر الفرنسية كانت قد درست هذا الموضوع فعلاً وبدقة لعدد كامل من أعدادها (رقم 5 لسنة 1958) ولثلاث دراسات نشرت في أعدادها المؤرخة 23/ 11/ 1963 و27/ 5/ 1964 و27/ 6/ 1964

ونشرت الترجمة الإنجليزية للدراستين الأولى والثالثة بقلم جيوف جارلتون في مجلة مطبعة سيتفيو جوس. وتستند جميعاً على نصوص حديثة مستقاة من المطبوعات المنشورة والأحاديث المذاعة لمجمع الشرق الأعظم واللوج الأعظم الفرنسيين (وهما أكبر التنظيمات الماسونية في فرنسا وقد استحدث محفل ثالث فيما بعد باسم الأوبرا ويصدر الأول صحيفة هيوما نزم وهو أكثر اعتدالاً من الثاني ـ مقالة ملاحظات مختصرة حول الأهمية السياسية للجمعيات السرية ـ جوناثان مارشال. مجلة لوبستر عدده بدون تاريخ. إنجلترا ص 3 ـ 5) وتناقش الأصول الماسونية من وجهة نظر اشتراكية منهجية ولأهميتها ولتعلقها بموضوع كتابنا هذا نورد فيما يلي خلاصة مركزة لأهم ما ورد فيها:

أولاً: النصوص المتعلقة بأهداف الماسونية:

- «حرية التفكير والبحث عن الحقيقة، وفي هذا السبيل رفض كل القناعات المسبقة والعقدية النظرية وفرض الاستنتاجات إذاعة 5/ 8/ 1962».
- «الماسونية تحالف كوني يجد فيه كل إنسان ذو إرادة طيبة محله أيّاً كان جنسه ومهنته أو عقيدة وقناعاته. إنها أكثر من عالمية. . . كونية. كل رابطة بشرية لها أهداف مخصصة لعقيدة وللدفاع عن مصلحة مشتركة، والماسونية على العكس ليس لها عقدية أو مصلحة مادية أو دنيوية. وهي حليف كوني للرجال الأحرار ضد كل نظام جائر. الحرية فوق كل شيء، حرية التفكير وحرية المواطن الذي يجب ألا ينحني لأحد وسوى أمام القانون وحده. المساواة: يجب أن يكون الناس متساوين إزاء القانون. الأخوة: القاعدة الأساسية» إذاعة 17/ 12/ 1947 ووزعت مطبوعة من قبل المحفل واللوج.
- «لا تلعب الماسونية دوراً سياسياً» إذاعة المحفل الأعظم 1/ 12/ 1948 «إن أُممية الأحزاب السياسية وسيلة للصراع، إنها تدعو أعضاءها المناضلين والآخرين أعداء لإسقاطهم أو لمحاربتهم فقط، إنها لا تستطيع قط جمع كل البشرية معاً» محفل الشرق الأعظم 1926.

- «الماسوني مواطن محب للسلام تجاه السلطات المدنية أينما أقام أو عمل. لا يشترك قط في مؤامرات يقدم عليها متآمرون ضد السلام أو الوجود الآمن للأمة ولا ينبذ واجباته المدنية» دستور أندرسون مادة 2.
- «هذا الحب لوطن المرء ميزة الماسونية في جميع أنحاء العالم والتي تميزها عن الشيوعية، هي الحرام قانون البلد حيثما سمح بتطبيقه بحرية» المقطع الأول من دستور المحفل الأعظم بعد اجتماع لكسمبورج.
- «لا تعادي الماسونية أي شكل من أشكال الحكومة الديمقراطية... تفضيلها لجمهورية ذات هيئة ديمقراطية صادقة» مجمع الشرق الأعظم. إذاعة 2/ 5/ 1948.
- «نجد الماسونيين يشغلون في الواقع أعلى المناصب في الدولة، في أميركا كما في أوروبا أو في آسيا» مجمع الشرق الأعظم إذاعة 5/ 9/ 1948.

ثانياً: نقد المبادىء الماسونية:

يتضح من النصوص المتقدمة أن الفرضيات الرئيسية هي الكونية كمعيار للحقيقة الإنسانية، البحث الحر، التسامح، ضد العقدية، ضد التسلط والديمقراطية الجمهورية الخ ويستطيع كل تحرري أن يجد أوجه شبه بين تلك الفرضيات والمبادىء التحررية، وليس ما هو أجمل من هذا البحث عن الحقيقة، وما هو أكثر تشويقاً من هذا الحب الحار للإنسانية في عصرنا اللاإنساني، البارد، العقدي والاستبدادي ولكن:

1 ـ هل يمكن للواحد حقاً أن يتخذ موقفاً ما وراء أو فوق كل نظرية، فرضية، تصوّر أو مذهب، ما وراء عصره ليتأمل بطريقة عادلة ومنفصلة وموضوعية الصراعات الفلسفية بدون أن يتخذ موقفاً؟ لم يستطع ذلك أكثر الفلاسفة انعزالاً وحتى المتصوفة.

إن التظاهر باكتشاف الحقيقة المطلقة، الشاملة والموضوعية مرتبط

بالفرضيات الميتافيزيقية التي يعود تاريخها إلى القرن 18 والنصف الأول من القرن 19 مثل الجوهر والحقيقة المتعالية للأشياء والتي أصبحت مرفوضة مع النظرية النسبية لأينشتاين ومبادىء لا يقينية هيزنبرج ونسبية أكثر القوانين موضوعية.

نحن بعيدون عن الاستنتاج من أن الحرية، المبادرة، المساواة أفكار عبثية لا جدوى منها الآن، ولكي نكون دقيقين فإنها تشكل جزءاً من الإنسان ولكن الإنسان الواقعي، الإنسان البيولوجي والاجتماعي مأخوذاً من اكتماله الفردي وعلاقاته الاجتماعية.

2 ـ إن الماسونية منغمسة في السياسة ليس للدفاع عن مبادئها، كما يدعي أتباعها بل باعتبارها مؤسسة، مؤسسة اجتماعية لها تكتيكها وأهدافها وأساليبها. إن الماسونيين يدعون بضجيج دائم أبوتهم للثورة الفرنسية 1789 وإن كوندرسيه وميرابو ومارا وروبسبير كانوا ماسونيين. ولكن هي لم يصنعها فرد أو مجموعة محدودة بل الجماهير قاطبة. وقد جاءت أفكارها التقدمية بالنسبة لذلك الوقت ليست من «ورشات» الماسونيين كما يدعون، وإنما من الموسوعيين الفرنسيين والبروتستانت الإنجليز وثوار أميركا ضد الاستعمار البريطاني وفلاسفة تلك الفترة، ولم يكن كل هؤلاء ماسونيين ولا حتى كل الموسوعيين كما يبدو (دولامير، ديدرو، وبالباخ مثلاً) أي أن ملامحها التنويرية لم تستمد من الماسونية بل إن الماسونية نفسها استمدت بعض تلك الملامح من أفكار الثورة.

كما وحيا الماسونيون بحماس ثورة 1848 وكان عدد قليل منهم أعضاء في الحكومة الإقليمية [وكان منهم 15 عضواً من أصل 92 عضواً منتخباً إلى المجلس المركزي لكومونة باريس 1871 وفيهم جوليس فاليس وجوستاف ليفرانشيبز وهو لاسلطوي ـ المترجم]. وفي الفترة اللاحقة تحققت أعظم انتصاراتهم وادعى محفل الشرق الأعظم أن غالبية الساسة خلالها كانوا أعضاء فيه مثل رينيه فيفياني رئيس الجمهورية 1914 (الذي أعدّ العدّة للحرب العالمية الأولى) وفي

28/ 6/ 1917 انعقد مؤتمر الحلفاء في باريس جنباً إلى جنب مؤتمر الماسونيين وبعدها أذاع «الأخ» وودرولسن ميثاق عصبة الأمم. وفي 15/ 8/ 1919 دعا «الأخ» روزفلت إلى إقامة مؤتمر عالمي للسلام لإقرار أوروبا فيدرالية.

3 ـ إن الماسونية هي عالمية الطبقة الوسطى، وكتب باكونين «المؤسسة الأكثر بروزاً للطبقة الوسطى في تطورها من خلال ازدياد قوتها في النشوء ثم في الانهيار فيما بعد «وبيرنيري» تساعد الماسونية كل حركة تعاضد الطبقة الوسطى وتحارب كل شيء يقدر على إيذائها» وإنها كانت طليعة الطبقة الوسطى الصاعدة والمندمجة في ثورة 1789 ـ 1792 و1848 وهي مستمرة في مدياتها الرئيسية إلى الآن كتعبير عن وجهة نظر الطبقة الوسطى المتنورة والمدركة حتى اللبرالية ولكن ليست التقدمية ومُثلها الديمقراطية ليست ثورية بل تشريعية وهي تتحدث باستمرار عن القانون قابعة في وسط الهياكل الاجتماعية القائمة.

إنها لم تسأل بأسلوب جدي عن أسس النظام البرجوازي ولا تصوّرت معارضته، إنها لم تقبل بتاتاً البروليتاريا كقوة أو عاملاً في التقدم الاجتماعي، إنها قبلت فقط بضعة بروليتاريين مهتمين بفرضياتها الفلسفية السيكولوجية المسبقة أكثر من وعيهم الاجتماعي.

4 ـ إنها لا تشعر بنفسها «متنوّرة» وحسب، بل وتفرض تنويراً على المجتمع حسب رؤيتها هي، إنها تتصور وتضع في التطبيق تكتيك استلام السلطة بالتسلل، إنها لا ترفض السلطة بل تنشدها وتعتقد بجدّ أن أعضاءها يكونون أفضل الإداريين، أفضل الحكام، وأخيراً وكما يتباهون «سياسيين جيدين».

5 ـ يتطلب ضمان السلام في نظر الماسونية تجاهل الفوارق الطبقية الصراع الطبقي في يد، وفي اليد الأخرى تقبل أسس المجتمع القائم. وفي مقابل هذين المبدأين يضع التحرري مبدأي رفض السلطة والطبقات ورفض الرأسمالي والدولتي، لهذا لا يستطيع المساومة مع الماسونية.

6 ـ كتب أندريه لورولو، أحد المفكرين الأحرار، في كتابه «مع أو ضد الماسونية» 1935 وفي بواكير اضطهاد النازية للماسونيين «ليس من حجة توجب على رجال اليسار أو اليسار المتطرف التكتل مع الحملة ضد الماسونية حتى ولو سلبياً، ذلك أن الحملة تبتغي تدمير كل الحريات الديمقراطية والعمالية بضرب الماسونية» صحيح أن الماسونية اضطهدت من قبل كل الأنظمة السلطوية التي هي قائمة قبل كل شيء على التآمر والأقبية السرية لذا فمن المحتمل أنها تخاف استخدام نفس الأساليب المجرّبة هذه ومن قبل غيرها ـ ضدها.

7 ـ تطالب الماسونية كأية منظمة مبنية بصرامة وهرمية والأكثر من ذلك بسرية جداً بطاعة مطلقة دوماً. والأصح أن سرية الماسونية أصبحت حكاية قديمة بعد أن أخذت قائمة أسماء مجلسها الأعلى تطرح أمام السلطات كل سنة، وبعض نشراتها يسهل الحصول عليها، ويلعب أفرادها دوراً في النقاش في الراديو، فهي ليست سرية بل منغلقة، طقوسية وتحت الأرض. وتذوّق أعضائها للغموض وادعاءاتهم الميتافيزيقية (أصل معبد سليمان، الصليبيون الخ) أكثر من خصوصية شخصية. ومبادىء الاختيار النخبة، الدرجات، الأوضاع المنفصلة في الاجتماعات الخ بعيدة جداً عن الديمقراطية.

أوضح كاميلو بيرنيري سبب انتماء قلة من اللاسلطويين إلى الماسونية في إيطاليا «بأمل نشاط أوسع نطاقاً لهم يمكن ممارسته داخل المحافل الماسونية» [وهذا المفهوم قريب من تاكتيك بلانكوي بالنفاذ إلى أية حركة جماهيرية للتأثير فيها نحو الاتجاه المطلوب. المترجم] وهناك ما هو أكثر احتمالاً وهو وجود ميل في الحركة التحررية ينحرف نحو سيكولوجية الرومانسية ـ الإنسانية، الفرضيات الميتافيزيقية، ويهتم بالتأمل أكثر مما بالقضايا الاجتماعية، ميل إلى تضبيب الصراع الايديولوجي وصدام الطبقات بتصوّر «تركيب» بينها.

المترجم: يشير الكاتب اللاسلطوي بونانو إلى استمرار أفكار الشعوذة والماسونية داخل قسم معين من الحركة اللاسلطوية في صقليا حتى اليوم (اللاسلطوية والنضال التحرري الوطني ـ الفريد و.م. بونانو. منشورات براتاش دوبة. جلاسجو 1978 ص6).

8 ـ إن التعارض القائم ما بين السلطة × الرفض والقبول × النقد والطبقة × التجانس يرينا نفسه في كل عمل للماسونيين. فكيف يمكن مثلاً إجراء البحث المعروف جيداً عن الحقيقة فيما لو وجد في نفس المحفل: المارشال جيوفري، القاصد الرسولي السابق بايلين، جورج السادس ملك إنجلترا السابق، الأمير فورا ابن عم نابليون الثالث [ويضيف المترجم الجنرال ولسلي فاتح مصر 1881 واللورد كرومر والجنرال كليبر والجنرال الفرنسي ليمان ليمنتزر قائد حلف الناتو 1964 وكيسيو كيلي المليونير الإيطالي وزعيم لوج ـ ب/2 الذي كشفت عنه الحكومة الإيطالية 1981 وقد حارب إلى جانب فرنكو ثم إلى جانب الفاشست في أواخر أيامهم في إيطاليا] وفي نفس الوقت: فولتير، موزارت، ستاندال، بوليفار الخ تلك الحقيقة تكون توفيقية بالضرورة، ولهذا لن تكون حقيقة صادقة مطلقاً ولا تستطيع أن تكون.

(14) ص 57

تجاهل اللاسلطويون كافة ولحدّ اليوم دور الحزب كوسيلة في النضال لكونه أداة سلطوية تتوسط ما بين الشعب وهدفه في إقامة الكومونة وتنعزل عن البروليتاريا، ولأنهم لا يتبعون أو ينتظمون حول رجال أو نساء أو لجان مركزية وإنما حول أفكار ويتمردون على أي مبدأ يقام بواسطة قانون، خبير، تفرغ، وكما كان رأي السندكالية ـ اللاسلطوية الألمانية فإن الإيمان الأعمى بفعالية الحزب كان أحد الأسباب الرئيسية لعجز الطبقة العاملة لأن العمال يجب أن يكونوا السادة وليس أتباعاً لمنظماتهم (تمرد ولهلم سافن: فصل عن الحركة

الثورية في البحرية الألمانية 1918 ـ 1919 ايكاروس ـ اسم مستعار لأرنست سكنايدر ط. سميان. هونلي. إنجلترا 1975 ص 13 و30).

لما كان التنظيم تطبيقاً لمبدأ التعاضد مع الناس الآخرين ورابطة من أجل غرض محدد هو تحقيق أهداف الوحدة الاجتماعية وليس هدفاً لذاته، لذا فإن البديل عن الحزب هو المجموعات الوقتية ذاتية الحركة التي تعمل ضمن شبكة مرنة وطوعية وتدخل في اتحادات ولا تكون شكلاً موحداً ساكناً من التنظيم، بل متغيراً باستمرار تبعاً لتغير الرغبات والطموحات (صحيفة لاسلطوي كلايد سايد. جلاسجو أيلول 1984 وتعرض وجهات نظر متعددة) وتنشر الصحف اللاسلطوية الإنجليزية (فريدم وبلاك فلاك) عناوين كثيرة لتلك المجاميع وبانتظام.

يتفق هذا الرأي مع رأي عدد ضئيل جداً من مفكري الحركة الاشتراكية ومنهم وايتلنج الذي لم يعترف أصلاً بتنظيم الطبقة العاملة وعصبة سبارتكوس وخاصة روزا لكسمبورج والمناشفة الروس المتأثرين بالآراء اللاسلطوية في هذا الموضوع ومتأخراً هربرت ماركوز (1898 ـ 1979) في كتابه مقالة عن التحرر إلا أن الرأي السائد هو رأي ماركس الذي أوحى للمجلس المركزي للأُممية الأولى قراره 1870 «لا تستطيع الطبقة العاملة كطبقة العمل ضد القوة المتكاتفة للطبقات المالكة إلا بواسطة تنظيم نفسها في حزب سياسي» وأعيد إقراره بنفس العبارات في مؤتمر لاهاي الانشقاقي 1872.

تلقف لينين هذا الرأي وقلب الحزب إلى تنظيم حديدي صارم جداً بما أضاف إليه من مفاهيم الانتقاء والهرمية والطاعة حتى جعله معزولاً عن الطبقة، وطليعة الحزب معزولة عن الحزب «لا يجوز الخلط بين الحزب وطليعة الطبقة العاملة وبين الطبقة بكلتيها» خطوة للأمام وخطوتان للوراء منشور في المختارات ن.م. ص 425 وقد رأت روزا لكسمبورج في كتابها لينينية أم ماركسية 1904 أن تفسير لينين لمصطلح دكتاتورية البروليتاريا بشكل الحزب البلشفي قريب جداً من أفكار بلانكي (واضع المصطلح نفسه أيضاً 1837)

بتأكيده على الحاجة إلى طليعة تآمرية ثورية منه إلى لاسلطوية الكومونة. وجذر هذا المفهوم الانتهازي في الادعاء القائل بانعدام الخبرة النظرية والعملية للبروليتاريا، لذا يجب أن تقاد بواسطة أقلية برجوازية متعلمة.

ونعود فنقول إن المفهوم المتعالي للحزب هذا ليس إلا نبتة أخرى لنفس تربة المركزية السلطوية للماركسية حاله حال مفاهيم متعالية أخرى كالدولة ودكتاتورية البروليتاريا، وهي مسألة ذهنية عامة وليست مسألة خطط ومناهج عمل. ومثال معاصر بسيط يوضح ذلك أكثر: شكل العاطلون الشباب في مقاطعة كيوبك في كندا سنة 1983 مجموعة ذاتية للنضال من أجل حقوقهم شارك فيها فئات من الاشتراكيين السلطويين إلى اللاسلطويين فكان أن طالب الماركسيون ببناء مركزي معقّد للمجموعة ذي مجلس تنفيذي على مستوى القطر وبطاقات عضوية واستراتيجيات عمل الخ، بينما لم يرغب الآخرون بأكثر من أن يسمح لكل شخص بالمشاركة في اتخاذ القرارات في جلسات عامة والمزيد من العمل المباشر للضغط على الحكومة.

ظلت مسألة الحزب إحدى نقاط الخلاف الرئيسية ما بين الماركسيين اللينينيين واللاسلطويين (والنقطتان الأخريان هما إزالة الدولة ورفض العمل السياسي) وكان المؤلم طغيان المفهوم اللينيني الصارم للحزب الطليعي ليس على التيار الماركسي كله في العالم وحسب، وإنما على الحركات اليسارية في العالم الثالث أيضاً، إذ صار شبه بديهة لا تناقش طوال خمسة عقود من الزمن إلى أن انكشف ضلاله نظرياً وعملياً تحت تأثير النشريات الايديولوجية الجديدة والنمو المتزايد للمجاميع الثورية للعمل المباشر وبروز مساوىء التطبيقات الروسية وخاصة في الفترة الستالينية وانتفاضات دول أوروبا الشرقية ضدها.

اتجهت نية قلة من اللاسلطويين فترة من الفترات (مثل مالاتيستا) إلى تشكيل شكل مخفف من الأحزاب وقامت بعض المحاولات ولكن بدون أية نتيجة. ويسجل التاريخ شبه استثناء نادر ووحيد هو حزب الحرية في المكسيك

الذي أنشأه ماجون. لم تستخدم لفظة الحزب هنا بأي مفهوم سياسي وإنما بمعناها اللغوي المحدد: مجموعة أناس ذوو أفكار متقاربة وقد نص منهاجه المعلن في 2/ 9/ 1911 على «دع كلاسيد نفسه ودع كل شيء يُنظم بواسطة الموافقة المتبادلة للأفراد الأحرار، وإزالة مبدأ الخلاف بين الإنسان والإنسان ألا وهو الملكية الخاصة، ومن ثم لن يبقى هناك سبب لوجود الحكومة والكنيسة» متبنياً الشيوعية اللاسلطوية في أن يختار كل واحد نوع العمل الذي يلائمه أكثر تبعاً لمزاجه وذوقه وميوله، ويُرسل كل منتوج إلى المخزن العام للوحدة الاجتماعية وللجميع حق تناول ما تقتضيه حاجاتهم. نص المنهاج ومجمل أنشطة الحزب وتأثيره الإيجابي في الثورة الشعبية التي قادها المناضل المعروف إيمليونا زاباتا في «الأرض والحرية: التأثيرات اللاسلطوية في الثورة المكسيكية ـ ريكاردو فلورانس ماجون «توحيد دافيد بول ط. سينفيو جوس. إنجلترا 1977 ص 95 ـ 103.

(15) ص 83

باعتبارهم اشتراكيين طبقيين أولاً ومعادين للدولة ثانياً فإن اللاسلطويين يجدون القومية ظاهرة فوقية ويشايعون في ذلك ليس الاشتراكيين الآخرين وحسب بل والليبراليين أيضاً كما في هذا المثال لرأي الأخيرين «كانت القومية قوة اقتصادية قبل أن يصبح الانتماء القومي حقيقة سياسية» الدين وصعود الرأسمالية ـ آر. ابيج. تاويني ط. بنحوين 1948 ص 78 وتبعاً لرأي الكاتب اللاسلطوي رودلف روكر «إن الأمة ليست سبب بل نتيجة الدولة والفارق بين الناس والأمة هو نفسه الفارق بين المجتمع والدولة، فالناس هم الثمرة الطبيعية للوحدة الاجتماعية وموجودون قبل أن تتشكل الدول بينما الأمة نتيجة اصطناعية للصراع من أجل السلطة السياسية مثلما القومية لم تكن بالضبط سوى الديانة السياسية للدولة الحديثة لذا لا يمكن تصور أمة بدون دولة» القومية والحضارة ـ رودلف روكر. مطبعة فريدم 1960 ص 15.

وتعبِّر إحدى صحفهم عن ذلك أيضاً «القومية بالتحديد إما خلق دولة

لتمثل أمة أو تمجيد دولة قائمة. . . وعبادة الدولة تلجأ إلى البرجوازية وتشكل العمود الفقري للفاشية لأنها بديل الصراع الطبقي وتمويه على تباين المصالح الطبقية داخل الأمة الواحدة واللجوء إلى الوحدة القومية هو الأمل التقليدي للطغيان» الراية السوداء. لندن 3/ 9/ 1984.

ومما يدعم هذه الآراء اليوم أن عدم قيام قوة اقتصادية رئيسية في دول إفريقيا المستقلة حديثاً أدى إلى عدم نشوء اتجاه قومي بل قبلي لدى سكانها وإن عدم انجلاء تلك القوة لحد الآن في دول الاتحاد السوفياتي سابقاً يؤدي إلى تأرجح سكانها ما بين النزعتين القومية والدينية. وبهذا المنطق فإنهم لم ولا يجاملون الحركات القومية سواء أكانت بهدف الاستقلال أو الوحدة المركزية كما فعل الماركسيون اللينينيون بتقسيمهم لها إلى أشكال وألوان. فقد عارض برودون توحيد الولايات المتحدة الأميركية في حرب الاستقلال ورأى أن إلغاء الشماليين لنظام العبودية سيقلب الزنوج إلى بروليتاريا، وهذا ليس بتغيير كبير نحو الأحسن، والوحدة الإيطالية، رغم تأييد يساريي أوروبا قاطبة لها في حينه، مهاجماً ماتزيني وغريبالدي لرغبتهما في فرض وحدة قومية اصطناعية على سكان إيطاليا المتباينة خصائصهم ونوعياتهم لأنها تخلق «قيصرية جديدة» وقد وقع ذلك فعلاً بتسلّم موسوليني السلطة بعد 45 سنة. كما وعارض استقلال بولونيا عن روسيا لأنها ستقع في النتيجة بأيدي أرستقراطية رجعية أيضاً (بينما اندفع باكونين في تأييد استقلال بولونيا في مرحلة إيمانه بالقومية السلافية قبل أن يصبح لاسلطوياً) وعارض كروبتكن الوحدة الألمانية لنفس الأسباب وأيضاً منظمة الجيش الأحمر لإعادة الوحدة 1992.

وكذلك الحال مع الحركات القومية المعاصرة كالتاميل والأرمن والإيرلنديين والباسك. ومن المفيد والطريف معاً أن ننقل موقفين لاسلطويين من حركتين قوميتين لهما اهتمام أكيد لدى القارىء. الأولى (ليست قومية من وجهة نظرنا الشخصية بل دينية) هي الصهيونية «في حالة إسرائيل على سبيل المثال: يجب أن ينتقد اللاسلطويون الدولة كدولة ولكن يدينون أيضاً

الايديولوجية الصهيونية التي تدعم تلك الدولة: إمبريالية قوة فاشية كمثل جنوب إفريقيا. يجب أن يريهم المرء أن كل الدول يمكن أن تحتوي على ملامح الفاشية، والفاشية هي انحراف الدولة ويمكن أن تظهر حالما يشعر المحرجون بالحاجة إليها. وأكثر من ذلك فإن الذهاب إلى مساعدة الشعب الفلسطيني لا يعني دعم منظمة التحرير الفلسطينية نصيرة خلق دولة فلسطينية» صحيفة أنسركشن. لندن. أيار 1985 عن صحيفة إكسبريشن ليبرتيريس.

ويوضح بيرلمان أن الصهاينة استطاعوا قبل ح.ع.أ من معاملة أشتات بشرية دينية كأمة وخداعهم لجعل الدولة الرأسمالية القومية غاية نهائية لهم بعد تحويل تراثهم الديني إلى تراث عنصري متفوقين بذلك على النازيين بنقلهم الدين إلى عنصر (المقاضاة المستمرة للقومية ـ فريدي بيرلمان ط. الأسود والأحمر ديترويت 1985 ص 41 و42).

والثانية هي الحركة السياسية الكردية: أصدرت صحيفة فريدم ملحقاً من ثماني صفحات، أي بقدر عدد صفحاتها الأصلية (عدد 16 سنة 1980) خاصاً بالأكراد، وقد تضمن مقابلات مع مواطنين أكراد في إيران سبق ونشرتها «المجموعة التحررية في طهران» بعيد الثورة الإيرانية وجرت مصادرتها، ونقداً لكتاب «شعب بلا وطن: الأكراد وكردستان تحرير جيرارد شاليان» ويضم دراسات لعدد من الكتّاب الماركسيين «يفترضون دوماً أن الحاجة الأساسية للأكراد أن تكون لهم دولتهم القومية، وهذه مشكلة جوهرية بالنسبة للاسلطويين عندما يتدارسون حركات التحرر الوطني بينما هي سهلة بالنسبة لليبراليين والماركسيين: يريد الأولون مشاركة بسيطة لشعوب الأقليات ذات القضية في أية حكومة تحكم، والأخيرون يريدون أن تكون الحكومة لها. . . إن الثمرة المحببة لانتصار الأكراد هي دولة ماركسية تدار من قبل الحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران».

ويستدل محرر الملحق من المقطع التالي من الكتاب والمتعلق بالحرب الأهلية في شمال العراق «ما أن أقيمت دولة بصورة خاصة وكانت هناك حاجة

إلى المال حتى بدأ الوسطاء بالظهور ونمت البيروقراطية والنخبوية في أعلى حلقات الجيش والحزب معاً. لحسن الحظ هناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة ولكن ما صنع من أجل منعها كلياً قليل وسُمح لمجموعة ذات امتيازات بأن تفرض نفسها» يستدل المحرر ما ستنتهي إليه الدولة الماركسية الجديدة أيضاً بأن لا تخرج عما ذكر في هذا المقطع من الكتاب. وقد أوضح «كتاب عديدون: أبتر، بندكس، شيلز وباي على سبيل المثال حقيقة أن هرمية البيروقراطية الحكومية والعسكرية تؤلف لدى الشعوب النامية القنوات الرئيسية للحركة المتصاعدة» جنود وطلاب: دراسة عن راديكالية الجناح اليساري واليميني ـ روب كرويس ط. روتلدج وكيجان بول. لندن 1975 ص 39.

وينوه محرر الملحق «أن الأكراد قادرون على أشياء أفضل تظهرها الأحداث حول سنندج والمستقبل المحتمل للأرض الكردية التي يسيطر عليها الحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران كما تلمح إليه إشارة وردت إليّ من شاليان في كتابه» ص 16 ولم يوضح المحرر ماهية هذه الإشارة إلا أنه كان قد ذكر في الصفحة السابقة من الملحق «كانت هناك روح تحررية مشجعة في المنطقة ـ سنندج» أي أن هناك تياراً لاسلطوياً معاكساً للنزعة الماركسية الدولتية، ويبدو أن هذه المبادرة، هي التي دفعت إلى إصدار الملحق.

(16) ص 87

في الدول الرأسمالية الكبرى، وغيرها حسب التبعية الذهنية، تعتيم إعلامي شديد على الفكر والنشاط اللاسلطويين وصفه جورج أورويل 1936 «في الصحف الإنجليزية على الأخص عليك بالتحري طويلاً قبل أن تعثر على أية إشارة إيجابية في أية فترة إلى الحرب الإسبانية أو إلى اللاسلطويين الإسبان، إنها تشوه السمعة بصورة منظمة، وكما أعرف من تجربتي الخاصة فإنه من المستحيل غالباً أن تجد أيّاً كان يطبع أي شيء دفاعاً عنهم» ويعلق نعوم جومسكي في كتابه «القوة الأميركية. . .» 1969 على تلك العبارة «تبدل

القليل منذ ذلك الحين» وإذا ما أجبرت واقعة معينة وسائل الإعلام البرجوازية على الظهور فيها، فإن هذه الوسائل غالباً ما تغفل هويتها وتنسبها إلى «القوى اليسارية المتطرفة أو الإرهابيين».

ولهذا السبب ولأن روح اللاسلطوية ثقافية بالأصل وتعتمد على الإقناع الذاتي والفكر الحر فإنها اعتنت بوسائل التثقيف والإعلام مبكراً وصدرت أول صحيفة لها باسم «البورفيز» في غاليسيا 1845 وأغلقت من قبل السلطات بعد فترة وجيزة جداً ثم صدرت صحيفة برودون «ممثل الشعب» في باريس شباط 1848 وشعارها «ما هو المنتج؟ لا شيء. ماذا يجب أن يكون؟ كل شيء» وأصبح في آب «ما هو الرأسمالي؟ كل شيء. ماذا يجب أن يكون؟ لا شيء».

نوجز فيما يلي التعريف بأهم الأنشطة الإعلامية اللاسلطوية في الوقت الراهن:

- تأسست مكتبة المركز العالمي لأبحاث اللاسلطوية سي آي آر أي في جنيف شارع كادوس سنة 1957 وتضم أهم المصادر في العالم ومن ضمنها صور المخطوطات والأطروحات الجامعية ونسخ الدوريات التي بلغت 1500 صحيفة معتمدة على الاشتراكات والتبرعات وإهداء المطبوعات أو مبادلتها وتنشر المكتبة نشرة لمرتين في السنة وترسل قوائم بالمصادر عن الأشخاص والمواضيع للطالبين. ومن أهم المراكز الأخرى مكتبة عامة كيت شابلي في ريالتون رود جنوبي غرب لندن ومركز الاتصالات الدولية ـ منظمة اللاسلطوية الثورية في بيسارو بإيطاليا.
- من المطبوعات الإعلامية العامة: القائمة السوداء الدولية ط. 1983 وتضم دليلاً أبجدياً لعناوين المعادين للسلطة يمكن الحصول عليها من مجموعة القائمة السوداء في قسم دراسات ضد ـ السلطوية في قاعة إيشلمان بجامعة كاليفورنيا ـ بيركلي.
- تعتبر الببليوغرافيا التي أعدها ماكس ناتللو للمطبوعات اللاسلطوية ونشرها

باللغة الفرنسية في بروكسل 1897 أدق ما وضع بهذا المجال، إلا أنها لا تتوفر في المكتبات العامة العادية. وهناك كتالوج الكتب اللاسلطوية 1984 يمكن الحصول عليه من مركز توزيع سينفيوجوس ـ مينابوليس، الولايات المتحدة وكتاب الأفلام اللاسلطوية ـ بليترو نيردا ويضم قائمة بالأفلام من سنة 1906 حتى الوقت الحاضر ط. اللاسلطوية. بورتلاند. الولايات المتحدة 1983.

- أهم مركز لبيع المطبوعات اللاسلطوية من كتب وصحف بمختلف لغات العالم مكتبة فريدم 84 وايت جابل هاي ستريت بلندن داخل زقاق غير نافذ ومقابل جامع وايت جابل الكبير تقريباً.
- يصدر في العالم حوالي 120 صحيفة لاسلطوية وأهم ما يُلاحظ فيها:

1 ـ الحرية المطلقة في التعبير عن كل وجهات النظر، وهو مبدأ أصيل من مبادىء اللاسلطوية عبّر عنه جونز «بالنسبة للاسلطويين يمتلك حتى الفاشست الحق في الكلام ولو من غير حق في أن يستمروا بدون تحدّ. أناس يمتلكون الحق في أن يصبحوا عبيداً بحرية، ولكن لا حقَّ لهم في إكراه الآخرين على اتباع نموذجهم المحزن، وبكلمات أخرى: لا رقابة في ظل أية ظروف» مقالة جنون الإباحية ـ لازاروس جونز في صحيفة سترايك. أونتاريو. حزيران 1984.

2 ـ خطة الصحيفة اللاسلطوية «العناية بالناس الجادين وفي أقصى لحظات جديتهم» كما كتب وارد وهو أحد محرري الصحف اللاسلطوية العريقة ومنذ الأربعينات: فريدم واللاسلطة، وعدم تعمد الحديث بلغة الشعارات وتصيّد العبارات الطنانة، ورغم أنها قد تجمع بين تناقضات (مقالة: اللاسلطة والصحافة: كولن وارد. صحيفة سترابك ن.م).

3 ـ ذات مالية رديئة وتعيش على التبرعات حيث تطلبها على صفحاتها بإلحاح.

4 ـ ذات طباعة عادية جداً والكثير منها مطبوع بأجهزة الاستنساخ.

5 ـ لا تظهر بصورة منتظمة أو تظهر وتختفي بعد فترة قصيرة.

6 ـ توزيعها محدود فهي لا تباع بواسطة الباعة المتجولين أو في أكشاك الصحف أو على الأرصفة وإنما في مكتبات صغيرة معينة وقليلة العدد جداً. وقد بدأت مكتبة كوليت الشهيرة في شارع جارن كروس رود بلندن بعرضها في السرداب مؤخراً.

7 ـ ليس للاسلطويين صحف مركزية وإنما محلية وفئوية متعددة وحتى فريدم لا تعبر عن رأي كل اللاسلطويين.

وفريدم هي أقدم الصحف المستمرة بالصدور في لندن من قبل مطبعة فريدم التي ساهم كروبتكن في إنشائها سنة 1886 وكانت السبَّاقة في إصدار الكتب التحررية في مواضيع التحرر الجنسي (البربرية والحرية الجنسية لموريس كومفورت والحرية الجنسية للشباب والمرضى لجون هيوتسون) وضد الفاشية (المسيرة نحو الموت لجون أولدي) وضد الستالينية (العمال في روسيا الستالينية) لماريا لويرز بيرنيري. كما وأصدرت المجلة الشهرية اللاسلطة (1961 ـ 1970) أجود المجلات اللاسلطوية مضموناً وإخراجاً وتماثلها مجلة الإنسان التي أصدرها ماركوس جراهام (روماني من أسرة يهودية) في سان فرانسيسكو 1933 ـ 1940 وأغلقتها الحكومة الفدرالية واعتقلت محررها. وقد جمعت مختارات من موادها الثقافية بمجلد طبع في مطبعة سينفيوجوس الإنجليزية 1976.

من أهم المجلات الحالية ذات القيمة الثقافية العالية: الطبقة الخامسة ـ ديترويت وأوبن رود ـ فانكوفر وبيسكليتا يصدرها الإسبان المقيمون في شيكاغو وماتش ـ توسكون/ أريزونا وأفكار وعمل ـ سان فرانسيسكو وتدعو للعمل المباشر والتسيير الذاتي وضد المزاج ـ نيويورك والعامل الصناعي ـ شيكاغو واوفرثرو ـ نيويورك وليفر التير ـ باريس وباستا ـ تولوز وبراند ـ

ستوكهولم ونشرة الفدرالية اللاسلطوية بادن بألمانيا ورايديكال ـ ألمانيا وكك آوت أوفر ـ تورنتو وأفينتي ـ كولنجوود بأستراليا ثم ريبيل ووركر ـ سيدني وهي سندكالية ـ لاسلطوية وسبكتاتور تايمس ـ لندن وبلاك ستار ـ بوكس بإنجلترا والغضب مجلة مناضلي الحرب الطبقية اللاسلطويين ـ أدنبرة والعين السوداء ـ مانجستر وتيفرا باليبرتا ـ مكسيك بالإسبانية والتضامن ـ إنجلترا وتعنى بالأفكار الماركسية واللاسلطوية مضافاً إليهما الأنثوية وحماية البيئة وتؤمن بالتسيير الذاتي (افتتاحية العدد 5 بدون تاريخ ـ 1984؟).

كما وهناك محطات إذاعة قرصنة (كما تسمى بالإنجليزية أي غير مجازة أو تذيع من مناطق بحرية غير عائدة لدولة) منها راديو ليبريتا برعاية سي أن تي الإسبانية وباتالها وايديا فور أنار كوبرت في فالانسيا وهي تعاني مثل الصحف اللاسلطوية من متاعب مالية وتطلب المعونات (صحيفة فريدم. لندن 2/ 8/ 1980) وراديو لايبر تير صوت فدرالية اللاسلطويين الفرنسيين وراديو فريجي كيزر أناركست في أمستردام وراديو التانجراين ويسمع في الشاطىء الغربي من الولايات المتحدة بمنطقة ميامي. كما وتوجد إذاعات في ليدز وكمبردج ولندن وشيفيلد تذيع ما بين ساعة إلى ساعتين يومياً وتصدر إذاعتا كمبردج ولندن كراسات تتضمن أوقات عملها وكيفية الاستماع إليها.

(17) ص 88

العنف السياسي هو استخدام القوة المادية ضد هدف محدد يكون في ضربه مصلحة مباشرة لقضية عامة. والإرهاب هو انحراف العنف عن الهدف إما بتحديده خطأ أو عدم تحديده وتنفيذ العنف بصورة عشوائية. لذا فإن اغتيال منظمة فاشية لمناضل يساري أو سطو منظمة يسارية على بنك عنف ما دام الهدف محدداً في الحالتين وفي تحققهما إزالة عائق أو تمويل قضية عامة. وأما إلقاء قنبلة من قبل منظمة يمينية أو يسارية في قاعة للسينما مكتظة بالرواد فلا يعتبر عنفاً مجرداً لأنه رغم افتراض الفاعل توفر عنصر المنفعة فإن عدم تحديد

الهدف أو الأهداف قد يؤدي ليس إلى إصابة خصوم سياسيين وحسب وإنما عشرات آخرين ليس في إيذائهم مصلحة مباشرة للقضية العامة مما يقلب العنف إلى إرهاب.

لا نعتقد بوجود خلاف في الرأي لدى أية حركة أو منظمة أو حكومة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار حول اللجوء إلى العنف بشكل من الأشكال وبأي مبرر من المبررات عند الاقتضاء (فيما عدا دعاة اللاعنف المطلق مثل أتباع تولستوي وغاندي) ولا نكران أن ما من ظاهرة اجتماعية أو سلطة تخلو من عنصر العنف تماماً. يقول الكسندر بيركمان 1929 «أينما تتجه تجد أن حياتنا مبنية كلياً على العنف أو الخوف منه، من الطفولة الأولى فإنك تخضع لعنف الوالدين أو الأكبر منك سناً، في البيت، المدرسة، المكتب، المعمل، الحقل أو المتجر هناك سلطة شخص ما تدعك مطيعاً أو مجبراً على تنفيذ إرادته. السلطة هي القدرة على إجبارك، الحق في إجبارك هو ما يدعى بالسلطوية، وهي تراقب حياتنا من المهد إلى اللحد».

وبتحديد أكثر فإن الحرب عنف والثورة عنف والحكومة عنف أيضاً. وقد قال جون لوك «كل الحكومات في العالم هي ثمرة القوة والعنف وحسب» مقالة تتعلق... ن.م. ص 57.

وإذا كان لويس بلانكي ووايتلنج وباكونين (رسالته في 2/ 6/ 1870 منشورة على شكل كراس مستقل بعنوان: باكونين حول العنف ـ رسالة إلى س. نيتشاييف. مطبعة بونتي. الولايات المتحدة 1977) من رواد الاشتراكية الذين يبيحون العنف صراحة مدفوعين بتبنيهم لمبدأي الزمروية والتآمر في العمل، فإننا نستخلص من صفحات تراث ماركس الهائل عدم معارضته هو الآخر لاستخدام العنف فقد قال في مؤتمر المجلس المركزي للأُممية الأولى في لندن 1871 «يجب أن نقول للحكومات: نحن نعرف أنكم قوة مسلحة موجهة ضد البروليتاريا وسوف نعمل ضدكم سلمياً كلما أمكن ذلك ونستخدم السلاح كلما

كان ضرورياً» اللاسلطوية والسندكالية اللاسلطوية ن.م. ص 18 والشيء بالشيء يذكر: سبق وقال برودون: «إن تاريخ الحكومات هو تاريخ شهداء البروليتاريا».

كان ماركس منسجماً مع نفسه في تلك العبارة بعدم قطعه الخيوط المتينة التي تربطه بالعمل السياسي البحت «إن كل حركة طبقية كحركة طبقية هي بالضرورة وكما كانت دوماً حركة سياسية» ماركس إلى لافارغ 19/4/1870 في اللاسلطوية والسندكالية اللاسلطوية ن.م. ص 48 ولم ينكر على العمال في الولايات المتحدة وإنجلترا وهولندا محاولة ضمان أهدافهم بالوسائل السلمية وامتدح التصويت العام في إنجلترا. بديلاً عن الثورة العنيفة كما ورد في مقابلته مع الصحيفة الأميركية وودبول وكليفنز ويكلي 12/8/1871 وخطابه في مؤتمر الأُممية في أمستردام 18/9/1872 وقد فسّر البعض (يراجع التفكير الاجتماعي والسياسي لكارل ماركس ـ اس افنيري. مطبعة جامعة كمبردج 1968 ص 217) اتجاهه هذا في هذه الفترة برغبته، من منطلق لامبدئي على كل حال، في عدم إعطاء الحكومات الأوروبية عذراً لتحريم نشاط الأُممية كما حصل في فرنسا وانتقد أنجلز أيضاً عدم اشتراك رابطة العمال الباكونينية في انتخابات الجمعية التأسيسية للنظام الجمهوري الجديد في إسبانيا 1873 ومقاطعة عمال بلجيكا وإيطاليا للانتخابات وقال بعد انتخابات 1874 في ألمانيا «برهنت نفسها الأكثر فاعلية من كل وسائل العمل الأخرى» ودعا في مقدمته المضافة بعد وفاة ماركس إلى الطبعة الألمانية من الحرب الأهلية في فرنسا 1892 إلى الحاجة إلى إجراء تغييرات في تكتيك الطبقة العاملة بعيدة عن حرب المتاريس ونحو استخدام الوسائل المشروعة والانتخابات.

وهذه كما عرفنا، إحدى نقاط الخلاف الرئيسية الثلاث بين ماركس وأتباعه، وبين اللاسلطويين، ليس لأن الأخيرين يريدون استبدال العمل السياسي بالعنف لوحده وإنما بالعمل الاقتصادي الصرف عنيفاً كان أم غير عنيف.

إن الاشتراكيين بصورة عامة جميعاً وبضمنهم اللاسلطويون متفقون على ما

انتهى إليه لينين «لا تقيّد الاشتراكية الديمقراطية يديها، لا تقيد نشاطها بأي مشروع أو أسلوب يوضع سلفاً من مشاريع وأساليب النضال السياسي، فهي تعترف بجميع وسائل النضال على أن تتلاءم وقوى الحزب الواقعية وتتيح الحصول على الحد الأقصى من النتائج التي يمكن الحصول عليها في ظروف معينة» المهمات الملحة 1900.

لكن الخلاف داخل الجبهة الرأسمالية لفظياً وداخل الجبهة الاشتراكية فكرياً وعملياً حول الإرهاب نفسه. وإذا كان موقف الجبهة الثانية من مسألة العنف استراتيجياً حتى أنها جعلت منه موقفاً واحدياً كما تعبّر عنه صحيفة لاسلطوية «إن تمييزاً صافياً ما بين العنف واللاعنف زائف. وقبل الحديث عن العنف واللاعنف يجب أن نميّز. . . بين وضع حقيقي. . . ونظرية مجردة. . . نستجيب فقط بفاعلية للجريمة التاريخية للاستغلال. . . مستخدمين أية وسائل نختارها نحن عنيفة كانت أو بلا عنف» وتنكر أي موقف آخر معاكس إذا نظرنا للأساليب السلمية بصورة معزولة فهي لا عنف بمعنى عدم استخدام الهجوم الفيزيقي على الخصم، ولكنها ضمن إطار الصراع فإن تدخلها ينقلب إلى عنف ـ عدا المنظمات التي تستخدم اللاعنف كعذر لترك الأشياء كما هي ـ فمسيرة للسلميين المتظاهرين هي حادث عنف بذاتها، حيث إنها تقلق النظام الاستغلالي، إنها تظاهرة للعضلات وعرض للقوة» مقالة العنف واللاعنف. الاعتصام. لندن أيار 1985 فإن موقف الجبهة الاشتراكية من الإرهاب يتخذ طابعاً دفاعياً بحتاً، ويستدق الفارق جداً بين العنف والإرهاب حتى يصبح كالشعرة التي تعلق بها سيف ديموقليس عندما توضع عبارة «المصلحة. . .» في الفعل العنيف تحت مجهر الفكر ويفترض شخص أو جماعة ما أن كل موجودات النظام مادية وبشرية جزء لا يتجزأ منه، ومن ثم فإن في تدمير أيٍّ منها مصلحة للقضية الاجتماعية. فعندما خاب اللاسلطوي العاطل عن العمل آميل فلورين في اغتيال أحد زعماء فرنسا عزم على أن يقتل أول برجوازي يلقاه باعتباره رمزاً من رموز النظام فأطلق النار على الدكتور ميمار 1881 وهو على

كل حال لم يكن مخطئاً في تصوّره، الذي يبدو متطرفاً، على الأقل، إذ حينما هاجمت منظمة الجيش الأحمر أحد رؤساء شركة سيمنس في ميونيخ صرح رئيس ألمانيا الغربية ريتشارد فون فيزاكر في يومه «إنه هجوم ضدنا جميعاً» انفجار جديد للإرهاب. مجلة نيوز ويك 21/ 7/ 1986 ص 8.

يقول لينين: «نحن لم نرفض مبدئياً قط ولا يمكن أن نرفض الإرهاب. الإرهاب أحد أشكال العمل النضالي، ولكن بشرط ألا يكون فردياً وإنما جزءاً من نشاط عسكري متلاحم مع نظام نضالي كامل» مقالته: من أين نبدأ 1901 مطبوعة مع مقالات أخرى ـ دار النشر باللغات الأجنبية. موسكو بدون تاريخ واسم المترجم إلى الإنجليزية ص 8.

عندما اتهمت جريدة الديلي تلغراف لصحيفة لاسلطوية لندنية أخرى بكونها الحليفة الدولية للإرهاب الثوري تساءلت الأخيرة «ما هو الإرهاب؟ الإرهاب هو القتل بلا تمييز، هو إلقاء قنبلة ذرية على هيروشيما، اختفاء آلاف من الشعب الأرجنتيني منذ 1876 وما بعدها ومذبحة الأطفال في السلفادور أو زرع قنبلة في قطار إيطالي مليء بالذاهبين في عطلة الخ الخ كل الإرهاب يأتي من الدولة أو ممن هم دولتيين، وضحاياه ليسوا غالباً جداً إلا الشعب العامل. ما هو ليس بإرهاب؟ إن حادث الاغتيال الأخير للمدعي العام جورج ثيوفانون بولادس في أثينا من قبل المنظمة المسلحة لكفاح ضد الدولة لم يكن عملاً إرهابياً، ومثله حملة القنابل المصممة لتدمير الممتلكات وليس الناس التي نفذت من قبل منظمة فانكوفر 5 أو اللواء الغاضب ليست أعمالاً إرهابية بدورها، إنها جميعاً أعمال انتقام من إرهاب الدولة» الراية السوداء عدد 38 في 26/ 8/ 1985.

لقد تم اغتيال المدعي العام اليوناني من قبل منظمة الأول من مايو في 24/ 1/ 1985 وسميت جماعة فانكوفر 5 بهذا الاسم لاعتقال 5 من الناشطين اللاسلطويين في كندا 1983 ومحاكمتهم بتهمة تدمير منشآت إحداها معمل إنتاج

أجهزة توجيه صواريخ كروز في تورنتو ومركز لإنتاج أفلام فيديو العنف الجنسي مع النساء والأطفال. وقد مارست الشرطة معهم أساليب تجسس تخالف (قانونها) هي كأجهزة تنصُّت في البيوت وعلى الهواتف ووضع كاميرات فيديو إلى درجة أنها امتنعت عن إخبار المحكمة عن المواضع الدقيقة التي وضعت فيها تلك الأجهزة. وحكم على الفتاتين بالمؤبد وعلى الرجال ما بين 6 ـ 20 سنة وقالت آن هامسن إحداهما للقاضي «أنا لست إرهابية. أنا شخص يشعر بالتزام أخلاقي لعمل كل ما هو ممكن إنسانياً لمنع تدمير الأرض».

واللواء الغاضب منظمة لاسلطوية إنجليزية أقدمت على أعمال عنف كثيرة سنوات 1967 ـ 1972 منها ضرب وزارة الداخلية وشركة فورد والملفات الآلية لسكوتلانديارد في الطرف الآخر وأبنية ومواقع عسكرية وسفارات إيطاليا وإسبانيا والولايات المتحدة. ورغم صدور الحكم على مجموعة منها في 6/12/1972 فقد حصلت وقائع لاحقة منها انفجار في مطار هيثرو في 21/4/1984 (يراجع اللواء الغاضب 1967 ـ 1984 وثائق وجدول أحداث تقديم جاك دير ط. إلفنت. لندن 1985).

والسيل عرم فهناك منظمة بادر ـ ماينهوف الألمانية اللامعة التي انتهجت نهجاً لاسلطوياً وتشكلت من أندرياس بادر، وقد رمي بالرصاص وأولتريكا ماينهوف التي انتحرت في سجن شتوتغارت في أيار 1977. وقد قامت المنظمة بعمليات خطف وإعدام أعداء طبقيين ونسف مؤسسات برجوازية كثيرة وبالأخص سنتي 1976 ـ 1977 ثم انتحر عدد من ناشطيها في السجن ومنهم غودرن أنسلن (أخرج عنها فيلم سنوات ثقيلة كالرصاص من قبل مرغريتافون تريتا 1985 ومثلت دورها بربارا ساكو التي سبق ومثلت دور روزا لكسمبورج في فيلم عنها ومن إخراج نفس المخرجة) وانكيد شوبرت في سجن ميونيخ أيار 1977 ومات جان كارل راسب في مستشفى السجن.

توحدت منظمة بادر مع منظمة الجيش الأحمر الألمانية أيضاً، وهذه الثانية

تشكلت في آب 1970 وكان من أنشطتها الهجوم على مقر قيادة القوة الجوية الأميركية في رامشتاين 31/ 8/ 1981 واغتيال صاحب شركة لصنع محركات الطائرات النفاثة 1/ 2/ 1982 ويعتبر مناضلو المنظمة إسرائيل «الممثل الإقليمي للولايات المتحدة وحلف الناتو» كما ورد في بيان سجنائهم في 20/ 11/ 1983 (منشور في صحيفة المقاومة. فانكوفر عدد 8 لسنة 1984).

مصدران عن الجيش الأحمر:

- كيف بدأ كل شيء ـ بومي بومان. مطبعة بلب. فانكوفر 1977 وكانت الشرطة الالمانية قد صادرت الكتاب عند صدوره 1975.
- جماعة الجيش الأحمر ـ منشورات أصدقاء دورتي. فانكوفر 1984 ويتضمن نشاطاتها لغاية 1977 مع حواشي عن الموقف الراهن وبيانها الشهير في أيار 1982.

ولا زالت المنظمة مستمرة في نشاطها وقد اغتالت نائب وزير الداخلية الألماني في 27/ 7/ 1990.

مثلما قيل إن للمنظمة علاقة بألمانيا الشرقية (تبنت إذاعة لندن هذا الادعاء في برنامج بين السائل والمجيب بالعربية 4/ 4/ 1991) فيقال أيضاً إن لها ـ ولمنظمة بادر علاقة تنسيق وتبادل معلومات مع مجاميع أبي نضال وكارلوس وتنظيمات عسكرية وطائفية وقومية في لبنان (مجلة الوطن العربي. باريس 25 ـ 31/ 1/ 1985) وأكد رئيس الشعبة السياسية للمخابرات الألمانية الغربية أن أعضاء من الجيش الأحمر موجودون في لبنان وليبيا وأنه يراقب مثل هذه المجموعة على مدار الساعة (جريدة القبس. الكويت 9/ 7/ 1990) وقد تجدد التأكيد على وجود صلات للجيش الأحمر مع منظمات دينية وفلسطينية شرق أوسطية بعد حادث نسف السفارة الإسرائيلية في بوينس آيرس واتهام اندريا رابوف إحدى مناضلات الجيش بتدبير الحادث (إذاعة لندن 21/ 3/ 1992).

جرى توحيد نشاط الجيش الأحمر مع نشاط منظمة العمل المباشر في

فرنسا سنة 1985 وقد نشأت المنظمة الثانية 1978 ومن مؤسسيها جان مارك راويان وناتالي مينغون وريجيس شليجر وجان سلماير، واعتقل من ناشطيها البارزين بيير كاربيت في 15/ 12/ 1985 وجان مارك وناتالي في 21/ 2/ 1987 وقد قامت بسبعين هجوماً على مؤسسات برجوازية فرنسية وأميركية وإسرائيلية منها اغتيال الجنرال رينيه لوروان كانون الثاني 1989.

اندمجت منظمة الخلايا الشيوعية المقاتلة في بلجيكا (تأسست في 1984) مع منظمة العمل المباشر في 15/ 1/ 1985 وبعد الاندماج بين المنظمات الثلاث قامت باغتيال جندي أميركي وتفجير سيارة في هجوم لها على القاعدة الأميركية الرئيسية في منطقة الراين 8/ 8/ 1985 (جريدة هيرالد تريبيون. الطبعة الدولية 15/ 8/ 1985).

وهناك مجاميع أقل شهرة منها مجموعة اللواء الناري/ لويمن وقد قامت بحرب عصابات في كندا 1982 ومنظمة الجيش التحرري الأسود في الولايات المتحدة وقد حكم على العديد من ناشطيها بالسجن 1981 منهم ثلاثة بتهمة قتل درجة ثانية لشرطيين أثناء محاولة الاستيلاء على شاحنة مسلحة، وصرح أحدهم وهو كواسي مالاكون «بدون الارتباط بتنظيم جماهيري وتوجيه حرب نحو المضطهدين فإننا نصبح لاسلطويين بالاسم فقط. وبالنسبة لي سواء كنت في السجن أم في القبر حريّ بي ألا أعمل أي شيء غير قتال مضطهدي شعبي».

لقد ازداد الوضع تعقيداً بلا شك على أرض الواقع. وإذا كان مفهوماً أن الإرهاب جزء من تركيب الدول الرأسمالية ويتم تمويله من قبل حكومات وبنوك، وتصبح عصابات المافيا وكالات تجارية مجازة لأجهزة استخبارات تلك الدول. وقد نشرت التايمز اللندنية في 26/ 2/ 1970 أن المافيا في صقلية فتحت النار على النقابيين وفلاحي الكومونات (النظرية السياسية للاسلطوية ن.م. ص 41) من جهة، ومن جهة أخرى تعقد تلك الدول المعاهدات والمؤتمرات (مؤتمر مجموعة تريفي الأول في باريس 28/ 5/ 1987) لمكافحة

«الإرهاب» أيضاً وتصدر الولايات المتحدة قانوناً 1989 «لتصيّد» الإرهابيين مقابل مكافأة تصل إلى مليوني دولار مع الحفاظ على حياة المخبر وإخفاء هويته لأننا إزاء تصوّرين مختلفين حقاً للإرهاب.

ولكن غير المفهوم منطق اللاسلطويين عموماً: (فإذا كانت القوة سلطة ويقول ريد «القوة ضرورية فقط لإيجاد قيم لاعقلية» ضرورة السلام ـ هربرت ريد ط. ساسكاتون. كندا. بدون تاريخ ص 11 والكسندر بيركمان «العنف وسيلة الجاهل ووسيلة الضعيف، القوي في قلبه وعقله لا يحتاج إلى العنف، لأنه لا يجادل في أعماقه كونه على حق» ومالاتيستا «نحن معارضون في المبدأ للعنف ولهذا السبب نرجو أن يكون الكفاح الاجتماعي بإنسانية وبأكثر ما يمكن» حياة وأفكار أنريكو مالاتيستا تحرير فرنون ريتشاردز. مطبعة فريدم 1974 ص 81 فإن ذلك المنطق بالتالي يحتاج لتبريرات جديدة وأقوى مما ورد في الأقوال المقتبسة توّاً تلك.

(18) ص 90

إن نص عبارات لينين في الدولة والثورة غير المترجمة بدقة إلى العربية هي «اتفق ماركس مع برودون في نضالهما معاً من أجل ـ تحطيم ماكنة الدولة الحديثة. لا الانتهازيون ولا أتباع كاوتسكي يتمنون رؤية المماثلة في الآراء حول هذه النقطة بين الماركسية واللاسلطوية ـ برودون وباكونين معاً لأنهم ها هنا يفترقون عن الماركسية».

«إن النقد المعتاد من قبل الديمقراطيين الاجتماعيين للاّسلطوية في هذه الأيام قد اختصر إلى عامية مبتذلة بحتة: نحن نعترف بالدولة بينما اللاسلطويون لا يعترفون. طبيعي أن ابتذالاً كهذا لا يجدي بل ينفر العمال الذين لهم القدرة الكاملة على التفكير والحس الثوري... كان اللاسلطويون على حق في قولهم عن ديمقراطيين اجتماعيين كهؤلاء إنهم فاشلون في مهمتهم في توفير تعليم ثوري للعمال...».

«كتب بليخانوف كراسة خاصة عن علاقة اللاسلطوية بالاشتراكية عنوانها اللاسلطوية والاشتراكية نشرت بالألمانية 1894.. . تقع الكراسة في قسمين مميزين أحدهما تاريخي وأدبي ويحتوي على مادة قيمة عن تاريخ أفكار شترنر وبرودون وآخرين. والآخر عادي سطحي يحتوي على خطاب منفر عن شيمة أن اللاسلطوي لا يمكن تمييزه عن قاطع طريق» دار النشر باللغات الأجنبية. موسكو 1961 بالإنجليزية فصل 5 ص 24.

كتب لينين إلى سيلفيا بانخورست 28/ 8/ 1919 «عدد كبير من العمال اللاسلطويين يغدون اليوم أعواناً مخلصين للسلطة السوڤياتية ويبدو ذلك برهاناً على أنهم يصبحون أفضل رفاقنا وأصدقائنا، أفضل الثوريين الذين كانوا أعداء للماركسية من خلال سوء فهم وحسب، أو على الأصح ليس من خلال سوء فهم بل لأن الاشتراكية الرسمية المسيطرة في فترة الأُممية الثانية 1889 ـ 1914 خانت الماركسية وهوت إلى الانتهازية، حرّفت تعاليم ماركس الثورية على العموم، وتعاليمه عن دروس كومونة باريس 1871 على الخصوص».

وقد بلغ تأثر لينين في تلك الفترة بمواقف اللاسلطويين إلى درجة أن اتهمه بليخانوف بكونه واحداً منهم وذلك في مقالة نشرها في نيسان 1917 من وجهة نظر ماركسية سنية.

ومن غير المعروف لكثيرين أن بلخانوف نفسه كان هو واكسلرود من أتباع باكونين في منظمة جيرني بيرديل ـ الحاجز الأسود 1880 وارتدّا إلى الماركسية حيث شكل الأول أول منظمة ماركسية روسية في جنيف ـ تحرير العمل 1883 تحولت إلى الحزب الديمقراطي الاجتماعي الروسي 1898 وحين حصل الانشقاق الكبير فيه انضم الاثنان إلى المناشفة 1903 وظل اكسلرود متأثراً بمبادئه اللاسلطوية الأولى وخاصة بالنسبة للتنظيم الحزبي (يراجع خطوة إلى الأمام بهذه الخصوص) وكان شعار المناشفة: منظمة ليس لها شكل معين وأعضاء غير مسجلين وحد أدنى من التنظيم الواسع جداً بحيث يضم البلاشفة

والثوريين الاشتراكيين واللاسلطويين مع ممارسة الديمقراطية المباشرة. وكان هذا يعني بنظر البلاشفة حل الحزب الواحد (يراجع ما العمل).

ظل تأثير باكونين من هذه الناحية شديداً في الشعبيين والمناشفة وحتى البلاشفة بدليل أن لينين خاطب المؤتمر الثالث للحزب في 16/ 3/ 1921 «هناك انحراف يساري محدد في أوساط حركة الطبقة العاملة الثورية العالمية، إن الانحراف الذي ندرسه يتطابق مع الانحراف اللاسلطوي لحزب العمال الشيوعي الألماني. النضال ضد ما كان قد انتشر بوضوح في المؤتمر الأخير للأُممية الشيوعية» وكان مؤتمر الأُممية الشيوعية هذا قد انعقد في لينغراد 19/ 3/ 1920 وحضره أكثر من مائتي وفد عن الأحزاب الشيوعية والمنظمات العمالية في 37 بلداً. وجاء في قرار المؤتمر الثالث للحزب الذي أعدّه لينين بنفسه «إن انحرافاً سندكالياً ولاسلطوياً قد انتشر في حزبنا في الأشهر الماضية» اللاسلطوية والسندكالية اللاسلطوية ن.م. ص 333.

وكتاب بليخانوف مترجم إلى الإنجليزية بعنوان الماركسية واللاسلطوية من قبل ابنة ماركس ـ أليانور ماركس ايفلنج ومطبوع في شيكاغو 1918 وهو غير متوفر في المكتبات الغربية العامة غير المخصصة للمدرسيين.

(19) ص 91

تمثل السندكالية الخط الرئيسي للنشاط اللاسلطوي في العالم اليوم. والنقابة هي كما يقول المناضل الطبقي الفرنسي فرناند بيلوتير 1895 «رابطة أنت حر في الانتماء إليها أو الخروج منها، بدون رئيس ولها موظفان وحيدان: سكرتير وأمين صندوق يمكن صرفهما من الخدمة في أي وقت» وهدف السندكالية ـ اللاسلطوية هو الشيوعية التحررية كما تقرر في مؤتمرها العالمي ببرلين 1921 «إعادة تنظيم المجتمع على أساس الشيوعية التي يمكن تحقيقها بواسطة العمل الثوري للطبقة العاملة نفسها، المنظمة الاقتصادية للعمال وحدها وليست الأحزاب السياسية تستطيع تحقيق هذه الأهداف» صحيفة العمل المباشر. ليدز تموز 1985.

أزالت مثل هذه المفاهيم الالتباس الذي قام في أواخر القرن الماضي حول اتحادات نقابات العمال (تريديو نيونس) وضرورة تمييزها كشكل من أشكال التنظيم الصناعي عن السندكالية كمضمون جوهري للنضال الاقتصادي وشكلها الرئيسي مجالس العمال. ولا ينكر أن أفراداً من اللاسلطويين لا زالوا يحملون للآن وجهة نظر سلبية في التريديونيونية (كمثل أكثر قادة الاشتراكية ومنهم لينين) وحتى السندكالية مثل ريتشاردز في نقاشه مع جورج وود كوك (يراجع استحالة الديمقراطية الاجتماعية ـ فرنون ريتشاردز. مطبعة فريدم 1978 ص 107) والكاتب الصقلي بونانو في كتابه: نقد الأساليب النقابية ـ اتحاد نقابات العمال إلى السندكالية اللاسلطوية ترجمة: جان دير ط. براتاج دوبه. جلاسجو 1977 حيث يدعو إلى إحلال مجاميع عمالية ثورية صغيرة تقوم بأنشطة التخريب والإضراب محل السندكالية حتى ولو كانت لاسلطوية لأنها بيروقراطية وفي خدمة قيادات سيئة.

من أساليب السندكالية في العمل: الإضراب العام وقد أرجع أنجلز في كتابه أحوال الطبقة العمال في إنجلترا أصوله إلى الجارتيين 1839 وكان برودون يرى الإضراب عملاً بربرياً وأضفى عليه جورج سوريل هالة من التقديس. إلا أن الحماس له قد خف كثيراً وانتعش قليلاً أثناء إضراب عمال المناجم في إنجلترا 1984 (افتتاحية صحيفة العمل المباشر. ليدز 9/ 1984) وإضراب عمال الخدمات في ألمانيا نيسان 1992. والمواطنين السود في جنوب إفريقيا يومي 3 و 4/ 8/ 1992.

(والعمل المباشر) وهو اتخاذ مواقف آنية محددة وليست مناهج عامة جامدة لضرب النظام الرأسمالي وعبودية الأجر والنضال ضد الاضطهاد وحتى لو كان اضطهاد رجل واحد واستخدام مقاييس مضادة بمعزل عن السلطة مثل توزيع اللا ـ سلع والسيطرة الديمقراطية المباشرة في أوسع أجزاء ممكنة من المجتمع بتعميم التسيير الذاتي للحياة اليومية. ومما يذكر أن هذا الأسلوب

طبق خلال الانتفاضة الفلسطينية 1987 فصاعداً كما نقلت الأنباء عن جريدة حدشوت أحرنوت الإسرائيلية 10/ 1/ 1989.

ومن أساليب السندكالية أيضاً (العصيان) واحتلال المدارس والمصانع وغزو القواعد العسكرية والتخريب الصناعي «حتى أو كسر أنياب الرأسمالية» أو «مسحوق البارود من غير دخان للحرب الطبقية، على أن ينهش السلطة ولا يهدف إلى الحصول عليها» وهذا هو الفارق في اتباع هذه الأساليب من قبل اللاسلطويين وغيرهم. ويكون التخريب الصناعي بالتباطؤ أو إفشال أو تعطيل آلات الإنتاج وقد بادر بتنظيره اللاسلطوي الفرنسي إميل بوجيه في العقدين الأخيرين من القرن الماضي.

وأسلوب آخر هو (العون المتبادل) وقد استخدم من قبل لجان دعم إضراب عمال المناجم في إنجلترا وعمل كولن وارد في بعض منها (والمقاطعة) كما حصل عندما قاطعت الجماهير في إنجلترا بشكل دعائي بضائع جنوب إفريقيا، والعمال الأجانب في ألمانيا الغربية التعامل بالنقد.

يراجع عن العمل المباشر:

- مبادىء العمل المباشر وتنشر بصيغة ثابتة في كل عدد من أعداد صحيفة العمل المباشر الإنجليزية.
- العمل المباشر في الصناعة ـ حركة العمل المباشر ط. العمل المباشر. ليدز 1983 كراس يوضح الأساليب والدروس من بولندا، فرنسا، إيطاليا وإنجلترا.
- كتابات حول حركة العمل المباشر السندكالية اللاسلطوية لمجموعة كتّاب منهم رولف روكر وألبرت ميلتزر ط. العمل المباشر. ليدز 1983.
- التخريب الصناعي: دراسة في الصراع الصناعي ـ جيوف براون. كتب سبوكسمان إنجلترا 1977 والمؤلف أستاذ في جامعة نوتنجهام ويعرض الموضوع من وجهة نظر ليبرالية ويصل بالوقائع إلى أحداث بولندا 1976.

إن أهم المنظمات السندكالية اللاسلطوية في العالم اليوم حركة العمل المباشر في إنجلترا منذ 1979 ويو. أس. آي. في إيطاليا منذ 1920 وكانت الشرطة قد وجهت حملة ضدها في نيسان 1984 بتحطيم أثاث مقرها العام واعتقال الموجودين فيه وإغلاق صحيفتها (لونا دي دي كلاس) وسي. أن. تي في إسبانيا منذ 1910 وكان عدد أعضائها سبعمائة ألف سنة 1919 وأصبح مليوناً ونصف سنة 1934 ومليونين سنة 1937 وإلى جانبها إف. آي. أي الاشتراكية اللاسلطوية منذ 1926 وضمت ثلاثين ألف عضواً سنة 1936 ومائة وخمسين ألفاً سنة 1938.

لم يتوقف نشاط اللاسلطويين عموماً وأعضاء هاتين المنظمتين الإسبان داخل وخارج إسبانيا بعد الفترة الزمنية التي بحثها كتاب غورين. إذ حاربوا ضد النازية خلف الخطوط الألمانية في أوكرانيا ومع المقاومة في فرنسا وشمال إفريقيا وانشقوا إلى قسمين سنة 1945 ولم يتوحدا ثانية حتى سنة 1961 ومن تضحياتهم في هذه الفترة: إعدام أمادو فرانكو وأنطونيو لوبير آذار 1947 في إسبانيا واعتقال المناضل الطبقي الأرجنتيني راوول كاربليرا وكان قد اعتاد على الدخول إلى إسبانيا خلسة لإدارة فعاليات مجاميع سي. أن. تي واغتياله في حزيران 1948 وإعدام ثمانية مناضلين أحدهم ماركوس مادال بتهم تشكيل السكرتارية العامة للمنظمة شباط 1949 وفي نفس السنة اصطدمت الشرطة في برشلونة مع عدد من مناضلي المنظمة وقُتل من بينهم أثناء الاصطدام جوزيه ساباني واعتقل آخرون حكم عليهم بالموت وفي شباط 1950 أعدم مانويل ساباتي لوبارت في سجن برشلونة.

في شباط 1951 حكم مجلس عسكري على 30 من مناضلي المنظمة منهم 11 بالموت وفي 14/ 11/ 1951 سجن 75 من أعضائها في سجن سيفال بتهمة إعادة تنظيم الاتحاد العمالي ومساعدة مقاتلي العصابات وحكم بالموت على أنطونيو تونيز ودايونزيو رويدا وبالسجن على الآخرين. في 30/ 8/ 1957 اغتيل جوزيه لويس فاسيرياس من قبل الشرطة في برشلونة.

وفي سنة 1960 أعيد توحيد منظمة إف.آي.جي. أيل. فدرالية ايبريا للشباب التحرري وساهمت فروعها في المكسيك وفنزويلا في الحملة ضد نظام فرانكو. وفي نفس السنة اغتيل فرانسيسكو ساباتي بعد أن قاد حرب عصابات طويلة (يراجع: ساباتي: مقاتل عصابات استثنائي ـ أنتونيو تيليز. مطبعة سنيفيو جوس 1975 وفيه أيضاً تفاصيل تاريخ حركة المقاومة اللاسلطوية السرية في إسبانيا سنوات 1945 ـ 1960) وأما نشريات ومظاهرات وهجومات هؤلاء على مؤسسات فرانكو في الخارج فلا تعد ولا تحصى.

في 18/ 8/ 1963 أعدم جواكين ديلكادو مارتينز المناضل الطبقي في إف.آي.جي في سجن كارابانجيل بمدريد لتنظيمه محاولة اغتيال جزار إسبانيا السابق. وفي 28/ 10/ 1966 أعلن عن محاولة المنظمة لاختطاف نورمان. جي. جيلني قائد القوات الأميركية في إسبانيا واعتقل 5 أعضاء.

سارت منظمة عمال العالم الصناعيين آي.دبليو.دبليو التي تأسست في الولايات المتحدة سنة 1905 في الاتجاه اللاسلطوي بمعاداة التعاون الطبقي والعمل السياسي وقيادة الحزب ودكتاتورية البروليتاريا، وقامت بعدة إضرابات جماعية ناجحة وعارضت سياسة الفدرالية الأميركية للعمال وبقيت على هذا المنوال حتى نهاية ح.ع.أ.

وتشكلت رابطة العمال الأُمميين آي دبليو آي في برلين 22/ 12/ 1922 بعد انسحاب ناشطيها من الأُممية الحمراء لنقابات العمال (برومترن) بسبب ارتباط نقاباتها بالأحزاب السياسية، وحضر مؤتمرها الأول ممثلون عن مليون عضو في إيطاليا والأرجنتين والبرتغال وشيلي والنرويج والدانمارك والمكسيك وهولندا والسويد وألمانيا وفرنسا وروسيا وبعد عدة تنقلات استقرت منذ سنة 1939 ولحدّ الآن في استوكهولم ولها فروع في 15 دولة.

(20) ص 109

بشأن موقف تروتسكي المتذبذب هو الآخر من اللاسلطويين، وكما كان

ديدنه في مواقف أخرى داخل الحركة الثورية الروسية قبل وبعد ثورة أكتوبر (كان منشفياً ثم أصبح من المركزيين وهم فئة بين البلاشفة والمناشفة في أواخر سنة 1904 ولم يدنُ من البلاشفة إلا في أواخر سنة 1915 والتحق بحزبهم في أيلول 1917 كما يذكر مؤرخه إسحق دويتشر) نورد هذه الواقعة التي سجلها غورين في كتابه «لا إلٰه ولا سيد» عن لسان فولاين:

«في نيسان 1917 التقيت برتوتسكي ثانية ـ كان أحدنا يعرف الآخر في روسيا ثم في فرنسا حيث جرى نفينا في سنة 1916 والتقينا في محل للطبع. . . فقلت لتروتسكي: حقيقة أنا متأكد تماماً بأنكم ماركسيو اليسار ستنتهون إلى الاستيلاء على السلطة في روسيا، أمر محتوم. . . النقابيون واللاسلطويون ضعاف جداً في روسيا، حتى يتمكنوا من جذب اهتمام العمال إلى أفكارهم سريعاً ومن ثم. . . الصدام بينكم وبيننا لا يمكن تجنبه وستبدأون باضطهادنا حالما تتركز سلطتكم وسوف تنهونا بالرمي بالنار كالحجول».

«فأجاب تروتسكي: لك خيال قوي وفاسد، هل تظن أننا حقاً منقسمون؟ إنها مجرد مسألة أسلوب وهي ثانوية تماماً. أنتم ثوريون مثلنا ونحن لاسلطويون مثلكم في التحليل الأخير، والفارق الوحيد هو أنكم ترغبون في إقامة لاسلطويتكم فوراً وبدون فترة تهيؤ انتقالية، بينما نحن الماركسيين لا نؤمن بإمكانية القفز بطفرة إلى عالم الرفاهية المطلقة التحررية. . . في النهاية إنه يحتوي على ظل خلاف وحسب ولا شيء أكثر، وعلى العموم فنحن متقاربون جداً الواحد للآخر، نحن رفاق في السلاح تذكر لنا الآن عدو مشترك لنحاربه، كيف يمكننا أن نفكر في القتال فيما بيننا؟ الأكثر ليس لديَّ شك في أنكم سوف تقتنعون عاجلاً بضرورة دكتاتورية اشتراكية بروليتارية مؤقتة. لا أرى أيّ سبب حقيقي للحرب فيما بينكم وبيننا. سوف نسير يداً بيد بالتأكيد. ثم حتى لو لم نتفق فأنت مخطىء كلياً في الظن أننا الاشتراكيين نستخدم القوة الوحشية ضد اللاسلطويين، إن الحياة نفسها وحكم الجماهير سيحل هذه

المشكلة ويضعنا في اتفاق كلا! هل تستطيع حقاً النطق للحظة واحدة بهراء كهذا. اشتراكيون في السلطة يرمون لاسلطويين بالنار؟».

«. . . في كانون الأول 1919 وأنا مريض جداً اعتقلت من قبل السلطات العسكرية البلشفية من منطقة ماخنو من أوكرانيا معتبرين إياي محارباً مهمّاً. أخبرت السلطات تروتسكي باعتقالي ببرقية خاصة وطلبت التعليمات بشأني. فورد الجواب ببرقية أيضاً. وصلت سريعة واضحة مقتضبة: ارموه بالنار فوراً ـ تروتسكي» مترجم إلى الإنجليزية في صحيفة نيوزفروم ناووير. مونتريال. حزيران 1973.

لم يشفع كل هذا وغيره كثيراً لتروتسكي من أن ينتهي بعد عشرين سنة تقريباً ضحية من ضحايا القمع واللاتسامح الشرسين اللذين كان هو من أوائل الذين بزورهما على أرض أول دولة اشتراكية في العالم.

(21) ص 109

ينقل المؤلف العدد 25.000 من جريجوري ماكسموف وهو يضيف إنه كانت هناك صحف في مدن الأقاليم أيضاً مثل ساراتوف، كرونشتادت باروسلافل، سامارا، أوديسا، كيف وغيرها (النقابيون في الثورة الروسية ـ ج. ماكسيموف نشرة الفدرالية الشيوعية اللاسلطوية لشمالي أميركا. كندا 1979 ص 3 وهو مجتزأ من المرجع رقم 130 في البيلوغرافيا).

إن أول صحيفة لاسلطوية صدرت باللغة الروسية هي أولشجيتا 1878 وتبعتها هليب آي فوليا ـ جنيف 1903 وساهم فيها كروبتكن. وكانت تصدر في تفليس وحدها: موشا (العامل) يومية 1906 وخما (الصوت) يومية 1906 وناباتي (النداء) أسبوعية 1916 وأول صحيفة بعد الثورة مباشرة كولوس ترودا (صوت العمال 9 يومية أصدرها اتحاد الدعاية النقابية اللاسلطوية في سنت بطرسبرج ثم انتقلت إلى موسكو.

(22) ص 110

نفذت مجزرة 12/ 4/ 1918 بقيادة الفاشي الأحمر بيلا ـ كون الذي أصبح دكتاتور هنغاريا لفترة قصيرة فيما بعد.

(23) ص 119

وردت عبارة إيدا ميت ـ وهي تكتب من وجهة نظر لاسلطوية في الصفحة 12 من كتابها «انتفاضة كرونشتادت 1921» بدون اسم المترجم إلى الإنجليزية ط. سوليدارتي. لندن 1967 ولكنها ذكرت بعدها» من المؤكد أنه كان هناك بين أعضاء اللجان الثورية المهنية وبين أهالي كرونشتادت عموماً أفراد يدعون أنفسهم بلاسلطويين، ولكن ليس هناك تدخل مباشر من مجاميع لاسلطوية» ص 59.

ومن المعلوم أن أناتول ريفج جيليزنياكوف المذكور في صفحة 81 من متن هذا الكتاب كان قائد بحارة كونشتادت عندما دخل الجمعية التأسيسية وفرّق أعضاءها.

(24) ص 120

يقصد المؤلف جورج وود كوك (المرجع رقم 93) سار المشيعون في موكب طوله خمسة أميال. إلا أن روجرن. بالدوين (وقد بقي عدة أشهر ضيفاً على أرملة كروبتكن ـ وهي من أسرة يهودية كما وزار الاتحاد السوفياتي 1967) يقدر العدد بعشرين ألف (مقدمته للمصدر رقم 88) ويورد هو ونيكولاس والتر (مدخل طبعة دوفر للمصدر ذاته) المعلومات الإضافية التالية:

شيع جثمان كروبتكن من بناية اتحاد نقابات العمال في موسكو وكانت وفاته في بلدة ديمتروف القريبة منها، وعرضت الحكومة السوفياتية تشييعاً رسمياً إلا أن عائلته رفضت ذلك. وألقيت على قبره كلمات لإيما غولدمان وممثلين عن السجناء السياسيين، جماعة تولستوي، المنظمات العلمية والعمالية، الشباب الثوريين الاجتماعيين وعن الحزب الشيوعي السوڤياتي.

كانت الحكومة السوڤياتية قد عرضت عليه شراء حقوق كتابه «الثورة الفرنسية الكبرى» ليصبح مقرراً في المدارس السوڤياتية إلا أنه لم يوافق لكون

العرض صادراً من حكومة. وحولت الحكومة الدار التي ولد فيها بموسكو إلى متحف بقي لحين وفاة زوجته 1938 وأطلقت اسمه على مواقع عديدة في روسيا هي: الزقاق الذي ولد فيه وشارع وساحة صغيرة ومحطة مترو في موسكو وبلدة كبيرة في القوقاز وأخرى صغيرة في سيبيريا وسلسلة جبال في سيبيريا أيضاً كان أول من اجتازها كمكتشف جغرافي 1866 وربما يُرى ضريحه لحد الآن في دير نوفو ديفيشي قرب موسكو.

يقول بالدوين «وجدته محترماً أكثر من أي روسي آخر عدا قادة الحزب في الوطن الذي ولد فيه» ووجه احترامه كثوري وعالماً جغرافياً مع أن مؤلفاته كانت معدومة في المكتبات كما لمسنا ذلك أثناء زيارتنا للاتحاد السوفياتي سنتي 1973 و1976.

(25) ص 128

أعلنت اللجنة الثورية المركزية في إقليم باڤاريا جمهورية مجالس/ سوڤياتات ليلة 7/ 4/ 1919 بغالبية 234 صوت ضد 70 وكان الشيوعيون الماركسيون من ضمن المعارضين بحجة عدم نضوج الظروف السياسية والاقتصادية. ولم تدم الجمهورية السوڤياتية إلا أقل من شهر. كان للاسلطويين دور رئيسي فيها ومن ناشطيهم ايرك موهسام (1878 ـ 1934) وهو ألماني من أسرة يهودية وممن يعتقدون أن لينين سيوفّق ما بين اللاسلطوية والماركسية وظل على هذا الاعتقاد حتى اعتقاله بعد حريق الرايخشتاج الشهير واغتياله من قبل النازيين في السجن وقد ادعوا أنه انتحر ويعتبره الشيوعيون لأغراض دعائية «رفيق سفرهم» ونشروا له كتابات مختارة في موسكو 1960 وكان مؤلف أشعار ومسرحيات وكتاب «تحرير المجتمع من الدولة: ما هي اللاسلطوية الشيوعية؟» المنشور في برلين 1932 رحلت زوجته بعد اغتياله إلى موسكو واعتقلت هناك بسبب تصريحاتها اللاسلطوية وأرسل توماس ان طلب مساعدة لها إلى رئيس رابطة الكتاب الروس 1936.

ومنهم أيضاً الكاتب الألماني اليهودي الأسرة الآخر جوستاف لاندوير وقد اغتيل هو الآخر بشكل مثير للأسى، وله كتاب «نداء الثورة: اللاسلطوية الصوفية» مطبعة جامعة ديني ديترويت 1971 إلا أن تحمسه للتقاليد الشعبية اليهودية جعله قريباً من التطلعات الصهيونية.

والكاتب ريت ماروك المشهور باسمه المستعار بـ. ترافين (1882 ـ 1969) ومن رواياته المطبوعة لدى بنجوين: المسيرة إلى كاوبلاند وجنرال من الأحراش وجسر في الأحراش ولدي بانثر سفينة الموت وكنز سيرامادرا.

إن اشتراك هذا العدد من الكتاب والمثقفين في سوڤيات باڤاريا يجيز لنا إطلاق اسم سوڤيات المثقفين عليه، من أن عدد المشاركين منهم في الثورة الإسبانية كان أكبر ومن كافة أنحاء العالم، ولكن عند أخذ البقعة الجغرافية لكل منها بعين الاعتبار.

(26) ص 137

للاسلطويين منهم خاص للجريمة والمجرمين ومنذ 1649 قال ونستانلي مفكر حركة الحفارين الشيوعية اللاسلطوية إن مصدر الجرائم هو اللامساواة الاقتصادية وإن حماتها يدفعون بالناس إلى ارتكاب الأعمال الشريرة ثم يقتلونهم بسببها، «وقدّر إدوار كاربنتر أن خمسة أسداس الجرائم تكمن في عدوانية حقوق الملكية ولكن هذا رقم هابط جداً. إن تحرّياً شاملاً سيبرهن على أن تسع جرائم من عشر يمكن تعقب آثارها مباشرة أو غير مباشرة في ظلمنا الاقتصادي والاجتماعي «اللاسلطوية ومقالات أخرى ـ إيما غولدمان ن.م.ص 116.

وإن كانت هذه هي أسباب الجريمة فإن علاجها لن يكون بالسجن والعقاب فإن «الخوف من العقاب لم يوقف قط قاتلاً واحداً» «ولا حاجة للشعب الحرّ إلى سجون، وحيثما توجد سجون فالشعب ليس حرّاً» لذا «هذا الضعف الهائل مما يسمى بالجرائم والجنح سيختفي في اليوم الذي توقف فيه

الملكية الخاصة عن الوجود» كروبتكن 1886 ويستنتج من هذا أن المجرم ضحية النظام الاقتصادي وأن تصرفه رد فعل لهذا النظام، وهذا ما دعا العديد من اللاسلطويين إلى اعتبار الخارجين على القانون حلفاء لقضية الثورة ما داموا يحتقرون قيم المجتمع الكائن، وهذا هو سبب الإعجاب الدفين للطبقات الشعبية لهؤلاء وكما نلقاه في الحكايات والقصص الفولكلورية. وإذا كان الاشتراكيون يتفقون مع اللاسلطويين في تفسيرهم لدوافع الجريمة إلا أنهم يختلفون معهم في النظرة إلى مرتكبيها فمثلاً إن أنجلز انتقد إجراء كانتون مدينة كارتاجينا في إسبانيا بإطلاق سراح 1800 من القتلة واللصوص المحكومين وذلك أثناء انتفاضة 1873 بينما رأى جوهان موست (1846 ـ 1906) مناضل ألماني من أسرة يهودية كان على صلة ودّيّة مع ماركس نفى أنجلز استمرارها بعد تحوله التام إلى اللاسلطوية حيث تبنى اتجاه العنف، أن ما دام كل عمل إجرامي هو ثمرة حتمية للمجتمع القمعي القائم لذا فإنه يشخّص لاسلطوياً متوحشاً في كل مجرم، كما وضع كتاباً عن كيفية صنع القنابل وأجاز السطو والحرق وصنع السموم والمتفجرات لصالح القضية رغم أنه شخصياً لم يستعمل أيّاً من هذه الوسائل.

مرجعان عن الموضوع:

- النضال لكي تكون إنساناً: الجريمة وعلم الإجرام واللاسلطوية ـ لاري تفت ودنيس سوليفان. مطبعة سينفيوجوس 1980.
- القانون واللاسلطوية تحرير توم هـ. ليترمان. كتب الوردة السوداء. مونتريال 1984.

(27) ص 142

يصف فريدريك أنجلز 1873 برشلونة «أكبر المدن الصناعية في إسبانيا والتي شهدت حرب متاريس أكثر من أية مدينة أخرى في العالم».

(28) ص 143

كاميلو بيرنيري مثقف إيطالي عاش في إسبانيا في فترة الثورة وعقّب على حكومة الجبهة مقتبساً تعليقاً بارعاً لعامل قطالوني «إنها دوماً الكلب القديم بطوق جديد» وكان من دعاة إحلال التشكيلات العمالية محل الحكومة وهي الفكرة التي تعاطف معها تروتسكي في كراس نشر بعنوان «دروس من إسبانيا» في لندن 1937 كما دعا إلى منح مراكش الاستقلال تمهيداً لإثارة العصيان في جميع أرجاء شمال إفريقيا ضد الرأسمالية الغربية متزامناً مع العصيان ضد النظام البرجوازي في إسبانيا. وفعلاً حاول وطنيون من مراكش التفاهم مع الحكومة الإسبانية لتزويدهم بالأسلحة والمعدات إلا أنهم قوبلوا بالرفض واقتُرح عليهم التنازل عن بعض أجزاء من شمال إفريقيا لفرنسا وإنجلترا في محاولة لكسب معونتهما. والحقيقة أن سبب عدم اعتراف حكومة الجبهة في إسبانيا باستقلال مراكش (ولو تحقق ذلك لما استطاع فرنكو من استقدام المغاربة لضرب الثورة وكان ذلك هو العامل الرئيسي لفوزه) يعود إلى عدم رغبتها في إقلاق حكومة الجبهة الشعبية (التي تضم الشيوعيين أيضاً كما في إسبانيا) في فرنسا وهي تحتل أجزاء أخرى من شمال إفريقيا.

قتل بيرنيري مع رفيقه بوربيري داخل مركز شرطة برشلونة 1937 بيد شيوعيين إيطاليين وبأمر من زعيمهم بالميرو توغلياتي. وله بالإنجليزية إضافة إلى المرجع رقم 84 في الببليوغرافيا كتاب «الحرب الطبقية» منشورات ريفراكس. كمبردج 1984 ويضم مختارات من كتاباته. وكانت ابنته ماريا لويز بيرنيري (1918 ـ 1949) زوجة فرنون ريتشاردز كاتبة أيضاً ونشر لها عدة كتب منها لا شرق ولا غرب 1952 والعمال في روسيا الستالينية 1944 وجولة من خلال اليوتوبيا. مطبعة فريدم 1984 ويتناول كتب اليوتوبيا منذ عهد الإغريق إلى الوقت الحاضر وساهمت في تحرير صحيفة فريدم الإنجليزية منذ 1945 حتى وفاتها شابة.

تشبه مشاركة اللاسلطويين في الحكومة الإسبانية اشتراك برودون في انتخابات الجمعية التأسيسية الفرنسية بعيد الثورة 1848 حيث خاب في حملة شهر

نيسان وفاز في حملة شهر حزيران (آزره فيها الشاعر تشارل بودلير مع ما عرف عنه من ابتعاد عن السياسة والذي امتدحه الشاعر ت.س. إليوت من أجل هذا الابتعاد) رغم عدائه الشديد لكل عمل سياسي وهي إحدى مفارقاته العديدة.

أرجعت وزيرة الصحة فيدريكا مونتسيني سبب الاشتراك في الحكومة إلى «منع الثورة من الانحراف ولكي يحملوها على المضي إلى أبعد... ما وراء الحرب، وكذلك لمعارضة أي ميل للدكتاتورية ربما يجيء من أية جهة» كما واعترضت إيما غولدمان بعد عودتها من إسبانيا على التشدد في انتقاد تلك الخطوة زاعمة «تركت رفاقنا بين خيارين فقط: إما الدكتاتورية أو المساهمة المباشرة في الحكومة» متجاهلة أن لا فرق بين الاثنتين!

(29) ص 144

إن اجتماع كل القوى السلطوية الكبرى في العالم آنئذ (الاشتراكية الستالينية، الرأسمالية البريطانية، ألمانيا الهتلرية، الفاشية الإيطالية والفاتيكان البابوية) على وأد الثورة اللاسلطوية في إسبانيا 1936 ليس عرضياً فهي جميعاً تجد في هذه الثورة وحدها نهاية لطغيانها. وقد كتب بيير فان باسن في جريدة تورنتوستار أيلول 1936 «أنا لا أتوقع أية مساعدة لثورة تحررية من أية حكومة في العالم» قارىء اللاسلطوية تحرير جورج وود كوك. ط. فونتانا الرابعة 1983 ص 243 وصرح المقاتل اللاسلطوي المعروف في الثورة دورتي لمراسل صحيفة مونتريال ستار 30/ 10/ 1936 «لا أتوقع عوناً من أية حكومة في العالم».

مثال معاصر جداً: صرح مستشار ألمانيا الغربية هولمت شميدث اليهودي الجد 18/ 10/ 1977 أن حكومته تلقت مساعدات بشأن هجوم الفرقة الألمانية الخاصة على طائرة الخطوط الجوية لوفت هانزا المختطفة من قبل مجموعة ثورية لاسلطوية في مطار مقاديشو في 17/ 10/ 1977 من الولايات المتحدة، والاتحاد السوڤياتي، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا الديمقراطية، اليونان، الصومال

والمملكة العربية السعودية، وقبل ذلك رفضت حكومات عربية تدعي التقدمية طلب الخاطفين هبوط الطائرة في بلادها!

(30) ص 144

الحرب ظاهرة اجتماعية قديمة جداً يربط الكثيرون بينها وبين ما يسمونه بالميول العدوانية للإنسان، وينوه البعض بمزاياها التي تزيد على مساوئها ويشيد الفاشست بها باعتبارها الفضيلة الكبرى وموئل الشجاعة والتحقيق المثالي لإرادة القوة، ولكن إرادة القوة في الإنسان هي إرادة الوعي والتحدي وليست إرادة الحرب والاقتتال وإلا لصحّ أن تكون الدعارة التعبير الأمثل عن الحب.

وجوهر النظام الرأسمالي هو في هذا الاتجاه أيضاً، وقد عبّر كينز عن ذلك بأسلوب مهذب «نظرية الرأسمالية هي تسيير نزعات الإنسان الخطرة في قنوات» النظرية العامة للعمالة، الفائدة والنقود ـ جون ماينارد كينز ط. ماكميلان. لندن 1936 ص43 وتفسير ذلك في قول الكاتب الماركسي الإنجليزي أيتون «تضاعف الأزمات الدوافع السياسية والاقتصادية وتقود الرأسماليين الاحتكاريين إلى معالجة الخسارة في فائض القيمة التي تسببها الأزمات بواسطة سباق التسلح المتصاعد باستمرار» ماركس ضد كينز ـ جون أيتون ط. لورنس ووشارت. لندن 1951 ص 127 وقد سبق وقالت إيما غولدمان: إن النزعة العسكرية هي الحصن الأكبر للرأسمالية.

في أول الأمر نصح المجلس المركزي للأُممية برئاسة ماركس العمال في حزيران 1866 بالوقوف على الحياد في الحرب النمساوية ـ البروسية. إلا أن ماركس أيّد حرب ألمانيا ضد فرنسا 1870 ـ 1871 من موقف لامبدئي. كتب إلى أنجلز 20/ 7/ 1870 «إذا ما ربح البروسيون فإن تمركز سلطة الدولة سيكون مفيداً لتمركز الطبقة العاملة الألمانية، يضاف إليه أن هيمنة الألمان ستنقل مركز ثقل حركة الطبقة العاملة الأوروبية من فرنسا إلى ألمانيا... هيمنة الطبقة العاملة الألمانية على الفرنسية في المسرح الدولي تعني أيضاً هيمنة نظريتنا على

نظرية برودون» لذا لام ثوميوكس، الصديق الوطني النزعة لبلانكي كلامن ليو فرنكل ويوجين فرلن اللاسلطويين وعضوي الأُممية الأولى والمجلس المركزي لكومونة باريس بسبب وقوف رفيقهما في الأُممية ماركس البروسي إلى جانب بسمارك البروسي» وحث أنجلز الاشتراكيين الألمان سنة 1891 على الدفاع عن «الوطن» في حالة نشوب الحرب ضده، وانقسم الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني (ماركسي) في المؤتمر السابع للأُممية الثانية في شتوتغارت 1907 إلى أغلبية (بضمنها أوغست بيبل) تؤيد وجوب الدفاع عن ألمانيا ضد هجوم خارجي عليها وأقلية عارضت ذلك مستندة على مبدأ أن ليس للبروليتاريا وطن وأن هناك علاقة سببية ما بين العسكرتاريا والرأسمالية ودعت إلى العصيان.

إلا أن لينين خرج برأي غريب لم يكن مطلوباً في النقاش الدائر وهو (خلافاً لرأي الأقلية) إن على البروليتاريا إما أن تعلن الثورة أو أن البرجوازيين يحطمون عصيانها. ثم نشر في مستهل كتابه «الاشتراكية والحرب» 1915 نظرية «دراسة كل حرب على حدة» لأن هناك حروباً تقدمية وأخرى رجعية مما أوقع الماركسيين من أتباعه في هرج ومرج لم يتخلصوا منه لحدّ الآن، ومن الأمثلة الأكثر معاصرة موقفهم من الحرب العراقية الإيرانية.

ظل الخط الدائم للاسلطويين معاداة الحرب بين دولتين أيّاً كان نوعها وأسبابها وغاياتها وزمانها ومكانها (وهي غير الحرب الطبقية بالطبع) مصدقين بمقولة كارليل «الحرب عراك بين لصَّيْن» وقد قال المناضل اللاسلطوي راندولف بورني: «الحرب عافية الدولة» وكما كتبت الكاتبة الماركسية الفرنسية سيمون ويل (غير مقتنعة بنظام الاتحاد السوفياتي وساهمت في الثورة الإسبانية 1936 وتوفيت 1941) في مقالة 1938 «حرب دولة ضد دولة أخرى تحوّل نفسها إلى حرب الدولة وجهازها العسكري ضد شعبها بالذات» ولا بد أن ننوه بخروج عدد من اللاسلطويين من الجيل الماضي في مواقف معينة على هذا الإجماع مثل كروبتكن وجان جريف وجيركيسوف بتأييدهم الحلفاء في الحرب العالمية الأولى وهربرت ريد وجورج أورويل في الحرب العالمية الثانية.

ولهذا السبب لم يُجد اللاسلطويون في إسبانيا «إخراج» الحرب النظامية الشمولية باستثناء بيوما أفيتورا دورتي قائد اللواء المشهور باسمه (قُتل هو الآخر في الجبهة) وهم يرفضون مبدأ وجود جيش ثابت (مأجور = أول جماعة بشرية مأجورة في التاريخ تبعاً لماركس) منذ كومونة باريس التي كان اللاسلطوي جوستاف بول كلوسرت عضواً للمجلس المركزي أول مندوب للحرب لها وظل متمسكاً بمبدأ الحرب اللانظامية وقد اعتمد لينين في مقالته عن الكومونة سنة 1905 على كتابه «ذكريات» 1877 عن حرب الشوارع في الأسبوع الأخير الدامي لكومونة باريس مثلما اعتمد ستالين بصورة رئيسية على تاريخ اللاسلطوي أرثر أرنولد أستاذ السوربون وعضو المجلس المركزي تغلغلت الفكرة في الفكر الاشتراكي الفرنسي من بعد وخاصة بعد أن تبين أن الجيش الثابت أداة للقمع الداخلي كما في سنوات 1848 و1871 وللمغامرات الخارجية كما في الجزائر والمكسيك وتبنى ذلك مثلاً حزب جوريس سنة 1880 وجان جورنيس في كتابه الجيش الجديد ويطالبون بتسلح العمال لدفاعهم الذاتي وضد عدو قريب مكانياً وزمانياً وهم غير منقطعين عن العمل الاعتيادي وخلال فترات التحول الاجتماعي. وقد كانت مجاميع زاباتا وماخنو من هذا النوع فهم فلاحون يحرثون الأرض ويحصدون الزرع ويحملون السلاح ضد الغزو فقط.

واقتنع البعض بتجارب الجيش الإسرائيلي بهذا المجال والأصح ما قاله ميلتزر «تولى الإسرائيليون فكرة الدفاع الذاتي بنجاح ساحق ـ ليست كفكرة تحررية بل بدافع من الفعالية القومية» أهداف ومبادىء اللاسلطوية ن.م. ص26.

(31) ص 151

كتب ماركس إلى أنجلز 14/ 3/ 1869 «إن في إسبانيا كهنة أكثر من العمال».

(32) ص 158

وردت عبارة إيما غولدمان في مقالتها «الحركة اللاسلطوية الإسبانية»

منشورة في كتاب «رؤيا في النار ـ إيما غولدمان حول الثورة الإسبانية» تحرير دافيد بورتر. مطبعة كومون جراوند. نيو بالتز. الولايات المتحدة سنة 1984 ص 25 ويضم مقالات أخرى منها عن الثورة الإسبانية: التخريب الشيوعي للثورة الإسبانية، دور المرأة في الثورة الإسبانية. كما جمع كتاب «لا مكان في الوطن: رسائل من المنفى ـ إيما غولدمان والكسندر بيركمان» تحرير ريتشارد وآنا ماريا درنون ط. سكوكن. نيويورك 1976 رسائل لغولدمان لها علاقة بالموضوع. وهي وبيركمان روسيان من أسرة يهودية وسكوكن دار نشر مختصة بنشر نتاج اليهود أو ما يتعلق بهم مثل كتاب اللاسامية واليهودي لسارتر.

(33) ص 159

اقتربت التجربة الناصرية في مصر من بعض المنطلقات اللاسلطوية أيضاً بسحنتها البرودونية المعتدلة (بسلبياتها وإيجابياتها) تحت تأثيرين: خارجي هو التجربة اليوغسلافية. وداخلي هو تأثير الأفكار اللاسلطوية المتخللة لتراث الاشتراكية العريق في مصر من خلال منافذ عديدة أهمها: بعض قادة كومونة باريس 1871 الذين لجأوا إلى مصر بعد فشل الكومونة، وقد عرضنا أن عدداً كبيراً منهم كانوا برودونيي النزعة.

وبعض مؤسسي التيارين الماركسي (روزنتال) والاشتراكي الديمقراطي (سلامة موسى) الحاملين لأفكار كروبتكن وباكونين. وشباب الحزب الوطني القديم المقتنعين ببعض أنواع الأنشطة اللاسلطوية (تلميحات إلى النقطتين الأخيرتين في: تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر 1900 ـ 1925 د. رفعت السعيد ط. مصر 1975 ص61 و78 و79 و224) وثابت أن بعض ضباط ثورة يوليو كانوا من مشايعي هذا الحزب قبل الثورة.

وقد تشكلت فعلاً مجاميع لاسلطوية في الإسكندرية على الأقل لها اتصالات بأُممية سنت إيمير اللاسلطوية وحضر مندوب عنها مؤتمر فيرفوس ـ بلجيكا في 6/ 9/ 1877 وانتدب عنها مالاتيستا في مؤتمر لندن 14/ 7/ 1881

وكان قد زار الإسكندرية وسوريا وتركيا قبله بأربع سنوات، كما حضر كروبتكن المؤتمرين مندوباً عن المنفيين الروس.

دفع هذا وذاك إلى نشوء شعور «بالزمالة» تجاه اللاسلطويين في نفوس الاشتراكيين الآخرين في مصر في تلك الفترة كما يفهم مما كتب رئيس الجمعية الوطنية وهي من الأحزاب السياسية في مصر 1883 «ونحن أقوى من زملائنا» الشيوعيين واللاسلطويين في أوروبا «وسننجح لأننا متحدون برباط الوطنية» جذور الجمعيات السرية في مصر في مطلع القرن العشرين ـ عصام ضياء الدين. مجلة قضايا عربية. بيروت. شباط 1978 وإلى قيام مي زيادة (1886 ـ 1941) بنشر مقالات إيجابية الروح عنهم في كتابها «المساواة» المطبوع في مصر.

وأهم أوجه الاقتراب ذاك (نوهنا عنها بمقالتنا: اليسار المذهبي وثورة يوليو. مجلة العلوم. بيروت. تموز 1964) هي:

1 ـ عدم الانطلاق من نظرية مغلقة أو مذهب وثوقي جزمي وشمولي وإنما من مجموعة مفاهيم عامة. وقد قال برودون «صدقني: لا رجل على الأرض قادر، كما قيل عن سنت سيمون وفورييه، على إعطائنا نظاماً كاملاً في جميع أجزائه يمكن وضعه وحده في التطبيق، ذلك هو ألعن كذبة يمكن نقلها للجنس البشري، وهو السبب في أني أعارض هكذا مذهب فورييه. العلم الاجتماعي لانهائي، وليس من إنسان يستطيع الإحاطة به كاملاً».

2 ـ أولوية الاقتصاد على السياسة، وقد تمثل ذلك في الشعار المركزي للتجربة إلا حرية سياسية بدون تحرر اقتصادي، وقد قال ماجون 1911 «إن الحرية السياسية أكذوبة حين يتعلق الأمر بالطبقة العاملة» ذلك أن الحديث في أي موضوع لا يرتبط بالقضية الاقتصادية وجوهرها تحرير الشعب العامل تهويش على أقل الفروض ودجل على أكثرها، ويصبح الساسة خبراء في المساومة.

وتغليب التجربة لقضايا اقتصادية صرفة ابتداء من الإصلاح الزراعي أول طعنة في قدسية الملكية الخاصة في الشرق الأدنى والتصنيع والتأميمات ثم بناء اقتصاد مستقل عن الاحتكارات العالمية على غيرها من القضايا رغم طغيان دويّ القضايا السياسية في الظروف القائمة آنئذ وخاصة الوحدة العربية التي يجب أن تفهم كما تحدث رائد التجربة نفسه مراراً سنة 1958 كوحدة ضد الاستعمار وحسب.

3 ـ الإيمان بالطبقية وبالصراع الطبقي كمحرك أساسي، لحد الآن، للتاريخ مع نظرة خاصة إليهما. وفي الأدبيات اللاسلطوية «تقوم اللاسلطوية الثورية على أساس الصراع الطبقي، ولو أنه صحيح أن حتى أفضل الناطقين باسم اللاسلطوية يجهدون غالباً لتجنب اللغة الخاصة بماركس فيتم التعبير عنه بطريقة مختلفة. إنها لا تأخذ بوجهة النظر الآلية التي تبناها ماركس وأنجلز في الصراع الطبقي» أهداف ومبادىء اللاسلطوية ن.م. ص 15.

تتمثل النظرية الماركسية التقليدية في الطبقية في عبارة ماركس هذه المقتبسة من رسالته إلى ويدمير 5/ 7/ 1855 «إن وجود الطبقات مرتبط بالمراحل التاريخية الخاصة بتطور الإنتاج فقط» إلا أن ماركس أظهر في كتبه الثلاثة «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» «والثامن عشر من برومبير» «والرأسمال» استثناءات من هذه القاعدة مثل حملة أسهم الشركات الذين اعتبرهم أقرب إلى التشريك منه إلى الرأسمالية، والمزارعين ذوي الملكيات الصغيرة الذين قال إنهم لا يشكلون طبقة. مما دعا بالتوسير في كتابه «قراءة لرأس المال» إلى القول بأن ليس هناك تطابق بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج فقد تتقدم أو تتأخر الواحدة عن الأخرى.

وقال عن البنى الفوقية في كتابه «مساهمة...» «تقود التغييرات في الأساس الاقتصادي إلى تحول كل البنى الفوقية الهائلة عاجلاً أو آجلاً» وفي نفس الوقت أظهر مرة أخرى استثناءات وصعوبات، فقد كتب في رأس المال

أن السياسة (وهي بناء فوقي) في أثينا وروما القديمتين والكاثوليكية (وهي بناء فوقي أيضاً) في القرون الوسطى لعبتا دوراً رئيسياً في العلاقات الاجتماعية (ترجمة إي وسي بول ط. بنجوين 1976 مجلد 1 ص 86 والمقطع موجود في طبعة دار اليقظة العربية في دمشق مجلد 1 فصل 21) وفي المجتمع الإقطاعي تؤثر العلاقة بين الحاكمين والمحكومين كعامل محدِّد في الإنتاج (ط. بنجوين مجلد 3 ص 790) وفي الثامن عشر من برومبير أن المجموعة التي عارضت لويس بونابرت لم تكن مؤلفة من طبقة واحدة بل من برجوازيين ذوي تفكير جمهوري وكتّاب ومحامين وضباط وموظفين، حتى قال لينين في «بحث عن حق تقرير المصير» «من يتوقع ثورة اجتماعية خالصة لن يعيش ليراها».

وحمل كل ذلك ماركسيين عديدين مثل جورج لوكاس على إدخال عنصر الوعي والإرادة الفرديين كعامل مهم في تكوين الطبقة إضافة إلى العامل الاقتصادي (يراجع للتفصيل: «رأس المال» لماركس ورأسمالية اليوم ـ أنتوني كوتلر وباري هنديس وبول أفيرست وآثار حسين ط. روتلدج وكيجنان بول. لندن 1979 مج 1 ص 150 و185 وغيرهما).

ومن ناحية اللغة نأتي بمثال عبارات «المنتجون، الشعب العامل، العاملون» التي استخدمها اللاسلطويون وماركسيون من أمثال المعارضة العمالية في الحزب البلشفي واليوغسلاف وشاع استخدامها في أدبيات التجربة أيضاً إلا أن لينين عارض ذلك في تقريره إلى المؤتمر الثالث للحزب 16/ 3/ 1921 «ليس هناك شعب عاملاً أو عاملين على وجه التعميم. هناك إما مالكون صغار يملكون وسائل الإنتاج وذهنيتهم وعاداتهم رأسمالية ولا يستطيعون أن يكونوا أي شيء آخر أو عمال مأجورون مع نظرة ذهنية مغايرة».

ومن هنا جاءت النظرة المضادة بعدم صرامة الحدود ما بين المراحل التاريخية وما بين الطبقات، إذ يمكن مثلاً اعتبار المركنتلية في مرحلة الإقطاع جنين المرحلة الرأسمالية التجارية، ويرى البعض مثل ماكس فيبر أن الرأسمالية

مع توسع في مدلولها موجودة منذ بداية التاريخ، واعتبار حملات الاستكشافات الجغرافية بمساهمة أقطار متعددة مثل حملة الهند الشرقية سنة 1505 وفنزويلا سنة 1527 التي ساهم فيها أناس من ويلز والبرتغال (الدين وصعود الرأسمالية ن.م. ص88) جنين الشركات المتعددة الجنسية في طور الرأسمالية المالية. بل تذكر كاتبة مصرية أنه تكونت شركة دولية/ متعددة الجنسية في الاسكندرية حوالي 332 ـ 30 ق.م من أكثر من سبع جنسيات منها روما، قرطاجة، اسبرطة، سالونيك لاستيراد التوابل من شرق إفريقيا (الإدارة الدولية ـ د. نادية الهادي ط. بيروت 1989 ص 99) ولكن كل هذا يجب ألا ينسينا التمييز ما بين الرأسمال كتراكم قيمي والرأسمالية كطريقة إنتاج.

وأما الطبقات فهي ليست أشياء منفصلة وجامدة كالكتل الصخرية وإنما هي علاقات متشابكة بين الناس، وقد زادت الثورة التكنولوجية المعاصرة من تعقيدها بخلف اختصاصات ذات مهارات عالية جداً بحيث أصبح العاملون فيها يميلون إلى اعتبار أنفسهم خلافاً للصيغ الطبقية الشائعة. وهذا ما أكد أهمية عنصر العلم في معادلة أسلوب الإنتاج (أسلوب الإنتاج يساوي علاقات الإنتاج ـ الرأسمالية الآن زائداً قوتا الإنتاج وهما العلم والإنسان) وهو تأكيد قديم في الفكر الاشتراكي وخاصة لدى كروبتكن وبوخارين ثم تبناه بعض علماء الاجتماع الأميركان خارجه مثل بانييل بيل في كتابه المجتمع المابعد ـ صناعي القادم مغامرة تنبؤ اجتماعي (كتب باسك نيويورك 1973) في مفهومه عن ازدياد دور المعرفة النظرية والتقنية في تغيير الهيكل الاجتماعي المابعد ـ صناعي وعن ازدياد دور التقنيين والعلماء حتى على دور الطبقة العاملة، وهذا الازدياد يشمل المجتمعين الرأسمالي الغربي والاشتراكي السوڤياتي معاً كما ونجد بعضاً من هذا التأكيد وتغير دور الطبقة العاملة في المجتمع المابعد صناعي لدى كتاب ماركسيين ولكن بحذر مثل الفرنسي ألن تورين في كتابه الطبقات، الصراعات والحضارة في المجتمع المبرمج ت. ليوناردف إكس. مينهيو ط. رادوم هاوس نيويورك 1971.

وإن الأبنية الفوقية ليست مجرد انعكاسات آلية لا مهرب منها للبناء التحتي، فالتركيب الطبقي نفسه إفراز سلبي محض لأسلوب الإنتاج ولا يؤثر (هو والعالم الخارجي عموماً) في الإنسان الواعي إلا بقدر استجابته له سلباً أو إيجاباً ويمكن قهره/ تجاوزه بالوعي الإنساني الفردي (المفكر أو الفنان) أخذاً بالاتساع إلى وعي فئوي (الطلاب والعمال الشباب) فجماعي. مع تأكيد أن الوعي الطبقي بدوره ليس آلياً وسيطاً، فوعي البروليتاريا ليس اشتراكياً حتماً ودوماً «جميع البلدان عرفت مرحلة كانت فيها الاشتراكية والحركة العمالية تعيش إحداها منفصلة عن الأخرى» لينين في مقالته: المهمات الملحة لحركتنا 1900 ونحن نضيف أن هذه المرحلة لم تنقض نهائياً، وكما هو الحال في الولايات المتحدة اليوم.

وقد تظهر طبقة مستغلة في ظل النظام الاشتراكي السلطوي، كما حصل بالنسبة للبيروقراطية الحزبية في روسيا «تعمل من أجل الأجور وليس الربح، أنها ليست طبقة رأسمالية، إلا أنها أعلى طبقة اجتماعية تستطيع بصعوبة أن تُدعى طبقة منتجة» بوابات اللاسلطة ن.م. ص30.

كما ويوجد وعي اشتراكي داخل الطبقات الأخرى منذ القدم «أما التعاليم الاشتراكية فقد انبثقت عن النظريات الفلسفية والتاريخية والاقتصادية التي وضعها المتعلمون من ممثلي الطبقات المالكة، وضعها المثقفون. إن مؤسسي الاشتراكية العلمية المعاصرة ماركس وأنجلز ينتسبان أيضاً من حيث وضعهما الاجتماعي إلى المثقفين البرجوازيين» لينين في ما العمل 1902 مردداً رأي كاوتسكي. وقد سمعنا أن كيم زونغ ايل رئيس كوريا الديمقراطية الشعبية يعطي الأولوية للعمل والوعي الفكري على العوامل المادية والاقتصادية في الثورة وبناء الاشتراكية وأن لهما الدور الحاسم في تغيير الظروف المادية وليس العكس تماماً (الجزء الأول من كتابه إعطاء الأولوية للعمل الفكري مطلب حتمي لإنجاز قضية الاشتراكية المذاع من راديو يانغ بانغ بالعربية 24/ 6/ 1995)

وهو قول غريب إلى مجمل الفكر الماركسي. انظر تصوّراً طريفاً آخر عن ازدواجية الايديولوجية داخل المرحلة الاقتصادية الواحدة: مبادىء الاقتصاد السياسي د. محمد دويدار. الاسكندرية 1988 ص 195 ـ 202.

أو قد يتخلف أفراد أو طبقات عن مرحلة الإنتاج المتقدمة ويبقون محتفظين بإيديولوجية المرحلة السابقة، كما هو الوضع الحالي في دول الشرق الأدنى النفطية، حيث إن قوى الإنتاج صناعية متطورة وعلاقات الإنتاج رأسمالية تجارية، إلا أن الطبقة السائدة وهي الطبقة الوسطى لا تزال محتفظة بإيديولوجية المرحلة الإقطاعية (نظام المشيخة السياسي، غلبة الفكر الغيبي والقيم العشائرية..) ليس بسبب أن الإيديولوجية تدوم أكثر من التراكيب الاجتماعية وحسب (كما تحتمل ذلك عبارة ماركس المقتبسة توّاً عن مفهوم البنى الفوقية) بل لأن عملية الإنتاج المتطورة أيضاً لم تحدث تغييرات عميقة وطويلة الأمد في العلائق الاجتماعية كما هو الحال في الغرب. ويمكن اعتبار اليابان نموذجاً آخر جيداً لقيام علاقات الإنتاج الرأسمالية الصناعية ـ الالكترونية (أي المتطورة للغاية) مع استمرار القيم الإقطاعية (قدسية الإمبراطور الوصاية الأبوية...) في نفس المرحلة.

والسبب في ذلك اقتصار عملية الإنتاج على تعدين مركّب طبيعي واحد وتسويقه بخبرة أجنبية غالباً، دون إقامة صناعات واسعة وفاعلة مما أدى إلى عدم نمو رأسمالية صناعية ومالية، وهشاشة بنية الطبقة العاملة وزيادة الانكماش الطبيعي للفلاحين وسيادة الطبقة المتوسطة لوحدها، وهي مؤلفة من فئات طفيلية بصورة رئيسية وخاصة من أعداد هائلة ومتزايدة من الموظفين في الدول التي تتبع رأسمالية الدولة، لها دور خدماتي لا إنتاجي.

حيث إن الفارق بين الطبقتين العاملة والمتوسطة، كما لاحظ بولانتزاس هو أن الأولى منتجة والثانية غير منتجة رغم أن كلتيهما غير مالكتين لوسائل الإنتاج، وخاضعتان لاستغلال الطبقة الرأسمالية (البرجوازية الكبيرة) وهذا

التفريق مبعثه تمييز ماركس في كتابه «نظرية فائض القيمة» ما بين العمل المنتج والعمل غير المنتج. ففي الأول ينتج فائض القيمة عن طريق بيع العمل من قبل العامل إلى الرأسمالي ومنه للمستهلك على شكل سلعة. وفي الثاني تباع الخدمة من قبل البرجوازي الصغير إلى المستهلك مباشرة كما هو الحال مع الممثلين والموسيقيين والبغايا، مثلما ذكرهم ماركس بالضبط.

وبذلك تكون الطبقة الوسطى في موقع غير راسخ ضمن العملية الإنتاجية ومتذبذب ما بين الطبقتين العمالية والرأسمالية الصناعية أو التجارية، ومما يزيد الطين بلّة أنها في دول الشرق الأدنى النفطية مشدودة اقتصادياً إلى النظام الرأسمالي الغربي بحكم سيطرته على أسواق النفط العالمية، ونفسياً إلى بهارج هذا النظام مع إغماضها العين عن أزماته الداخلية (كالتمييز العنصري وديمقراطية الأثرياء الشكلية والبطالة والجريمة والعهر المنظم والمخدرات وحصيلتهما الأخيرة: الإيدز) مما يخلق لديها حالة من حالات القلق الشديد على مصيرها في الوقت الذي تبحث فيه عن الطمأنينة في كنف الولاء للقانون والقيم الأخلاقية الشكلية والدولة (يجد القارىء تصويراً فنياً لذلك في رواية سدهارثا لهسّة المترجمة إلى العربية) وأخيراً تحب أن تُحكم بواسطة دكتاتورين (هرمان هسة ـ أدوين ف. كيسبير ط. توماس راي كرويل. نيويورك بدون تاريخ ص 63).

وقد شجع على ذلك أكثر في الدول النفطية المذكورة انعدام المؤسسات والممارسات الديمقراطية مما جعل حريات التعبير عن الرأي والاجتماع والمشاركة في إعداد القرار غريبة على الطبقة الوسطى، وهو ما دفع بها إلى التخلي عن دورها السياسي كطبقة إلى قائد مستبد يمثل بذاته كل الطبقة ويقوم بدورها لوحده، أي يظل بالطبع محافظاً على المصالح المادية للطبقة التي ينتمي إليها تماماً ويلقي ببعض الفتات للطبقات الأخرى.

لذا يخطىء من يظن أن مثل هذا القائد بما يصدر عنه من تصرفات متهورة

أو مواقف متقلبة أو مزايدات لفظية حتى تقلبه إلى مهرّج يكون قد خرج عن السياقات الطبقية التاريخية، فهو لا يمثل ظاهرة أفكار تتجاوز واقعها الاضطهادي وإنما هو أسير مصالح طبقته مهما نثر من نفايات على أرض المعركة الطبقية لإخفائها، ومن ثم فهو ظاهرة اجتماعية اعتيادية تجمع نفس سمات الطبقة النابتة منها كالإصلاحية والتذبذب والخطابية والعدوانية، وقد تكررت ويمكن أن تتكرر في أي بلد ذي ظروف مماثلة، وهذه العربة سبق وركبها قادة برجوازيون صغار كثيرون مثل هتلر وموسوليني وباتستا وعيدي أمين مع فارق في المظهر لا الجوهر، وكل ما هنالك رجال يرتدون قبعات، وهنا عقال وبجانبهم أجهزة فاكسمايل.

وقد جاء ذلك مصداقاً للقناعة القديمة للفكر اللاسلطوي، وكان ماكس شنرنر من أوائل المعبّرين عنها بأن تغيير الظروف المادية لن يؤدي حتماً إلى تغيير الإنسان آلياً، كما اعتقد سان سيمون وفورييه وماركس، وقد قال برودون أيضاً: «إن مصير الإنسان هو إعادة خلق مُثله في ذاته دوماً».

إن تطور وسائل تأمين حاجات البشر الفسيولوجية وظهور العلائق الاقتصادية المتلائمة مع درجة التطور هذا لا يعني بالضرورة أن هذا التطور موقوف على انتشار أفكار وأخلاقيات أو تشريعات محبذة له، وإنما هو موقوف على مستوى الخبرة العلمية والتقنية. إلا أن هذا لا يعني بنفس الوقت انعدام أفكار بهذا القدر أو ذاك تبشّر بهذا التطور أي سابقة له في أية مرحلة من مراحل التاريخ. وبالمقابل فإن تطور قوي وعلاقات الإنتاج في مرحلة معينة ليس هو السبب المباشر لانبثاق كل الأفكار والأخلاقيات والتشريعات المتزامنة معها.

من حسن حظ الفكر اليساري أن شعَّت هذه النظرة على كتابات الماركسيين العرب (الياس مرقص، اسماعيل المهدوي، أمين الأعور. . .) ولو متأخراً عن كتابات أقرانهم الغربيين بهذا الصدد (غرامشي، التوسير،

بولانتزاس. . .) ومتأخراً جداً عن أوانها. وننقل هذه الشواهد الثمينة من كتاب واحد «تأملات في الناصرية» د. رفعت السعيد ط. 2 بيروت 1979.

«يصعب أن نضع بالقلم أو المسطرة خطاً مستقيماً يفصل الطبقات الاجتماعية عن بعضها البعض فصلاً حاسماً» ص 50.

«إن الفرد بغضّ النظر عن انتمائه الأسري يتكون لديه قناعات وأخلاقيات وقيم ومثل وثقافة ويتخذ لنفسه مساراً فكرياً قد ينأى به عن طبقته فيقف في ميدان طبقة أخرى» ص 37.

وبالتالي: «فإن التحديد الأكثر دقة في اعتقادنا لضباط يوليو هو أنهم مثقفون. . . صحيح أن الوضع الطبقي هو العنصر الحاسم بشكل عام لكننا الآن أمام عينة محددة ومحدودة العدد وهي لقلتها وبالرغم من ضرورة وضعها في الاعتبار تسمح لعنصر الانتماء السياسي والفكري أن يلعب دوراً أكثر بروزاً إلى حد ما» ص 50 ـ 51 ننقل هذه الشواهد مع علمنا أن مقياس الحكم على ثورة ما ليس هو الأصول الطبقية «لقادتها» بل الطبقة التي تتوجه ضد مصالحها بالذات.

والمثقفون ليسوا طبقة ولكنهم موجودون في كل الطبقات. قال غرامشي إن كل الناس مثقفون ولكن ليس لكل الناس وظيفة المثقفين في المجتمع. والأصح أن يقال إن الذكاء (أنتلجنس) موجود لدى كل الناس وبينهم الطبيب والمهندس والمحاسب. . . ولكن ليسوا جميعاً مثقفين (أنتلكجوالس) لأن المثقف هو من يعي الواقع ككل ويتجاوزه بوعيه في نفس الوقت.

وإنكار صلة المثقفين بأية طبقة من فرضيات ماكس شترنر وأخذ بها الشعبيون الروس أيضاً بتأثير اللاسلطويين، وقال بها رائد التجربة في اجتماعه مع المثقفين في جامعة القاهرة 1968 (كتبنا بها في مقالتنا: المثقفون والثورة. مجلة محلية. بغداد 15/ 7/ 1963).

4 ـ عدم الاقتناع بدور الحزب وكذلك التمثيل النيابي في التغيير الاقتصادي، ومن أقوال برودون الشهيرة «كل الأحزاب، بدون استثناء وهي تبحث إلى حدّ ما عن السلطة، أشكال للنزعة الاستبدادية» وقوله «التصويت العام هو الثورة المضادة» وحسب توضيح فرنون ريتشاردز «لا يمكن تحقيق الثورة الاجتماعية من خلال صناديق الاقتراع فقط» استحالة الديمقراطية الاجتماعية ن.م. ص 58 لأن البرلمانية ليست هي الشكل الحقيقي للديمقراطية فهي في المبدأ مشاركة مباشرة في اتخاذ القرارات وتنفيذها وليست تمثيلاً نيابياً أو ما شابه.

5 ـ تشكيل لجان التسيير الذاتي في بعض المؤسسات والمعامل والمناطق السكنية. أصبح واضحاً اليوم أن التسيير الذاتي هو غير مشاركة العمال في إدارة المشاريع الرأسمالية أو المؤممة (كما في قوانين تأميم الشركات الخاصة في مصر 1961 والعراق 1964) وإضافة إلى أن التأميم دعم لمركز الدولة والساسة القائمين بإنجازه وليس تحريراً للأفراد من الرجال والنساء إطلاقاً من الاقتصاد المسيّر من قبل المدراء (العلم، الحرية، السلام ـ الدروس هكسلي ط. شاتو ووينديوس. لندن 1947 ص 14) فإن المشاركة تزيد أيضاً من سلطة المدراء على العمال كما أظهرت دراسات في بريطانيا 1968 (التحديد الراديكالي ـ بيترهين ط. كوارتر بوكس. لندن 1975 ص 52) وقد قال بابوف «المدراء يديرون ثورة لكي يديروا».

ونأتي بهذا الكلام لأن مطلب التسيير الذاتي اعتبر هامشياً وقضية تحريفه لستين سنة في وعي الدوائر السياسية لليسار في بريطانيا بالمقارنة مع مطلب التأميم: الترياق لكل شيء (اللاسلطة في الفعل ـ كولن وارد. مطبعة فريدم. لندن 1982 ص 9) وينطبق هذا القول أكثر على الأوساط السياسية الوطنية واليسارية في الشرق الأدنى التي ربطت ربطاً لا فكاك منه ما بين الاشتراكية ووجود الدولة وهي فكرة بذرها ونشرها أتباع الاشتراكية الدولية في كل مكان لعقود من الزمن (كتبنا

عن التسيير الذاتي في يوغسلافيا كقضية تحريفية بنظر اليسار المذهبي مقالة: الاشتراكية من أجل الرجل. مجلة الوادي بغداد 20/ 8/ 1960).

كما وأن تشغيل بعض المعامل من قبل العمال في إطار الملكية الرأسمالية، كما في إعادة الحلفاء لتشغيل بعض المعامل في ألمانيا الغربية 1951 والكنيسة في النرويج والدانمارك (يراجع للتفصيل: التسيير الذاتي: التحرير الاقتصادي للإنسان ـ تحرير جروسلاف فانيك ط. بنجوين 1975) فلا يعتبر تسييراً ذاتياً إلا بالاسم كما أطلقه بعض الليبراليين على تلك التطبيقات وليس بالمعنى لأنه يقلب المفهوم الحقيقي إلى تعاونية أو إدارة مشتركة.

6 ـ الاتجاه التدريجي والسلمي في مرحلة التحول الاجتماعي وعدم اللجوء إلى العنف لحل التناقضات الاجتماعية. وقد أعلن برودون مرة أخرى بوضوح في رسالته المارة الذكر إلى ماركس نبذه للفعل الثوري أو الانقلابي كوسيلة للإصلاح الاجتماعي تبعاً لخبرته وقناعاته السابقة ولأنه متناقض ويلجأ للقوة والتعسف، لذا فهو يفضل حرق الملكية شيئاً فشيئاً بدلاً من منحها قوة جديدة بصنع مذبحة جديدة للناس مثل مذبحة يوم سنت بارتلميو، وبينما البروليتاريا عطشى للمعرفة فإنها تستاء إذ نقدم لها الدم فقط للارتواء.

ويعود سبب تقبل هذا النزوع السلمي في مصر حسب رأينا إلى طبيعة سكانها منذ القدم وهو يماثل النزوع السائد في بريطانيا أيضاً والذي استطاع تدجين مختلف اتجاهات العنف لدى اليسار (كيرهاردي، هندمان، برناردشو..) وحتى كروبتكن الذي أخذت شرارات العنف الأولى في تفكيره بالانطفاء بعد أن أقام أكثر من ثلاثين سنة في إنجلترا.

هذا إذا استثنينا بعض أعمال العنف المنظم لمجموعة اللواء الغاضب اللاسلطوية سنوات 1967 ـ 1984 وغير المنظم التي ساهم فيها اللاسلطويون في نهب وسلب مخازن الطعام والكساء في لندن أواخر آذار 1990 ومثلها مساهمتهم في أثينا أواخر كانون ثاني 1990.

فهل تشكل هاتان المساهمتان مع أعمال مماثلة قامت في أواخر نفس السنة في فاس وشمال شرقي البرازيل وكنشاسا عاصمة زائير في ظروف كوكب يموت فيه 45 ألف طفل يومياً من سوء التغذية ويعمل مائة مليون طفل آخر (4 ـ 12 سنة) في ظروف عمل سيئة لمدة 14 ساعة يومياً وفي أعمال كتجارة المخدرات والدعارة (الرقمان من تقرير لمنظمة الأمم المتحدة 1991) وألف مليون إنسان (أي خمس سكان الكوكب) يقل إيرادهم عن دولار واحد يومياً (راديو سويسرا العالمي بالإنجليزية 8/ 7/ 1991) إذْ إن معدل دخل الفرد في العالم الثالث 1987 هو 290 دولاراً بينما دخل الفرد في الدول الصناعية المتقدمة 14500 دولار في نفس السنة (تقرير نيتو كراكسي إلى الأمم المتحدة تموز 1990) حتى هنا فإن عدد العاطلين كان في دول أوروبا الغربية منتصف 1985 حوالي 20.5 مليون (الكتاب السنوي للأمم المتحدة 1985 مجلد 39 ط. الناشرون مارتينوس ميجهوف. الولايات المتحدة 1989 ص 654) وظل هذا العدد يتزايد حتى كتابة هذه السطور هذا عدا أكثر من 18 مليون لاجىء على الكوكب سنة 1992 (إذاعة لندن 10/ 11/ 1983 عن تقرير مفوضية شؤون اللاجئين الدولية). ومائة دولة عليه أيضاً تنتهك حقوق الإنسان (التقرير السنوي لمنظمة العفو الدولية المنشور في 10/ 7/ 1991) هل تشكل تلك الأعمال ملامح ثورة عالمية عفوية جامحة على وشك الهبوب؟

(34) ص 166

لا يصبح النقد الذي يورده المؤلف للتجربة الكوبية مفهوماً إلا إذا وضع ضمن الإطار العام لمنظور اللاسلطويين عن التجربة ككل باعتبارها واحدة من تطبيقات شيوعية الدولة، عبودية الأرض، الإدارة الهرمية وعسكرة البلاد بما فيها الأطفال. وأما رخص أو مجانية الخدمات فلأن مصاريفها تقتطع من أجور العمال.

لنرجع إلى الوراء قليلاً: لم تكن حركة 26 تموز ضد مولجنكو باتيستا

الوحيدة بل كانت هناك مجاميع عديدة أخرى تعمل على إسقاطه داخل المدن أو خارجها وعندما كان كاسترو مشلولاً على الأكثر في المقاطعة الشرقية اتصل بالكولونيل ريزو روبيد القائد العسكري لحصن سانتياغو دي كوبا بمساعدة قس كاثوليكي حول تسليم المدينة. عاصمة المقاطعة إليه، وتوصل بعده إلى اتفاق مع الجنرال كانتيلو لتسليم المدينة وكل المقاطعة إليه. وظهرت هذه الوثائق في التلفزيون وفي صور نشرت بمجلة «بوهيميا» 1959 حيث يتبادل كاسترو وكانتيلو المذكرات.

ثم استدعى باتيستا لكانتيلو إلى هافانا وأبلغه بقرار تعيينه قائداً عاماً للجيش لحفظ الأمن وإعادة الأمور الطبيعية إلى البلاد، فأسرع هذا إلى إبلاغ كاسترو باستعداده لتسليم كل البلاد إليه، وفرّ باتيستا إلى سانتا ديمنغو في 1/ 1/ 1959 وحوّل كانتيلو قيادة الجيش إلى الكولونيل رامون باركوين الذي وضع نفسه تحت تصرف كاسترو، وأصدر هذا أوامره إلى متمرديه لاحتلال كل المنشآت العسكرية والحصون. وعلى أثر ذلك احتل كاميلو سينفيوجوس مثلاً بثلاثمائة متمرد معسكراً يضم اثني عشر ألف جندي وقوة جوية ومدفعية ووحدات دبابات دون إطلاق رصاصة واحدة.

وبذلك لم يختلف أسلوب مجيء كاسترو إلى الحكم عن أسلوب قادة الانقلابات العسكرية في دول أميركا اللاتينية سوى في أمر واحد هو أن هؤلاء يقومون بانقلاباتهم كبديل عن الشيوعية بينما انقلب كاسترو شيوعياً، وهو الذي كان قد أدانه الحزب الشيوعي الكوبي (ذو التراث السيىء في المساومة مع اليمين وحتى مع باتيستا في بعض المسائل) سنة 1953 أثناء هجومه الفاشل على موقع مونكادا لاتباعه «الأساليب الانقلابية المميزة للجماعات السياسية البرجوازية» ورفع كاسترو شعار لا رأسمالية ولا شيوعية لفترة قبل انقلابه شيوعياً والذي لم يقتنع به الحزب الشيوعي الفنزويلي على الأقل لوقت طويل.

المصدر الوثائقي: الثورة الكوبية: منظور نقدي ـ سام دلجوف. كتب الوردة

السوداء. مونتريال 1976 ووردت الوقائع المتعلقة بتسليم كوبا من قبل الجنرالات إلى كاسترو في مقالة: تاريخ عملية تزوير: التقدم نحو هافانا للمحارب اللاسلطوي الكوبي أبيلاردو أجليزياس المنشورة في الكتاب ص 86 ـ 91.

وأما نزعة جيفارا فهي لا تختلف في الجوهر عن نظرية الحزب ـ النخبة عند لينين والقائمة على فكرة استيلاء زمرة على الحكم والتي تأثر فيها لينين بلويس بلانكي وبمنظمة إرادة الشعب في روسيا 1879 وكانت تدعو أيضاً إلى استيلاء فئة صغيرة من الثوريين على السلطة وكما اتهمه بليخانوف بالأخذ منها، سوى أن الزمرة عند جيفارا فلاحية وليست عمالية مؤطرة بعدد من المثقفين من أمثال ريجيس دوبريه الذي تحوّل إلى صف فرانسوا ميتران فيما بعد.

(35) ص 168

اتهام ماركس للاسلطوية بأنها تمثل أفكار البتي برجوازية «البرجوازية الصغيرة» متجسداً في اتهامه أولاً لأفكار شترنر في الايديولوجية الألمانية وبرودون في بؤس الفلسفة والذي تبناه أتباعه طويلاً وجددوا التأكيد عليه بعد ثورة باريس 1968 يحتاج إلى تدقيق تاريخي.

تجمع الرأسماليون في أواسط القرن الماضي وقبل النمو الكامل للصناعة الحديثة الكبيرة في أحد قطبي المجتمع والبروليتاريا في القطب الآخر مع بقاء غالبيته فلاحية. وكانت الطبقة المتوسطة مؤلفة حينئذٍ من حرفيين يعملون بأنفسهم ولا يستغلون عمالاً آخرين، وهم متعلمون ذاتياً بينهم الطباع والاسكافي والخياط والصائغ والسرَّاج وصانع الساعات ومجلد الكتب.

وبعد تركز الصناعة وتوسعها انقرض أغلب هؤلاء تدريجياً وانضم الباقون إلى الطبقة العاملة وأصبحت الطبقة الوسطى مؤلفة من الموظفين المكتبيين وأصحاب الورش الصغيرة الذين يستخدمون عدداً من العمال. وإذا ما تذكرنا الفارق الذي عرضناه في حاشية سابقة ما بين الطبقة العاملة والطبقة الوسطى (البرجوازية الصغيرة) فإن أفراد الطبقة الثانية في القرن الماضي كانوا من المنتجين

بينما غدوا اليوم غير منتجين، لذا فإن ما عناه ماركس بالبتي برجوازية في عهده غير ما تعنيه هذه الطبقة اليوم، وإن أتباعه لا زالوا يتمسكون بالاسم القديم لها، والذي يغاير الوقائع الجديدة. وفي مصر أيضاً حسب أحد كتّابها، عنت البتي برجوازية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين صغار التجار والحرفيين والصناع وأصحاب الورش وأرباب المهن الحرة وبعده أصبح عصبها المهنيون والتكنوقراط والفئات البيروقراطية وعناصر الأنتلجنسيا المختلفة. (الاقتصاد المصري ـ د. محمود عبد الفضيل. بيروت 1980 ص 209 ـ 212).

ويقول لينين «اللاسلطوية فلسفة برجوازية انقلب داخلها خارجاً» مقالة منظمة الحزب وأدب الحزب 1905 مطبوع مع من أين نبدأ؟ ن.م. ص 26 ولما كانت البرجوازية غير البتي برجوازية فإن عبارة لينين تخفي بنظرنا عدم قناعته برصانة تصنيف ماركس التقليدي للاسلطويين أولاً وضرورة التمسك بالتصنيف الواحدي وحشرهم ضمن البرجوازية الكبيرة كيفما كان لأسباب سياسية بحتة ثانياً.

وأما من ناحية التدقيق الموضوعي فإن اللاسلطوية لم تنتشر بين الطبقة الوسطى بالمفهوم المعاصر لماركس عنها وحسب وإنما بين كل الطبقات الأخرى أيضاً، وفي مقدمتها الطبقة العاملة، وها هو أنجلز يعترف بسيطرتها على الحركة العمالية في إيطاليا وإسبانيا (مقتطع من مقالته: عمال أوروبا في 1877 منشور في اللاسلطوية والسندكالية اللاسلطوية ن.م.ص 160) وسبق ونقلنا إشارته إلى سيطرتها على كومونة باريس وطليعة جمعيات العمال الاشتراكية في فرنسا أيضاً.

وكذلك بين الفلاحين المعدمين، لا ملاكي الأرض أو مزارع الكروم والزيتون، في إسبانيا وأميركا اللاتينية والهند وأوكرانيا. وفي هذه المرة لو استمعنا إلى رأي جواكين مورين والذي يحمله ماركسيون امتثاليون كثيرون غيره فإنه لن يستطيع تعليل نجاح اللاسلطوية بين فلاحي إسبانيا الفقراء وإخفاقها بين فلاحي شمال إيطاليا في نفس الوقت.

وأورد ماركس أن هدف اللاسلطويين هدم الإنتاج الكبير والعودة إلى الصناعة اليدوية، وربما كان هذا تأويلاً غير دقيق لنقدهم العام الذي لا ينقطع منذ ذلك العهد ولليوم للمدنية الآلية الحديثة باعتبارها استلاباً لكينونة الإنسان الطبيعي، لأن هدفهم لم يكن بأي حال من الأحوال إلغاء الصناعة الحديثة بل على العكس قاموا بالتنظير المستمر لإدارتها من القاعدة ورقابة العمال لإنتاجها بواسطة المجالس الخاصة بهم، وبرهنت تطبيقاتهم القصيرة الأجل في إسبانيا 1936 على مدى تبنيهم لها وأكثر.

إن سبب تمسك ماركس وأتباعه بهذه الاتهامات التي لا أساس موضوعي لها يعود برأينا إلى أنهم افترضوا مسبقاً أنه ليست هناك طبقة عاملة وحسب وإنما طبقة عاملة شيوعية دولية وأنهم وحدهم يمثلونها وكل نصير لها عداهم غير مقبول. والأصح ما عبّر عنه جيمس جول وهو أستاذ أكاديمي من غير اللاسلطويين «مالت الأفكار اللاسلطوية للازدهار في كل مكان حيث كان صراع طبقي ما بين أرباب العمل والعمال وحيث أعارت الدولة سلطتها بتروٍّ لأرباب العمل وجلست بعيدة عن المعركة».

(36) ص 172

كان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي الستاليني العلني والصريح معادياً لثورة أيار 1968 التي تحاول «إحياء الأفكار اللاسلطوية القديمة» كما ورد على لسان واليك روشيه سكرتير الحزب في 31/ 5/ 1968 وأحرق الطلاب أعداداً كبيرة من جريدة الحزب الأومانتيه في باحة السوربون.

كما وعارضها أقطاب ماركسيون مثل هنري لوفيفر ولوي التوسير بخلاف آخرين مثل جاك لاكان وألان تورين وروجيه غارودي وماويين وتروتسكيين وماركسيين «جدد».

(37) ص 173

لا يكاد يخلو بلد من بلدان العالم اليوم من لاسلطويين مثقفين أو ناشطين

أفراد أو مجاميع صغيرة مع زخم عمالي في أوروبا الغربية والأميركتين وتعاطف فلاحي واسع في الهند وأندونيسيا. ونشير هنا إلى بعض أنشطتهم في عدد من غير تلك البلدان وبالأخص دول أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية.

حملت ثورة 1956 في هنغاريا طابعاً لاسلطوياً بحتاً، حيث شكل العمال الشباب عمودها الفقري ونشوبها عفوياً وبدون أي تنظيم أو قيادة وإقامة مجالس العمال في المناطق الصناعية وخاصة بين عمال مناجم الفحم والسكك الحديد وأعضائها مجرد مندوبين للعمال كما اعترفت صحيفة الأوبزرفر البريطانية في حينه (ثورة عمال هنغاريا 1957 مطبعة كولاك. لندن 1985).

وصاحبت ثورة هنغاريا انتفاضة سندكالية لاسلطوية في بلغاريا يتقدمها كريستو كوليف الذي قضى حياته في سجون ومعتقلات الفاشية والبلشفية معاً. وللاسلطوية جذور قديمة في بلغاريا ترجع إلى الشاعر المناضل كريستوموتيف المتوفى 1876 وكان من تلامذة برودون وباكونين وثار مع مجموعة من الأنصار في الجبال ضد الاستعمار التركي وإلى حركة سندكالية لاسلطوية قوية تعود إلى 1923 ومن ناشطيها مانول فاسيف ودلينجو فاسليف وشيفان كوتاكوف، وقضى قسم منهم مدداً طويلة في المعتقلات مثل فاسيل أوزنوف (أكثر من 26 سنة) وجيورجي كازابوف (أكثر من 20 سنة) بلغاريا: إسبانيا جديدة. مطبعة كولاك. لندن 1983 المقدمة بقلم تيري ليدل ص 8 (بدون ترقيم في الأصل) ويستعرض نضال اللاسلطويين من أيام الاستعمار التركي حتى سنة 1948 مع قائمة بأسماء الموجودين في معسكرات الاعتقال وتضم 131 اسماً.

وكان لهم صحيفة قبل الحرب العالمية الأولى باسم فكر العمال، وشكلت مجاميع الشيوعيين اللاسلطويين منذ 1919 وعُقد مؤتمرها الخامس والعلني الأول (ولو بصورة غير قانونية) في جامبول 1923 ثم بدأ اضطهاد البلاشفة لهم حتى 1945 حيث أطلق سراحهم تحت تأثير الرأي العام العالمي، وعادت فكر العمال للصدور وباعت 30 ألف نسخة في هذا البلد الصغير، ثم تجددت حملة

الاعتقالات وهرب قسم من الناشطين خارج البلاد وأصدروا صحيفة نوتري روت في باريس حتى 1974.

شارك عدد من المنفيين اللاسلطويين من بولندا في كومونة باريس 1871 مثل جاروسلاف دومبروسكي وكان من أبرز «القادة» العسكريين لها وداليري رويلوسكي. ومن رواد اللاسلطويين في بولندا إدوارد ابراموسكي الذي نشر كتاباً باسم مستعار 1899 وهو طالب في جامعة وارشو. وتشكلت مجموعة النضال الشيوعية اللاسلطوية في بيالستوك 1903 وضم اجتماعها الأول 800 عامل في هذه البلدة الصغيرة ثم تحولت إلى فدرالية. ونشأت مجاميع في مدن أخرى منها وارشو 1905 شاركت في إضرابات وأعمال عنف وأعدم عدد من ناشطيها. وعقد أول مؤتمر للشيوعية اللاسلطوية لعموم بولندا وليتوانيا 1907 وشارك ممثلوها في مؤتمر السندكالية اللاسلطوية في برلين 1921.

أخذت الغمامة تنقشع عن أعين الاشتراكيين في العالم في نظرتهم إلى التجربة اليوغسلافية وخاصة بعد أن قويت علائقها مع الدول الغربية وبالأخص الولايات المتحدة مما أفقدها استقلاليتها الاقتصادية بعد 1964 وفقد التسيير الذاتي لديها بريقه بانغماسه في وحل البيروقراطية الشائن فاتخذت المعارضة الداخلية طابع المواجهة الصريحة بعد أن تخفت طويلاً بأردية فكرية. وقامت انتفاضة طلابية في حزيران 1968 كان من شعاراتها سقوط البيروقراطية الحمراء (تمرد في يوغسلافيا الاشتراكية حزيران 1968 ط. الأسود والأحمر. ديترويت 1973 ومقالة لا دموع على تيتو ـ تيري ليدل صحيفة التضامن. إنجلترا. آب ـ أيلول 1980).

حدث تحرك مناهض للتجربة الشيوعية الدولية في روسيا بعد الانفراج الحاصل عقب المؤتمر العشرين للحزب. وقامت مظاهرات في ستالينغراد وتفليس وأُبعد مائتا طالب أجنبي من جامعة موسكو واصطدم العمال والطلاب مع الجيش في كييف 27/ 12/ 1956 وظل شعار كل السلطة للسوفياتات عزيزاً

على قلوب أبناء الشعب الروسي. وقد تبناه اللاسلطويون قبل لينين (كما يذكر غورين) ويرد ذلك على لسانه «في بعض الأماكن من روسيا أخذ العمال يمارسون رقابتهم على المصانع. . . ينبغي على الفلاحين أن يسهموا بكل قواهم في مبادرة العمال هذه» رسالة مفتوحة إلى مندوبي مؤتمر نواب الفلاحين في عموم روسيا نشرت في 24/ 5/ 1917 وموجودة في التحالف بين العمال والفلاحين ن. م. ص 206 وأدرك أهميته «إن انتصار سلطة السوڤياتات أكيد ثابت. إن التجربة كلها ستقود المثقفين إلى صفوفنا 11/ 4/ 1919 التحالف. . . ن. م. ص 309 وهذه تحققت فعلاً كما سنذكر تواً ولكن بصيغة جديدة، لقد قال لينين لإيماغولدمان معاتباً لها «حتى رفيقك العظيم أنريكو مالاتيستا أعلن تأييده للسوڤياتات» فأجابت «نعم للسوڤياتات الحرة».

نقلت صحيفة الأوبزرفر البريطانية 1954 عن صحيفة برلينية تدعى بيريجيت جيرلاند أطلق سراحها في الاتحاد السوڤياتي آب 1953 أن الشعب الروسي ظل متمسكاً بهذا الشعار ولكن من دون شيوعيين. وهو نفس ما فعل الطلاب في انتفاضاتهم كما في جامعة ستراسبورج 1966 «كل السلطة للسوڤياتات ولكن الآن بدون بلاشفة» وباريس 1968.

بعد قلع العمال من جذورهم النقابية الحقيقية لم ينقطع نضالهم وشكلوا مجموعة عمالية مستقلة من المفصولين 1977 لتحسين ظروف العمل. ورابطة نقابات العمال الحرة 1978 من مائتي عامل تم اعتقالهم فيما بعد. وتشكلت رابطة العمال الأُممية الحرة أس أم أو تي من مائة عضو بينهم اللاسلطوي من لينينغراد ليف فولو خونسكي وسرعان ما حكم عليه بالسجن خمس سنوات ثم بالنفي الداخلي لأربع أخرى. ونشرت الرابطة عدة نشرات (صحيفة العمل المباشر. ليدز 9/ 1984).

وجدت حركة لاسلطوية مستندة على أفكار لاوتزي في الصين استمالت إليها مجاميع فلاحية وعمالية ومثقفة وظلت نشيطة لحين استيلاء الشيوعيين

الدولتيين على السلطة 1949 حيث بدأوا باضطهاد تلك الحركة رغم أنها تركت بصماتها في دعوتها لمجالس العمال والفلاحين على تجربة الكومونات الصينية (يراجع أصول الحركة اللاسلطوية في الصين ـ ألبرت ميلتزر ط. سميان. إنجلترا 1970).

في وسط تحرري فكري تحرري خلقه الكتاب والمثقفون اليابانيون من تقاليد البلاد العريقة أهمهم أندو شوكي الذي يلقب بوليم غودون اليابان نشأت حركة لاسلطوية قوية كان من أوائل دعاتها كوتو كو وأوسوجي اللذين كرسا جهودهما لترجمة آثار كروبتكن وباكونين وبرودون وغيرهم. وقد حاربت السلطة ناشطي الحركة بشدة وخاصة في قضية «مؤامرة التمرد الأعظم» 1911 التي شملت عدداً من الكتاب والصحفيين.

تشكلت الفدرالية اللاسلطوية اليابانية 1946 ونشرت مطبوعات عديدة. وبرز اسم المناضل أومور في الإعلام الغربي على أثر محاكمته بتهمة إلقاء قنابل على دائرة حكومية في سوبورو والحكم عليه بالسجن لسبع سنوات في 1976 وشكلت لجان للدفاع عنه وألقيت قنابل على مؤسسات يابانية رأسمالية في أوروبا الغربية احتجاجاً على محاكمته (يراجع: اللاسلطويون اليابانيون ـ فل بلنجسكي ط. سميان 1970).

وكذلك الحال في كوريا الجنوبية حيث الحركة قديمة ومن روادها المناضلة ميز كانيكو موسكو التي عملت في اليابان وتوفيت 1926 ولها أنصار كثيرون وخاصة في أوساط العمال والطلاب الشباب.

وفي اليونان مجاميع عديدة تقوم بأعمال عنف ومظاهرات باستمرار وقد اشتهر من ناشطيها فيلياس وزوجته صوفيا كيرتس بعد الحكم عليهما بالسجن بتهمة حيازة قنابل مولوتوف وقد تظاهر من أجلهما اثنا عشر ألف متعاطف في أثينا 21/ 3/ 1979.

ومثل ذلك في تركيا حيث «كل الناشطين لاسلطويون وكل اللاسلطويين ناشطون» حركة التضامن الثورية العالمية تحرير ألبرت ميلتزر. مطبعة سنفيوجوس. إنجلترا 1976 ص 48 ويضم تعريفاً موجزاً بالحركة 1900 ـ 1972 وأهم منظماتها وخاصة مجموعة الأول من مايو الإسبانية وبمقدار أقل اللواء الغاضب وبادر ـ ماينهوف والجيش الأحمر وقد استبعد لأسباب أمنية الألوية الحمراء ومجموعة عمل الأنصار جي أي بي في إيطاليا.

إن اللاسلطوية نقد تحرري للمجتمع القائم ورؤيا مضادة باتجاه مجتمع سعيد ذي تركيب في غاية البساطة مع وسائل انتقال من الواحد للآخر فهل نجحت في ذلك لحد الآن؟

في واقع مكتظ بالأوثان وكهنة الدولة يناورون حولها صباح مساء ليس غريباً أن يبدو النقد نفسه لسواد الناس سلباً محضاً والرؤيا طوباوية والوسائل مثالية فأنى يتأتى النجاح لمن لا يُبقي وثناً وينأى عن كل سلطة وبالأحرى عن كل علاقة قوة «كل من يتحدث عن القوة السياسية إنما يتحدث عن السيطرة. باكونين» لذا ظلت اللاسلطوية فعلاً ولأكثر من مائة سنة محشورة ما بين كمّاشتي الرأسمالية والماركسية الدولتية فإذا كان للأولى أعذارها فإن موقف الثانية بحاجة إلى تأمل، وهذا هو ما دفع بكل من درس اللاسلطوية إلى الاهتمام الزائد بجانب علاقتها بالماركسية.

وقد يبدو للكثيرين أن مبررات هذا الاهتمام قد زالت بعد انهيار التجربة البلشفية. ولكن ثمة أشباح مقدسة عديدة أخرى لا تزال تجوب العالم مما يدعو لاستمرار الحاجة إلى مثل تلك الدراسات من هذا الجانب إن لم يكن أكثر من ذي قبل.

- الصراع الطبقي نبذ للمبدأ الكوني للحب الأخوي ويؤدي إلى إظهار المضطهدين كطبقة عدوة مما يقود إلى استعبادهم من القربان المقدس. وثيقة فاتيكانية بتوقيع الكاردينال جوزيف راتزنجر منشورة في جريدة التايمس لندن 4/ 9/ 1984.

● إن الحكومة هي من الأحكام الإلهية. رئيس جمهورية دولة إسلامية 22/ 1/ 1988.

● الدولة من وجهة نظرنا ليست مؤسسة زائلة كما تقول الماركسية (كذا) بل هي مؤسسة أبدية. رئيس وزراء عربي 27/ 8/ 1987.

لقد ظلت الاشتراكية واحدة بنظر عامة الجمهور الأوروبي رغم تعدد اتجاهاتها (الشيوعية البدائية لبابوف وواتيلنج والاشتراكية الطوباوية لسان سيمون وفورييه والاشتراكية الديمقراطية والماركسية واللاسلطوية) حتى قيام الأُممية الثانية وبروز الشروخ أكثر بين تلك الاتجاهات، وظلت الوحدة تتراءى بين الأخيرتين ولأسباب لا تخلو من موضوعية إلى وقت أبعد.

واللاسلطويون «مثل ماركس كانوا ماديين وأرادوا نهاية الحكام والبرلمانات والطبقات الرأسمالية وإلى جانب بعض سمات فكر ماركس كانوا أُمميين مثل ماركس آمنوا بأن العمال يجب أن يمتلكوا ويديروا المعامل، ولكن خلافاً لماركس لم يؤمنوا أن المعامل يجب أن تدار من أجل دولة العمال، ورأى اللاسلطويون أن العمال يديرون المعامل لأنفسهم وللمجتمع عامة» نقد لاسلطوي لتروتسكي والتروتسكية جي. هل. صحيفة الأحمر والأسود. أستراليا. أيلول 1984 ص 13 مرجع إضافي: الدولة الحديثة: تحليل لاسلطوي ـ فرانك هاريسون. كتب الوردة السوداء. مونتريال 1984.

مع الإيضاح أن المادية عند اللاسلطويين غير دايلكتيكية لأن الطبيعة في حالة تحولات (حسب تعبير برودون المأخوذ من هيجل مباشرة أو عن طريق صديقه وصديق ماركس معاً أرنولد روجه) أو صيرورة كمية وليست نوعية (كما عند نيتشه) وقد نشر الكاتب الروسي جيركز شفيلي مجموعة دراسات فلسفية 1906 ذكر فيها أن الدايلكتيك ميتافيزيقيا وأن اللاسلطويين يريدون تحرير العلم من الميتافيزيقيا والفلسفة من الثيولوجيا. وقال كروبتكن إن اكتشافات القرن الماضي في الرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها من العلوم لم تتحقق بواسطة

أسلوب الدايلكتيك بل بأسلوب العلم الطبيعي (قلنا بذلك في مقالتينا: الماركسية والعلم والماركسية والدين مجلة الوادي. بغداد 4/ 6 و9/ 7/ 1960).

واشتدت رؤية تلك الوحدة بين التيارين الاشتراكيين العظيمين بعد الثورة الروسية 1905 وتبني الماركسيين اللينينيين لنفس الشعارات للسوڤياتات التي سبقهم اللاسلطويون في رفعها وهي إضافة إلى شعار «كل السلطة للسوڤياتات» شعارات «لتسقط الحرب» «السلام فوراً بدون ضم أو تعويضات وبالرغم من الحكومات والرأسماليين» «إلغاء الجيش» «تسليح العمال» «الاستيلاء الفوري على الأرض من قبل الفلاحين» «استيلاء العمال على المعالم».

فكتب ستالين 1906 «يعتقد بعض الناس أن الماركسية واللاسلطوية قائمتان على نفس المبادىء وأن عدم الاتفاق بينهما يعود إلى التاكتيك فقط» لاسلطوية أم ماركسية ن. م. ص9 وحتى 1921 رأى اللاسلطوي «السوڤياتي» هرمان ساندوفير في مقالة له نشرتها الأزڤستيا بمناسبة وفاة لينين أن البلشفية نوع من الماركسية الباكونينية.

وظلت المسألة الرئيسية في الخلاف: الدولة. كان موقف ماركس وأنجلز فيها متذبذباً حقاً كما يقول غورين (بينما تذبذب Oscillated ماركس وأنجلز ما بينهم... الخ ص 39 ومن الطريف أننا كتبنا بنفس التعبير «وثبت أن هجوم ماركس على الدولة لم يكن إلا هجوماً ديماغوغياً متذبذباً...» في الحرية والدولة والخلق الفني. مجلة الآداب. بيروت كانون الثاني 1964) فقد بدآ في كتاباتهما الأولى الايديولوجية الألمانية 1848 مستسلمين تماماً للاتجاه السلطوي بإبقائهما على جهاز الدولة البرجوازي بعد الثورة الاشتراكية، ثم عدلا موقفهما بعد كومونة باريس التي جاءت تحقيقاً لمبادىء برودون بضرب جديد من التنظيم اللامركزي إن لم نقل بإلغاء الدولة نهائياً فكتب ماركس إلى كوجلمان 12/ 4/ 1871 «ليس فقط تحويل الماكنة البيروقراطية والعسكرية من مجموعة أيدٍ إلى أخرى كما حصل هنا ـ في الثورة الفرنسية 1789 ـ وإنما بتحطيمها هو

الشرط الأول لأية ثورة حقيقية للشعب. هذا ما يحاول بالضبط رفاقنا الباريسيون الأبطال تنفيذه» وأضاف مع أنجلز في مقدمتهما إلى الطبعة الألمانية للبيان الشيوعي 24/ 6/ 1872 إن برنامج البيان «أصبح الآن عتيقاً في بعض المواضع. . . وخاصة أن الكومونة أظهرت ذلك في أن الطبقة العاملة لا يمكن أن تقبض ببساطة على الماكنة الجاهزة للدولة وتستخدمها لأغراضها الخاصة». وخرجا بتعبير زوال الدولة التدريجي أو ذبول الدولة. واقترح أنجلز في رسالته إلى أوغست بيبل آذار 1875 «إحلال جيميوسين محل الدولة في كل مكان. كلمة ألمانية قديمة جيدة تستطيع نقل معنى الكلمة الفرنسية: كومونة جيداً» وكتب في مقالته مسألة السكن 1873 «ضرورة العمل السياسي من قبل البروليتاريا وديكتاتوريتها كتحول إلى إلغاء الطبقات ومعها الدولة» مما دعا إلى اتهامه بالتناقض وحتى دعوته بلاسلطوي.

ورث لينين هذه الذهنية القلقة وقال في إحدى صحواته اللاسلطوية عند إعداد قرار تبني اسم الحزب الشيوعي السوڤياتي «الديمقراطية شكل للدولة في حين نحن الماركسيين نعارض كل أشكال الدولة».

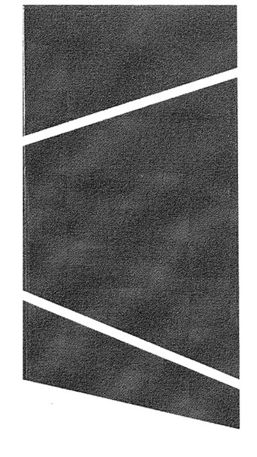
واليوم الطرفان في موقف حساب دقيق للنتائج: ففي يد أثبتت التجربة البلشفية بين أخطاء عديدة خطأ فكرة الحفاظ على الدولة ولو في مرحلة الانتقال على الأقل، ولأجل القضاء عليها فيما بعد. وفي يد أخرى برهنت التطبيقات اللاسلطوية رغم قصر آجالها في كومونة باريس 1871 و1968 وأوكرانيا 1919 وإسبانيا 1936 على سلامة الفكرة المضادة. وأكثر من ذلك برهن نظام المجاميع المنفذة بالمبادرة الفردية للعمال وإدارتهم الذاتية في كوفنتري والعمل المتآلف في حقول فحم دورم بإنجلترا على حقائق تفصيلية تدحض افتراضات أنجلز (مقالة التنظيم اللاسلطوي ـ كولن وارد في كتاب نماذج من اللاسلطة تحرير ليونارد آي. كوميرمان ولويس بيري ط. دبلدي. نيويورك 1966 ص 395) وخلاصتها كما في رسالته إلى بول لافارغ 30/ 12/

1871 «ليس من نشاط مشترك من أي نوع ممكن بدون فرض إرادة خارجية أعني سلطة» وتفصيلها في مقالته «عن السلطة» 1873.

إن موضوع الدولة ليس مسألة ظروف وإنما هي مسألة مبادىء، وهو يدعونا في مواضع أخرى إلى أن نعيد القول مع جيمس جول بأن اللاسلطوية معتقد كل شيء أو لا شيء، فلا مساومات ولا حلول وسط لذا كان من حق ثوار باريس الشباب سنة 1968 أن يرفعوا لافتة تقول «يجب أن يختفي مجتمع الاستلاب من التاريخ. نحن نخلق عالماً جديداً أصيلاً. الخيال يغتصب السلطة».

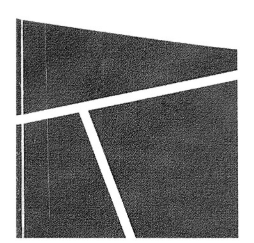
وأخيراً نقول مع ستالين «لسنا واحداً من هؤلاء الذين يواسون أنفسهم بفكرة أن ليس للاسلطويين من جماهير خلفهم، ولهذا فإنهم ليسوا خطيرين لهذا الحد. إنه ليس موضوع كمن له جماهير أوسع أو أصغر تتبعه اليوم. إن جوهر المبدأ هو الموضوع. إذا كان مبدأ اللاسلطوية يعبّر عن الحقيقة، ومن ثم فمن البديهي أنه سيشق طريقاً لنفسه بالتأكيد، وإن الجماهير ستلتف حوله حقاً».

بغداد 31/ 10/ 1992



اللاسلطوية

تجدد الاهتمام مؤخراً باللاسلطوية. وكُرِّست كتب وكراسات ومقتطفات لها. ومن الصعب متابعة المختصرات عن اللاسلطوية. ومفكروها الكبار نادراً ما قاموا بتلخيص أفكارهم في أعمال نمطية. وإذا ما حاولوا بالمناسبة مثل ذلك ففي كراسات صغيرة فقط صممت لأجل الدعاية والنشر العام. وفيها يمكن ملاحظة نتف فقط عن أفكارهم. فضلاً عن أن هناك عدة أنواع من اللاسلطوية. ومتغيرات عديدة داخل تفكير كل من التحرريين Libertarians الكبار.





سرت - ص.ب 921 - مبرق 30098 مطبوعات - ناسوخ 62100 - 054
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى